هنرييت عبودي

الدمية الروسية

قصص





Author: Henriette Aboudi	اسـم المـؤلـف : هنرييت عبودي
Title :The Russian Doll	عنوان الكتـاب : الدمية الروسية
Al- Mada P.C.	النـاشـــــر : المدى
First Edition : 2005	الطبـعـة الاولى : سنة ٢٠٠٥

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria

P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان - بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧

E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١

مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون - جانب فندق السفير

تلفون: ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣

www.almadapaper.com

almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

هنرييت عبودي

الدمية الروسية



المحتويات

الدمية الروسية

"أول يوم مشمس يطل علينا بعد أسابيع من العواصف والأمطار. أنستغله، كما يفعل سائر البشر، للتنزه في حديقة عامة؟ للتسكع على أرصفة نهر السين؟ للتبختر في جادة الشانز ليزيه؟ لا. نكرّسه لزيارة مقبرة! بحق الله من أين جئت بهذا المشروع الفذ؟ بهذه الفكرة الخارقة؟"

لم تعقب علياء على هذا الفيض الجديد من التعليقات الساخرة الصادرة عن صديقتها كلير؛ فقد كانت تناور لصف سيارتها في مكان ضيّق، بين باص ضخم وسيارة شحن. ولما انتهت من هذه المهمة الدقيقة واطفأت محرّك السيارة، استدارت نحو صديقتها وقالت، مشيرة إليها بالنزول: "تفضلي". أجابت كلير: "أتفضل؟ إلى أين؟ إلى مثواي الأخير؟" ثم أردفت تقول: "اسمعي. لماذا لا ترجئين زيارة مقبرة "بير لاشيز" إلى مناسبة أخرى؟ فأنا مستعدة اليوم لأن أدعوك على الغداء، وفي مطعم فاخر. أنت تختارين المطعم وأنا أسدد الحساب. ما رأيك بهذا العرض المغري؟ إنه لا يقاوم، أليس كذلك؟". ضحكت علياء وأجابت: "لقد ارجأت هذه الزيارة مراراً وقد استحق اليوم موعدها". وأمام تأفف كلير أضافت: "أكثر من خمسة أعوام انقضت على إقامتي في باريس

ولم أزر بعد مقبرة المشاهير هذه..." فقالت كلير على الفور: "وما وجه الغرابة في ذلك؟ فقد ولدت أنا في باريس، ونشأت فيها، ومضى أربعون عاماً على وجودي فيها من دون أن أقوم بزيارة واحدة إلى هذه المقبرة!" - "هذا تقصير منك" قالت علياء؛ "تقصير؟ وبحق من؟" سألت كلير؛ "- بحق العظماء الراقدين في هذه المقبرة" أجابت علياء وهي تهمُّ بالنزول من السيارة. فقالت كلير وهي تحذو حذوها "تعجبني كلمة راقدين؛ لكأن المقبرة مهجع!.. ثم تابعت تسأل بتهكم، وهي تلف عنقها بوشاح صوفي أحمر: "مع أي نزيل في "بير لوشيز" أنت على موعد؟ مع مارسيل بروست؟ مع غِيُّوم أبو لينير؟ أم مع أوجين دولاكروا؟" أطلقت بعد ذلك ضحكة وقالت: "إن المشاهير هنا مثل التراب فعلاً؟" فنهرتها علياء قائلة: "احترمي المكان. لقد غدونا الآن داخل المقبرة". هزت كلير كتفيها وسارت خلف صديقتها، في ممر مفروش بالحصى، تحيط به أشجار وقبور. مرّتا بجوار كشك خشبي تربع في داخله حارس. كان الحارس يعرض على الراغبين مخططاً للمقبرة، فاقترحت كلير شراء واحد غير أن علياء عارضت الفكرة. سألتها مستغربة: "وكيف نهتدي إلى القبور، عفواً إلى الأسِّرة، التي نود زيارتها والوقوف عندها خاشعتين؟ فالمكان شاسع ويتسع للالآف من الراقدين". فأجابت علياء "وماذا وراءنا؟" ولمَ نفسد متعة الاكتشاف بالتقيد بإرشاداتِ مخطط؟" رفعت كلير ذراعيها في حركة استسلام وقالت: "حسناً! ليكن لك ما تشائين... لكن شيئاً واحداً لم أفهمه أنا بعد: لماذا أوافق، كالحمقاء، على مرافقتك في هذه الجولة المأتمية". فردت علياء "لأنك، بالفعل، امرأة

حمقاء". ثم أردفت تقول: "لتبحث كل واحدة من جهة، على أن نلتقي عند آخر هذا الممر". وفيما كانت تباشر تجوالها بين القبور سمعت كلير تقول "أفيدك، مسبقاً، بأن هنالك العشرات، بل المئات من الممرات المماثلة. فليكن الله في عوننا".

بيد أن كلير، التي دخلت المقبرة متذمرة ومتأففة، بادرت، بعد أقل من ربع ساعة، إلى الإعلان عن انسجامها التام مع المكان. فقد وجدت في البحث عن قبور المشاهير لعبة مسلية ومثيرة. كانت، كلما عثرت على واحد منها، تطلق صيحة ابتهاج وتسارع إلى إفادة علياء بنبأ الاكتشاف السار. وطال تجوالهما في "بير لاشيز" من دون أن تهمد حماسة كلير، التي مكثت تطوف بين القبور، في حين جلست علياء على مقعد طلباً لبعض الراحة. وفيما كانت تتابع حركة الدخان المتصاعد من سيجارتها وتصغي إلى صلاة امرأة راكعة أمام قبر مجاور، جاءها صوت كلير يناديها من بعيد. نظرت إلى حيث وقفت صديقتها فألفتها تومئ إليها بأن تأتي. بحركة من يدها أفهمتها بأنها لن تبارح مكانها؛ غير أن كلير عادت تناديها، مرفقة هذه المرة نداءها بإيماءات غريبة: كانت تشير إليها تارة، وإلى قبر وقفت أمامه طوراً. أثارت هذه الإيماءات المكررة فضول علياء، فنهضت من جلستها لملاقاة صديقتها. وعندما أصبحت على مسافة أمتار منها استطاعت أخيراً أن تميز كلماتها. كانت كلير تردد بانفعال ملحوظ: "شيء لا يصدّق! شيء لا يصدّق!.." فسألتها علياء وهي تدنو منها: "وما الذي لا يصدّق؟... هل عثرت على قبر هوميروس أو يوليوس قيصر؟" فأجابتها كلير وهي تشير إليها

من جديد: "بل على قبر باسمك!" توقفت علياء في سيرها وقالت بلهجة موبخة: "أمن أجل هذه الترّهات ناديتني؟" بيد أن كلير عادت تقول: "لم أصدّق عينيّ في البداية. اعتقدت بأن نظري قد زاغ بعد مطالعة مئات الأسماء. لكني عاودت مراراً قراءة ما حفر على هذه الشاهدة، وفي النهاية اضطررت إلى التسليم بهذه الواقعة الخارقة". فسألت علياء بانفعال وقد بدأ يتملكها إحساس بالضيق: "أي واقعة خارقة؟ فكيف أكون راقدة في هذا القبر وأنا لا أزال حيّة أرزق؟ هل المرأة التي أمامك هي من لحم ودم، أم أنها مجرد شبح؟.." ضحكت كلير ثم قالت وهي تدنو منها: "إنها من لحم ودم بكل تأكيد، فأنا واثقة يا عزيزتي من أنك ما زلت على قيد الحياة. ولكن هنا، على مرمى حجر منا، ترقد امرأة تدعى هي الأخرى علياء مازني. فما حيلتي في ذلك؟" وأضافت بعد هنيهة: "إنها ترقد منذ مئة سنة على وجه التحديد. فقد توفيت في عام ١٨٩١!" وإزاء النظرة غير المصدِّقة التي رمقتها بها علياء، قبضت كلير على يدها بقوة وقالت وهي تجرها ناحية القبر: "ما دمت تصرّين على التشكيك بكلامي فتفضّلي وتأكدي بنفسك من صحة ما أقول". وهكذا وجدت علياء نفسها واقفة كالبلهاء أمام ضريح من الحجر الأبيض المصقول نقشت على شاهدته الكلمات التالية "علياء مازني. أديبة. ولدت في عام ١٨٤٩ وتوفيت في عام ١٨٩١". ظلّت للحظات صامتة، جامدة في مكانها. لكزتها كلير وسألتها بود: "ما بك؟... ولماذا اصفر وجهك على هذا النحو؟... إنها محض مصادفة... لاريب أن في هذه المقبرة ضريحاً باسمي أنا أيضاً... فالأسماء ليست وقفاً على شخص

بعينه". فأجابت علياء وعيناها مسمّرتان على شاهدة القبر: "لكنها هي الأخرى أديبة. وهي، أيضاً، عربية الأصل، وقد عاشت، كذلك، في باريس مادامت قد توفيت فيها..." قاطعتها كلير قائلة، وقد راودها هي الأخرى إحساس بالضيق: "وما وجه الغرابة في ذلك؟ فممارسة الأدب كحياكة الصوف بالنسبة إلى النساء؛ هواية يقدمن عليها زرافات لأنها تساعدهن على قتل الوقت... أما أن تكون صاحبتنا قد عاشت وتوفيت في باريس فهذا ما يقطع بالدليل على أن الغزو العربي لفرنسا ليس ابن اليوم. فقد بدأ منذ القرن الماضي". ابتسمت علياء بالرغم منها، بيد أنها ظلت تمعن النظر في الضريح، في اسمها المحفور عليه. فأردفت كلير تقول، ولكن بلهجة حازمة هذه المرة: "لقد استوفيت اليوم حقي من القبور، ولن أمكث هنا لحظة واحدة أخرى". وتابعت تقول وهي تمسك بذراع صديقتها وتحاول جرّها بعيداً عن الضريح: "هيا نرحل. فقد غدا الجو هنا مكرباً، بل مأتمياً".

بعد أن انطلقت بهما السيارة بعيداً عن محيط المقبرة، خرجت علياء عن صمتها وقالت، وكأنها تخاطب نفسها: "غريب أمر هذه الأديبة! يقيني أنها مجهولة في بلادي. أنا، شخصياً، لم أسمع بها إطلاقاً... ترى، هل كانت تكتب بالعربية أم بالفرنسية؟ وأي نوع من الأدب كانت تتعاطى؟ هل كانت شاعرة؟ أم قاصة؟ أم صاحبة صالون أدبي؟" فقاطعتها كلير قائلة: "ولمَ هذا الفضول؟ كانت أديبة وكفى". فردّت علياء على الفور: "ولكنها تحمل اسمي. ألا تدركين معنى ذلك؟" فأجابتها كلير: "وماذا يتعين عليّ أن أدرك؟ اللهم سوى إصرارك الدائم على تحميل الأمور معاني وأبعاداً تتجاوزها؟"

"سوف أبحث عنها" قالت علياء بعد لحظة صمت. "تبحثين عنها؟ أين؟" ردّت كلير مستغربة. - "حيث يصار إلى البحث عن الأدباء، في المكتبات! ربما كان لها مؤلفات؟ ربما ورد اسمها في مرجع أدبي، في قاموس، لست أدرت". تنهدت كلير ولم تعلّق على كلام صديقتها. لكن عندما عادت علياء تقول بإصرار: "سأبحث عنها وسوف أهتدي إليها"، قاطعتها بنزق قائلة: "ألن ننتهي من الحديث عن القبور والأموات!... أي حماقة ارتكبت عندما ناديتك لأفيدك باكتشافي! فلقد غاب عني لحظتها أن السيدة علياء سوف تجعل من تلك الشاهدة مطية لخيالها السوداوي الجامح!" ومالت بعد ذلك على صديقتها وسألتها: "ماذا يقول ذلك المثل العربي الذي توليت ترجمته لي قبل أيام؟" فردّت علياء وهي تبتسم "لا تنم بين القبور، فلا ترى منامات..."

بيد أن علياء، حال عودتها إلى دارها، باشرت بحثها عن تلك الأديبة المجهولة. بدأت بالاتصال هاتفياً بسائر معارفها من الكتّاب والمثقفين العرب المقيمين في باريس لتسألهم إن كانوا على علم بوجود أديبة من القرن التاسع عشر تدعى علياء مازني. غير أنها لم تجد من عشرات المكلمات الهاتفية التي أجرتها سوى جواب واحد: علياء مازني الوحيدة التي نعرف هي أنت! انكبت بعد ذلك على مكتبتها، تقلّب في مراجعها العربية عساها تهتدي فيها إلى ضالتها؛ بيد أن هذا السعي كلل بدوره بالفشل. عادت إلى قاموس المؤلفين الفرنسي، فلم تعثر فيه على اسم علياء مازني. راجعت فهارس الأعلام في مؤلفات مستشرقين من القرن التاسع عشر من دون أن تخرج بنتيجة. بقيت مع ذلك مصممة

على مواظبة البحث، على المضي به حتى تبلغ ضالتها. فكتبت إلى سامر البنّا في دمشق تسأله إن كان قد تعرّض في سلسلة مؤلفاته عن الأدب النسوي لأعمال كاتبة من القرن التاسع عشر تدعى علياء مازني، وتطلب منه أن يفيدها، على جناح السرعة، بما يمكن أن يكون قد جمعه من معلومات عن هذه الأديبة من خلال دراساته وتقصياته. غير أن جواب سامر البنّا جاء بدوره مخيباً للأمل. فقد استغرب الناقد وجود هذه الأديبة، التي لم يسمع بها إطلاقاً، واعتذر عن عجزه عن تأمين المعلومات المطلوبة، وطلب مِن علياء أن تسدي له الخدمة التي تعذر عليه تأديتها: أن تفيده، لاحقاً، بالمعلومات التي قد يتسنى لها جمعها حول هذه الأديبة؛ فهو في صدد إعادة طبع كتاب "الأدب بالمؤنث" الذي خصص جزءاً منه لأدب المرأة في القرن التاسع عشر. وختم سامر البنّا رسالته قائلاً: "أما إذا كنت راغبة في الاطلاع على ما كتبته عن علياء مازني الثانية، عنك أنت أيتها العزيزة، فعليك بمطالعة آخر مؤلفاتي "أدب التحدي"؛ فقد كرّست لك في هذه الدراسة الجديدة فصلاً مطولاً آمل أن ينال إعجابك".

- "يقيني أنه لن ينال إعجابي" قالت علياء في نفسها وهي تطوي الرسالة. فقد كانت غاضبة على سامر البنّا لأنه أغلق في وجهها آخر باب تلج منه إلى عالم علياء مازني. وبدأت الشكوك تنتابها حول حقيقة وجود أديبة بهذا الاسم. فهل وردت كلمة "أديبة" فعلاً على شاهدة القبر؟ وهل صاحبة ذلك القبر كانت تدعى حقاً علياء مازني؟ ربما كان اسمها مختلفاً؟ ربما تضمن فحسب بعض أحرف من اسمها هي، فاختلط الأمر

على كلير، ومن ثم عليها؛ راودتها فكرة الذهاب إلى "بير لاشيز" من جديد لحسم هذه المسألة التي صارت بالنسبة إليها بالغة الأهمية؛ لكن الوقت كان متأخراً، لا يشجع على مثل هذه الزيارة. لم يبق أمامها سوى الاتصال هاتفياً بصديقتها عساها تساعدها على تبديد شكوكها المستجدة.

لكن ما إن فاتحت كلير بالموضوع الذي يشغلها حتى ارتفع صوت صديقتها، على الطرف الآخر من الخط، يستغرب ويوبّخ. أما زالت تجترّ حادثة القبر؟ أهي خالية البال إلى هذا الحد؟ أليست لديها مشاغل أكثر جدّية؟... لزمت علياء الصمت لحظات، ريثما تنتهي كلير من تلاوة سبحة استنكاراتها الساخرة. بعد ذلك عادت تسألها: "هل أنت واثقة تماماً من أن كلمة أديبة قد وردت على الشاهدة؟". فأجابت كلير: "أنا لا أثق، تماماً، بأي شيء في هذه الدنيا! لكن إن صدقت عيناي، وليس من عادتهما أن تصدقا، فإن عبارة FEMME DE LETTRES قد حفرت فعلاً على تلك الشاهدة". ولم تدع كلير لعلياء فرصة لطرح سؤال جديد إذ تابعت على الفور تقول: "لا ريب في أنك ترغبين في معرفة ما إذا كنت واثقة، تماماً، من الاسم؟ الجواب، أجل! فقد عاودت قراءته مراراً، لأني لم أصدّق عينيّ للوهلة الأولى. هل من أسئلة أخرى؟" قالت علياء عندها: "إن الأدباء لا يختفون، لا يمّحون من الوجود مع وفاتهم. فكيف اضمحل أثر هذه الأديبة؟ ولماذا سقطت في دائرة النسيان؟" فردت كلير للحال: "ربما لأنها لم تكن أديبةً بالمعنى المتّفق عليه... ربما اكتفت بتحرير بعض الرسائل لأصدقائها فتوهمت وأوهمت الناس من حولها

بأنها مدام دو سفينيّه ثانية!..." فقاطعتها علياء محتجة: "لا، لم تكن من مدّعيات الأدب. يقيني أنها كانت كاتبة جدّية، بل فذّة!" ضحكت كلير وقالت: "يعجبني هذا الدفاع عن شرف الاسم!" ثم تابعت تقول: "كيف تكون كاتبة فذّة وتمرّ مرور الكرام في عالم الأدب؟ إن كانت حقاً على الصورة التي تتخيلين، فإن أثرها باقٍ لا محال". فقالت علياء: "بحثت وفتّشت وقمت باتصالات عديدة دون أن أخرج بنتيجة!" فقالت كلير: "ربما أخطأت التوجه... هل راجعت قوائم المكتبة الوطنية ونقبت في "فيشها"؟" أجابت علياء بدهشة: "ولماذا أبحث عنها في مكتبتكم الوطنية؟ فهي كاتبة عربية..." "ولماذا لا تبحثين عنها في مكتبتنا الوطنية"، قالت كلير، "فهل تستخفين بما تحتويه من مراجع عن أدبكم وثقافتكم؟ ثم، لماذا تسقطين من حسابك احتمال أن تكون أديبتك المجهولة قد كتبت بالفرنسية؟" أيّدت علياء الفكرة وأعلنت عن تصميمها على القيام بغزوة للمكتبة الوطنية الفرنسية في صبيحة اليوم التالي.

وهذا ما فعلت. بادرت، لدى وصولها إلى ذلك الصرح الثقافي المهيب، إلى مراجعة سلسلة القوائم بأسماء المؤلفين. قلّبت فيها طويلاً بلا جدوى. أدركت عند ذاك أن المهمة تتجاوزها، فقصدت إحدى الموظفات طلباً للنصيحة. سألتها الموظفة: "في أي حقل تخصصت هذه الأديبة؟" فأجابت: "لست أدري". عادت الموظفة تسأل: "هل بوسعك أن تفيديني بعنوان واحد من مؤلفاتها؟" فأجابت: "لا. لست أعلم، أساساً، إن كان لها مؤلفات". بدت الحيرة على وجه الموظفة التي تابعت، رغم ذلك،

تسأل: "أأنت واثقة، على الأقل، من وجود أديبة بهذا الاسم؟" فردت علياء على الفور: "بكل تأكيد". ثم أضافت، بدافع إثبات صحة ما تقول: لقد دفنت هذه الأديبة في "بير لاشيز"، في جوار المشاهير من الكتّاب". ابتسمت الموظفة بتهذيب وقالت: "هذه المقبرة ليست وقفاً على الأدباء..." وأضافت بعد هنيهة: "لست أرى، في مطلق الأحوال، كيف يمكنني مساعدتك. فأنت لا تعرفين شيئاً عن هذه الكاتبة". فردت علياء: "بل أعرف أنها قد عاشت، ولو لفترة، في باريس، بدليل أنها قد دفنت فيها". فكرت الموظفة لحظة ثم قالت: "اسمعي؛ اذهبي إلى الاستعلامات واسألي عن جاك دوفرين. فهذا الموظف، الذي يعمل في قسم الأرشيف منذ عشرات السنوات، جرذ مكتبة. اطلبي مقابلته فهو الوحيد القادر على مساعدتك".

سعت علياء وراء المدعو جاك دوفرين، وتمكنت من مقابلته بعد طول ذهاب وإياب في أروقة المكتبة، وصعود ونزول على سلالمها. وأمام ذلك الرجل القصير والهزيل الذي تفوح منه رائحة الورق والتبغ عرضت طلبها بتردد وخجل؛ فقد أدركت، أخيراً، عبث بحثها ووهن الأدلة التي في حوزتها. أصغى إليها جاك دوفرين باهتمام ولم يحاول مرة واحدة أن يقاطعها ليطرح سؤالاً أو يفصح عن رأي. بل بقي فترة صامتاً بعد أن توقفت هي عن الكلام. سألها أخيراً: "هل عدت إلى "نساء عرفتهن" لبيير غوديّار؟" استغربت علياء السؤال ونفت أن تكون قد سمعت بالكتاب وبمؤلفه. ابتسم الرجل بتباهٍ واعتزاز وقال: "قلة نادرة، مع الأسف، تعرف بوجود هذا الكاتب، مع أنه قد خلّف العديد من المؤلفات.

ولكن لسنا هنا بصدد محاكمة الجيل الجديد من المثقفين. ما يهمنا هو موضوع أديبتك التي عاشت في باريس، في أواخر القرن المنصرم؛ هذا على الأقل ما فهمته من حديثك؟" هزّت علياء رأسها أن: أجل؛ فتابع جاك دوفرين يقول: "بيير غوديّار أديب مخضرم" ولد في عام ١٨٦٠، أو ربما في عام ١٨٦١، وتوفي، على ما أذكر، في عام ١٩٢٩، وكان يتردد على الصالونات والأندية الأدبية، ويتابع عن كثب الحركة المسرحية والفنّية. وقد قدّم في "نساء عرفتهن" مجموعة من البورتريهات عن أديبات وفنانات تسنت له معرفتهن. فإذا كان نجم علياء مازني التي تتكلمين عنها قد تألق فعلاً في سماء عاصمتنا، أو مر فيها ولو مرور الشهاب، فإنك ستجدين حتماً رصداً أميناً لمساره في كتاب غوديّار".

كادت علياء أن تنفجر من الضحك وهي تصغي إلى خطبة دوفرين المتحذلقة والمتصنّعة. لكنها تمالكت نفسها وشكرت الرجل على "المعلومات الثمينة التي أفادها بها" وقالت، وهي تصافحه مودِّعة: "يقيني بأني سألقى ضالتي في هذا الكتاب".

عندما وجدت نفسها من جديد في بهو المكتبة الشاسع، توجهت بخطوات مترددة نحو الباب الخارجي الكبير تبغي مبارحة المكان. فهي لم تحمل على محمل من الجد كلام ذلك الرجل المتكلف ولم يداخلها، ولو للحظة واحدة، الاقتناع باحتمال أن تكون علياء مازني واحدة من النساء اللاتي عرفهن المدعو بيير غوديّار! ولكن، وبعد أن أصبحت على الرصيف، خارج المكتبة، قفلت عائدة إليها: فلمَ تهمل أثراً قد يساعدها، من حيث لا تدري، على تحديد خط بحثها؟

كان كتاب غوديّار قد مكث ولابد سنوات وسنوات قابعاً فوق رفّه، لا يُطلب ولا يُعار، بدليل رائحة الغبار التي فاحت منه قوية عندما ألقته علياء على الطاولة. وقد زكمت هذه الرائحة أنفها وهي تجر كرسياً وتستقر عليه، فانتابتها نوبة من العطاس والسعال استاء لضجيجها الشاب الوقور الذي كان جالساً في مواجهتها؛ فقد رمق علياء بنظرة مؤنبة من خلف نظارته الطبية قبل أن ينكب من جديد على الكتاب الذي يطالع فيه. وخوفاً من أن تنتابها نوبة سعال جديدة يغتاظ لها جارها المباشر في قاعة المطالعة، فتحت علياء الكتاب بتؤدة وألقت نظرة سريعة على مقدمته، ثم قلّبت صفحاته، مبعدة رأسها إلى الخلف، من باب الاحتياط. كان الكتاب ضخماً، مصفر الأوراق، لا يغري بالمطالعة. ارتأت أن تراجع فهرسه للوقوف على موضوعات فصوله. كان كل فصل من تلك الفصول مخصصاً لأديبة أو لفنانة. "ساره برنار ومعجزة الشباب الدائم"، "كوليت، ريفيّة في باريس"، "الكونتيسة دي نواي، قلب لا يعرف الحدود"، "بيرت موريسو والمغامرة الانطباعية"... كان الفهرس طويلاً، يقع في ثلاث صفحات. وفي أواخر الصفحة الثالثة قرأت، وهي لا تصدق عينيها، العنوان التالي: "علياء مازني ولعبة الأوهام القاتلة". نظرت على الفور في من حولها، عساها تلقى وجهاً بشوشاً تزف إليه خبر اكتشافها. غير أنها لم تر سوى رؤوس منحنية فوق كتب مفتوحة، مشغولة بها عما حولها. قالت في صميمها "آه، لو كانت كلير هنا". ثم بادرت، وهي في حالة من الانفعال الشديد، إلى فتح الكتاب عند الصفحة ٤٦٠ لتقرأ ما جاء عن علياء مازني على لسان بيير غوديّار.

كتب هذا الأخير يقول، بفرنسية منمقة وسلسة في آن: "لم ألتق بعلياء مازني سوى مرة واحدة؛ وقد حصل هذا اللقاء عند مدام دي لابروتونيير التي كانت قد جعلت من دارها، الكائنة عند ساحة سان سولبيس، ملتقى لنجوم الفن والأدب في عاصمة النور. وعلى الرغم من انقضاء سنوات عديدة على هذا اللقاء اليتيم فإني لا أزال أذكره في أدق تفاصيله.

"كانت دار مدام دي لا بروتونيير قد اكتظت بالمدعوين في ذلك اليوم وضاقت صالوناتها الفسيحة بحشودهم الصاخبة. وكان بين تلك الكتل البشرية، الواقفة والجالسة ونصف المستلقية على الأرض، عشرات من معارفي تبادلت معهم أطراف الحديث، وأنا أقبض بقوة على كأس الشمبانيا خوفاً من أن تسقط من يدي بفعل لكزة تطولني من ضيف سمج أو حركة غير مدروسة تصدر عن واحد من الخدم، لاسيما أن التنقل بين صفوف هذا الحشد كان يقتضي من كل واحد أداء حركات بهلوانية. ولئن أفلحت، يومها، في الحفاظ على الكأس فإني لم أتمكن من المحافظة على محتواها: فقد اندلقت الشمبانيا على سترتي فيما كنت أتسلل بين حلقتين من المدعوين. ففي حمّى النقاش، رفع أحدهم ذراعه على حين غرّة وأطاح بالسائل. قلت له "لا بأس" وأنا أشتمه سراً، وأخرجت منديلي لأجفف سترتي - كنت أرتديها للمرة الأولى - ولأمسح وجهي الذي تلقى، هو الآخر، نصيبه من الرذاذ. عند ذاك لمحت سيدة تنظر إليَّ عن بعد وهي تبتسم. بادلتها الابتسامة وأنا أشير بمنديلي إلى سترتي المبتلة. ودخل فوج جديد من المدعوين وتحركت حلقات الواقفين من حولي، فغاب عني وجهها.

"لم يكفّ الضيوف عن التوافد في ذلك اليوم إلى دار مدام دي لا بروتونيير التي همست في أذني وهي تمر بمحاذاتي: "ما عدت أدري أين أضع كل هؤلاء الناس!... قد اضطر إلى فتح غرفة المكتبة...". كان يعز على صاحبة الدار أن تشرّع أبواب المكتبة أمام معارفها؛ فهذا المكان المميز هو برسم المقربين من أصدقائها فحسب. ولمّا كنت أعتبر نفسي من هؤلاء المقربين، رأيت أن أكون سباقاً إلى دخوله، قبل أن يصار إلى احتلاله من قبل المعارف. تناولت كأساً من الشمبانيا من فوق صينية عبر بها أحد الخدم، وسلكت الممر الطويل المفضي إلى المكتبة. لكن سيدة كانت قد سبقتني إليها، السيدة التي كانت قد ابتسمت لي قبل لحظات. فعندما دخلت إلى غرفة المكتبة وجدتها واقفة، غارقة في تأمل لوحة كبيرة، علّقت في جوار النافذة. هممت للإعلان عن وجودي ثم دنوت منها. استدارت نحوي، فعرّفت بنفسي ومددت يدي لأصافحها. صافحتني وعرّفت بنفسها، علياء مازني، ثم عادت تتأمل في اللوحة. حذوت حذوها وأنعمت النظر بدوري في الرسم، فيما كانت أسئلة تتدافع في رأسي حول هوية هذه المرأة. من تكون؟ ما أصلها؟ ما صلتها بصاحبة الدار؟ أدخلت المكتبة بالمصادفة أم أنها من المقربات من مدام دي لا بروتونيير؟ ثم ما معنى وقفتها أمام هذه اللوحة الغريبة؟ وما الذي يشدّها إليها، إلى حد فصلها عن العالم المحيط؟ ففي ذلك الرسم الزيتي بدت فتاة مستلقية على فراش وفي يدها كتاب. فتاة شاحبة الوجه، مغمضة العينين، يكشف الثوب الأبيض، الشفاف والطويل الذي ارتدته، عن جسد نحيل، هامد، شبه متخشب. وكان ثمة زهور تحيط

بالفراش، زهور لا أدري كيف نجح الرسّام في جعلها تضفي لمسة من الحزن على اللوحة، لا نبرة فرح وإشعاع. ولست أدري لماذا انتابني شعور بالضيق وأنا أنظر إلى تلك اللوحة؛ وكنت على وشك مكاشفة السيدة علياء مازني بهذا الشعور عندما بادرتني قائلة: "ما عرف قلبي الهوى قط إلا حيثما مزج الموت أنفاسه بأنفاس الجمال". ولم تدع لي فرصة التعليق على قولها إذ سارعت تضيف وهي تبتسم: "هكذا تكلم إدغار ألن بو"... ابتعدتْ بعد ذلك عن اللوحة وجلست على إحدى الأرائك الجلدية فجلست بدوري في قبالتها ورحنا نتبادل أطراف الحديث. طالت جلستنا في ذلك الركن الهادئ الذي مكث، لحين مع الأسف، في منأى عن الصخب والضجيج السائدين في صالونات الدار. كانت هذه السيدة قد أثارت فضولي فرغبت في معرفة المزيد عنها. وكانت، كلما وجهت لها سؤالاً يتعلق بشخصها، بعملها، بميولها وطموحاتها، تبادر إلى الضحك ثم ترمقني بنظرة ساخرة وتنتهي... إلى إشباع فضولي! وهكذا قيّض لي أن أعرف أنها مشرقية الأصل، وأنها عاشت متنقلة بين دمشق وبيروت قبل أن تستقر في باريس "حتى إشعار آخر" على حد تعبيرها. وعرفت كذلك أنها أديبة، تكتب القصة والشعر، "القصة بالعربية والشعر بالفرنسية"، وأنها تطرق أحياناً باب المقالة الأدبية. وقد أفادتني بأن دراسة لها حول الموت كواقع معاش لدى عدد من الكتّاب سوف تصدر في عدد قادم من مجلة "ليه دو موند"؛ وقد قيّض لي، في وقت لاحق، مطالعة هذه الدراسة فأعجبت بمستواها الرفيع وذهلت بما فرجت عنه من ستار الغيب. ومازلت أذكر كيف أني علقت لحظتها على عنوان

المقالة، كما أفادتني به، قائلاً: "يدهشني أن تأتي كلمة "موت" مرتين على لسان امرأة شابة وجميلة في أقل من ربع ساعة!" وقد أجابتني، وهي تعاود النظر إلى اللوحة المعلقة على الجدار: "لست أدري، ألأن الموت يخيفني أم لأنه يجذبني؟!... قلت على الفور: "وهل يعقل أن يمارس الموت جذباً؟ فهو يعني النهاية!" فردّت بصوت هادئ: "بل قد يكون بداية". وسألتها "كيف يكون بداية؟" غير أن سؤالي ضاع وسط ضجيج مباغت أخلّ بجلستنا: فقد وفد علينا لحظتها جمع هائج من المدعوين تتوسطه مدام دي لا بروتونيير. ووجدت نفسي، على حين غرة، مأخوذاً في دوامة بشرية ماجت بي داخل المكتب قبل أن تلفظني خارجه. وسعيت لاحقاً إلى البحث عن علياء مازني في شتى أرجاء الدار. ولكن بلا جدوى. سألت مضيفتنا إن كانت قد رحلت فقالت "لست أدري. فليس من عادة علياء أن تودع راحلة ولا أن تحيّي قادمة".

رفعت علياء رأسها وألقت على ما حولها نظرة ولهى، تدفعها رغبة عارمة في مكاشفة أي إنسان بأهمية وروعة ما تقرأ. بيد أنها لم تلق سوى رؤوس منكبة فوق كتب وكراريس. راودتها فكرة مغادرة القاعة والاتصال هاتفياً بكلير. فصديقتها خير من يثمّن أهمية هذه الصفحات التي خطّها ناقد فرنسي عن سميّتها. بيد أنها عدلت عن مشروعها وأرجأت تنفيذه ريثما تنتهي من قراءة كل ما كتبه بيير غوديّار عن علياء مازني. فشغفها بمعرفة المزيد عن هذه الأديبة كان أقوى من أن يقاوم، ولاسيما أن العبارات التي أوردها الناقد على لسانها لاقت صدى مباشراً في نفسها. استأنفت مطالعتها وهي تمني نفسها بمتعة توطيد

معرفتها بعلياء مازني عن طريق شهادات أو ملاحظات أو تعليقات يوردها الناقد بهدف تسليط المزيد من الأضواء على الأديبة التي تتطلع للتعرف عليها. بيد أنها أدركت، من السطور الأولى، أنها سوف تظل على جوعها. فقد انتقل بيير غوديّار، وعلى نحو مباغت، إلى الحديث عن وفاة علياء مازني وكتب يقول:

"لولا الظروف الغريبة التي أحاطت بوفاة هذه الأديبة المشرقية لما تطرقت إلى الحديث عنها، لاسيما وأنها مكثت مجهولة عندنا إلا من قبل قلة نادرة من الكتّاب والمثقفين. وللشهادة أذكر أن مارسيل بروست قد أتى ذات يوم على ذكرها في حضوري مبدياً إعجابه العميق بشعر هذه الأديبة، التي لم يقدر له لقاؤها، وعن تأثره البالغ بقصة وفاتها. وقد قال لي بالحرف الواحد: "أكثر ما جذبني إلى علياء مازني هو ذلك الاستعداد لتحمل مسؤوليات الأوهام ولدفع ثمنها حتى النهاية".

"لكن هل ذهبت تلك السيدة حقاً ضحية أوهامها؟ إن الإجابة عن هذا السؤال تتجاوزني. لذلك سوف أكتفي بسرد قصة وفاتها كما روتها لي مدام دي لا بروتونيير.

"علياء مازني، التي كانت في أتمّ الصحة والعافية، وُجدت جثة هامدة على إحدى الأرائك في صالون دارها الباريسية. وقد أكدت خادمتها، التي كانت السبّاقة إلى العثور عليها، بأنها كانت تركتها في أفضل حال عندما غادرت الدار بعد ظهر ذلك اليوم للقيام ببعض المشتريات. وقد أوضحت الخادمة بأنها لم تغب أكثر من ساعتين، مع أن سيدتها كانت قد سمحت لها بألا تعود قبل المساء؛ وكانت آخر عبارة

قالتها لها: "خذي وقتكِ. فأنا لا أنتظر أحداً ولا أنوي الخروج. سوف أكرِّس بعد ظهر هذا اليوم للمطالعة". وقد عثر، بالفعل، على كتاب في جوار الجثة. ووجود هذا الكتاب هو الذي أثار التساؤلات حول حقيقة الأسباب التي أدّت إلى وفاة علياء مازني. فقد أفادتني مدام دي لا بروتونيير أن المجلّد الذي كان بين يدي علياء لحظة وفاتها يعود إلى القرن الثامن عشر وأن مؤلفه، جان دي لاغرانج، قد استعرض فيه عدداً من الشخصيات الأدبية والفنية التي تسنّت له معايشتها أو معرفتها. وقد شاءت غرابة المصادفات أن تمثل بين مجموعة الشخصيات المقدّمة كاتبة مشرقية تدعى بدورها علياء مازني! وقد قدّم عنها جان دي لاغرانج، كما اتضح لي من مطالعة الكتاب لاحقاً، صورة ذكرتني إلى حد كبير بسميَّتها علياء مازني التي عرفت. فعن هذه الأديبة كتب الزميل الذي سبقني بقرن يقول إنها "كانت تعيش موزّعة بين الحلم والواقع وترفض الاعتراف بوجود حد يفصل بينهما"؛ وفي مكان آخر يقول "سألتها مرة عن أسباب إعجابها الشديد بكاليوسترو، الذي ربطتها به صداقة قوية، مستغرباً أن تؤخذ سيدة في ثقافتها وذكائها بشعوذة ذلك الطبيب المنجّم الغاطس في فضيحة هزّت ركائز العرش الملكي، أقصد فضيحة عقد الملكة ماري أنطوانيت، فأجابتني بأن ما يجذبها في كاليوسترو هو تلك القدرة على تحدي الخط الفاصل بين الحياة والموت".

"وقد توفيت علياء مازني، التي تحدث عنها جان دي لاغرانج، في باريس، في عام ١٧٩١، أي في خضم أحداث الثورة الفرنسية. لم تذهب ضحية أعمال العنف التي عمّت العاصمة، ولم تقضِ بسبب داء فتّاك أو

وباء وافد. إن حادثة وفاتها تنطوي، هي الأخرى، على قدر كبير من الغرابة، لذلك لن أحاول تلخيصها بعبارتين، بل سأنقل، حرفياً، ما كتبه جان دي لاغرانج بهذا الخصوص:

"كانت علياء مازني قد طلبت صبيحة ذلك اليوم من وصيفتها، كما أفادت هذه الأخيرة لاحقاً، أن تؤمن لها بضع باقات من الورد الأبيض. وقد ألحّت في طلبها، مع أن معظم بائعي الأزهار كانوا قد أغلقوا متاجرهم في باريس بسبب الأحداث، مما اضطر حوذيها الخاص إلى الذهاب حتى ضاحية سان - كلو ليأتي بها من عند الجنائني لاروش. وعندما حضرت الورود عمدت إلى توزيعها بنفسها في صالونها. لم تضعها في آنية أو مزهريات، بل فرشتها على الأرائك والطاولات. وقد سألتها وصيفتها لماذا تحكم على هذه الورود بالذبول السريع بحرمانها من الماء، فاكتفت بالابتسام دون أن تجيب. وبعد أن انتهت من تنضيدها ذهبت إلى الخزانة الزجاجية التي تحتل أحد أركان الصالون والتي تتضمن مجموعة من التحف والهدايا التذكارية التي عادت بها من جولاتها عبر عدد من الأقطار. وقد شغلت دمية روسية أحد رفوف تلك الخزانة؛ دمية خشبية ملونة مؤلفة من شقين، إذا فصل أحدهما عن الآخر انكشفا عن دمية مماثلة ولكن أصغر حجماً، وهكذا دواليك. وكانت علياء، التي صفّت على ذلك الرف أربعاً من تلك الدمى على نحو متدرج، قد كررت مراراً على مسامع وصيفتها بأن ثمة دميتين لا تزالان في جوف الرابعة. وقد حصل ذات مرة أن حاولت الوصيفة فتح تلك الدمية الحبلى بدميتين، لتتبين ما في جوفها، فنهرتها علياء بحدة، وحذّرتها من تكرار فعلتها.

وقد أكدت الوصيفة أن سيدتها قالت لها في حينه: سأفتح هذه الدمية عندما يحين الأوان. لذلك كانت دهشة الوصيفة عظيمة عندما رأت سيدتها في ذلك اليوم المشؤوم تسحب الدمية الرابعة من الخزانة وتفتحها بتأن وتخرج منها دمية جديدة. وقد مكثت علياء طويلاً، على حد إفادة الوصيفة، تتأمل في النموذجين وهي تبتسم بحزن؛ وقد أعادتهما بعد ذلك إلى الرف، في جوار النماذج الثلاثة الأخرى، وأغلقت الخزانة. ولم تعط أي تفسير لسلوكها؛ لم تقل لماذا اختارت تلك اللحظة بالذات لإنهاء فترة حمل الدمية الرابعة ولإطلاق سراح الدمية الخامسة، بل اكتفت بأن قالت لوصيفتها، وهي تشير بإصبعها إلى الدمية الوليدة: لم يبق إلا واحدة تنتظر موعدها مع الحياة. ثم سارت باتجاه أريكة غطتها الورود واستلقت عليها. طلبت من وصيفتها أن تغلق الستائر الخشبية والنوافذ بإحكام، ففعلت. دعتها، بعد ذلك، إلى الذهاب بصحبة الحوذي إلى دار خياطتها، جانين لانسيل، لإحضار الثوب الأبيض الجديد الذي أوصتها عليه. فلبّت الوصيفة. وعندما عادت، ومعها الثوب الأبيض، كانت علياء مازني قد فارقت الحياة. ربما قضت اختناقاً برائحة الورود التي كانت تعبق بها الغرفة. فهي لم تكن تشكو من أي داء".

"المذهل في الأمر أن علياء مازني، التي عرفتها أنا، قد توفيت وهي تقرأ في كتاب لاغرانج، ربما وهي تقرأ وصف لاغرانج لوفاة علياء مازني التي عرفها هو. والمذهل أكثر أن هذه الأخيرة قد توفيت في الثالث والعشرين من نيسان من عام ١٧٩١ وأن أديبتي أنا قد توفيت في اليوم عينه، وإنما في عام ١٨٩١! فهل لهذا التاريخ دوره..."

هنا توقفت علياء عن المطالعة. بحثت عن لفافة وأولعتها بحركة آلية. سمعت الشاب الجالس قبالتها يقول: "التدخين ممنوع في القاعة، يا سيدة". رمت اللفافة على الأرض ودعستها بقدمها. ثم سألت الشاب بصوت مخنوق: "أي يوم نحن؟" فأجاب: "الثلاثاء". فعادت تقول: "لا، أود معرفة تاريخ اليوم". فأجاب قبل أن يعود إلى كتابه: "الثالث والعشرون من الشهر. الثالث والعشرون من نيسان".

عشية ذلك اليوم حاولت كلير مراراً الاتصال هاتفياً بصديقتها. لكن لم يكن من مجيب في دار علياء مازني.

الرحيل إلى البحر

"لمَ أصررتُ على الذهاب إلى البحر؟ لمَ ركبت رأسي وعزمت على الرحيل رغم هبوط الليل وتلبد الغيوم في السماء؟ لمَ هذا التعنت، لم هذه المجازفة، لم هذا الغرور؟ الحنين إلى البحر؟! ولمَ لا أقصده غداً أو بعد غد؟ في وضح النهار، في يوم مشمس، لا تحت وابل من المطر وفي ظلمة دامسة! لقد نبهوني. قالوا: العاصفة قادمة لا محالة. ولقد حذّروني. قالوا: الأحمق وحده يغامر بهبوط دروب البحر الملتوية في ساعة متأخرة من الليل. فخلف كل منعطف هاوية، والمنعطفات فيها أكثر من أن تحصى. مع ذلك صعدت إلى سيارتي، أدرت محركها، وانطلقت بحماسة فائقة مخلّفة ورائي المدينة وأنوارها. انطلقت لأستقبل الظلمة الزاحفة ولتداهمني عاصفة لم أحسب لعنفها حساباً. وهأنذا وحدي في بحر من السواد، لا يخفف من وحشته ضوء سيارة عابرة أو حتى بصيص نور في الأفق البعيد. حلمت بالبحر الأزرق!..."

كانت تعاتب نفسها بمرارة وقد قبضت بشدة على المقود. قرّبت وجهها من النافذة الأمامية كيما تتبين طريقها من خلف الستارة المائية التي باتت تغطي الزجاج. كانت تتقدم ببطء شديد خوفاً من أن تباغت

بمنعطف، من أن ترتطم بحاجز مفاجئ. وكانت كلما تأكدت من أن الطريق أمامها تمتد منبسطة لأمتار، تحيد بنظراتها عنها وتغامر بتفحص الأفق علّها ترصد نوراً ينم عن وجود أنس. نوراً يخفف من وحشتها ومن روعها، ولا يزيدهما حدة على غرار ذلك البرق الرهيب الذي كان، بين الفينة والأخرى، يمزّق الحلكة المهيمنة، ولا ينحسر لمعانه الفولاذي إلا مخلفاً وراءه انفجاراً ترتعد له فرائص المطر فيزداد هطوله حدّة وعنفاً.

دوّى انفجار قوي. ولم تتبدد أصداؤه حتى كانت سيارتها الصغيرة تتعرض لوابل من الطلقات استهدفتها من كل صوب. لكأن عشرات البنادق الرشاشة صبّت عليها نار فوهاتها دفعة واحدة! هكذا خُيِّل لها للوهلة الأولى، إلى أن فطنت إلى أن البَرَد هو الذي يهاجمها. كانت حبّاته ترتطم بعنف على الزجاج وكأنها تبغي تحطيمه، وتفرقع على السطح الصفيحي مستميتة لاختراقه. خشيت أن يتكسّر الزجاج تحت الضربات المتلاحقة وساورتها فكرة الالتجاء إلى واحدة من الشجرات الباسقة المنتصبة بمحاذاة الطريق. وفيما هي تجهد للانعطاف بتؤدة، وقد شعرت بعجلات سيارتها تنزلق فوق أرض محا البَرَدُ معالمها، تنبهت إلى خطورة الوقوف تحت شجرة فيما السماء تبرق. فالأشجار تجتذب الصواعق، هذا ما سمعته يوماً. عدلت عن مشروعها وارتأت أن تستأنف سيرها، غير أنها كانت تتقدم يميناً ويساراً وكأنها ترقص، بل تتزلج فوق مساحة جليدية. همّ الدمع أن يطفر من عينيها غيظاً وخوفاً، وكادت أن تلعن البحر، وحنينها الدائم إليه، وتلك الرغبة الجامحة في ملاقاته، التي دفعت بها إلى مغادرة المدينة الوديعة، لسلوك دربه المتعرجة

والمحفوفة بالأخطار. مضت لحظات ثقيلة متوترة، وهي تصارع كيما تحافظ على توازن السيارة التي كانت تشق طريقها بصعوبة وسط الريح العاصفة ووابل البَرَد المتساقط بغزارة. وكانت كلما بلغت منعطفاً جديداً تشعر بقلبها يرتجف هلعاً. فقد تحيد العجلات عن الطريق وتهوي بالسيارة وبها في مهلكة. لاسيما وأن الدرب آخذة في هبوط، بل في هبوط متزايد... أرادت أن تخفف من سرعة سيرها، فضغطت برفق على الكابح. شعرت بنفسها تنزلق. أغمضت عينيها خوفاً، بيد أن الكارثة لم تقع. فالعربة لم تنقلب بها، لم تهو في حفرة، لم تصطدم بشجرة، بل تابعت سيرها على خط منحدر. تمالكت نفسها أخيراً وفتحت عينيها وقد عزمت على السيطرة على الموقف من جديد. وكالبحّار الذي يهتدي إلى منارة بعد طول تيه في البحر، حيّت بصرخة ابتهاج النور البرتقالي الذي لاح لها في الأفق القريب، متحدياً بإشعاعه الدافئ رهبة السواد المحيط. ضغطت على دواسة البنزين بعصبية وانفعال وكأنها أسقطت من حسابها مفاجآت الدرب وأخطارها قاطبة. كان همّها الأوحد أن تبلغ النور قبل أن ينطفئ، قبل أن يتجلى سراباً...

أعادت مرتين، بل ثلاث مرات، قراءة هاتين الكلمتين: "فندق الرحيل". كانتا قد خطتا بحروف سود لمّاعة - بفعل المطر ربما - على يافطة معدنية بيضاء، رُفِعت فوق باب حديدي مهيب، واعتلاها مصباح قوي التوهج. لقد اهتدت إذن إلى فندق، إلى الحل الأمثل في ليلة اللعنات هذه. سوف تبيت فيه، وغداً، مع إشراق شمس يوم جديد، تستأنف رحلتها إلى البحر.

لكن سرعان ما راودتها الشكوك حول فرص مبيتها في هذا الفندق. فباستثناء المصباح المضاء لم يكن ثمة ما ينم عن وجود حياة في "فندق الرحيل" ذاك. بل لم يكن ثمة مؤشر آخر على وجود فندق في تلك البقعة المهجورة! فالباب الحديدي الضخم كان يشكل جزءاً من سور حجري مرتفع بما يكفي ليحجب الرؤية عن كل راغب في معرفة ما هو كائن خلفه. بيد أنها طردت شكوكها. ومنعاً لكل تردد، وبالرغم من المطر المنهمر بغزارة، خرجت من سيارتها وطرقت على الباب بقبضتها عسى يسمعها من في الداخل.

كانت ضربتها كافية لتجعل الباب ينفرج قليلاً. لم يكن مقفولاً إذن. دفعته بقوة ووقفت مشدوهة. عشرات الأنوار كانت تشع في بناء قابعٍ على مسافة أمتار، يفصله عنها ممر تحسست، وهي تقطعه عدواً، بنتوءات الحصى التي تفترشه. كادت أن تتعثر قدماها بالسلم الصغير المفضي إلى مدخل الفندق، غير أنها تفادت السقوط في اللحظة الأخيرة. مررت يدها على شعرها تمسح عنه ماء المطر، وبعد أن اهتدت إلى الجرس الكهربائي ضغطت عليه ومكثت تنتظر؛ ثواني معدودة وفتح الباب. رجل طويل القامة، رزين الوجه، أبيض الشعر، وقف قبالتها. ابتسمت وهي تقول له، وقد تسارعت عباراتها إلى حد التداخل: "مساء الخير... عاصفة رهيبة، أليس كذلك؟... آمل أن تكون لديكم غرفة شاغرة... غرفة بسريرٍ واحد..."

لم ينبس الرجل إلا بكلمة واحدة: "آسف" ورجع خطوة إلى الوراء وكأنه ينتظر أن تنصرف حتى يعيد إغلاق الباب. لكنها اندفعت إلى بهو

الفندق وقالت بصوت متهدج: "غير معقول... لابد أن يكون لديكم سرير شاغر... أرجوك أيها السيد، افعل شيئاً ما... فقد جنّ جنون العاصفة، والطريق موحشة، والبحر لا يزال بعيداً. فإلى أين آوي في هذا الليل، أرجوك!"

لكن الرجل عاد فكرر كلمة "آسف" مرفقاً إياها هذه المرة بحركة من يديه تشي بعجزه.

نظرت فيما حولها تريد أن تستنجد بأحد. كان البهو خلواً من كل جليس؛ فنزلاء الفندق يتناولون العشاء في قاعة مجاورة في أغلب الظن، بحسب الأصداء المترامية إليها، والخدم مشغولون بتلبية طلباتهم. والرجل أمامها ينظر إليها باحترام، بشيء من العطف، وإنما بإصرار أيضاً على عدم السماح لها بالمبيت. فقد عاد يقول: "آسف يا آنسة؛ ثقي بأني أقدّر تماماً الوضع الصعب الذي أنت فيه، لكن لا يوجد لدينا غرفة شاغرة".

وبحركة من ذراعه أشار لها بأن تتفضل وتغادر المكان.

انصاعت لحركته الآمرة، واستدارت منكسرة النفس، تبغي الخروج. غير أنها سمعت وقع أقدام مَهَّدَ لدخول سيدة جاءت من غرفة متصلة بالبهو كتبت على بابها كلمة "خاص". كانت سيدة في الخمسين، بدينة بعض الشيء، وقوراً، قاسية الملامح. كانت ترتدي ثوباً أسود مفتوحاً عند العنق، وتمسك بين أصابع يدها اليمنى مبسماً فضياً تحترق سيجارة في أقصاه. كان شعرها مشدوداً عند الصدغين ومكوماً في أسفل الرأس على شكل كعكة، مما دفعها إلى القول، بينها وبين نفسها، وبصورة شبه

آلية: "إنها تشبه أم كلثوم". قالت القادمة بصوت هادئ وهي تتأملها بإمعان: "يبدو أنك راغبة في المبيت هنا". تدخّل الرجل عند ذاك ليقول: "لقد أوضحتُ للآنسة بأن الأسرّة جميعاً مشغولة واعتذرت عن استقبالها". مكثت السيدة تتفحصها ثم قالت، موجّهة كلامها للرجل دون أن تنظر إليه: "وهل يعقل يا سليم أن نرفض طلبها في ظرف كهذا؟ فالعاصفة مستمرة حتى صباح الغد. وقد تقدّم الليل. إلى أين تذهب؟... خذها إلى الغرفة!"

ولم تدع للفتاة فرصة للتعبير عن امتنانها العميق، إذ ما إن أصدرت أمرها الأخير، إلى من دعته بـ "سليم"، حتى استدارت على عقبيها وغادرت البهو، وعادت من حيث قدمت، إلى الغرفة التي كتبت على بابها كلمة "خاص".

سأل سليم: "هل مع الآنسة حقائب؟" أجابته: "أجل، في السيارة، عند المدخل الخارجي". ثم أضافت، وهي تبتسم له. "بالمناسبة، إني سيدة متزوجة... لكن إن شئت أن تدعوني آنسة فلا بأس". لم يعقب على كلماتها، بل اكتفى بأن تناول مظلة سوداء كانت معلقة على مشجب بالقرب من الباب، وفتحها، ثم قال: "يستحسن أن أتولى شخصياً إحضار متاعك، فالعاصفة لا تزال على أشدّها". ناولته مفتاح السيارة وقالت موضّحة: "هنالك حقيبة واحدة، تجدها على المقعد الخلفي".

عندما فتح سليم باب الغرفة وقال لها "تفضلي" وهو يضيء المكان، ندت عنها صيحة دهشة. ففيما كانت تصعد درجات السلم خلفه خيّل إليها أن الغرفة التي ستكون من نصيبها في هذه الليلة إنما هي للخدم

في أفضل الأحوال؛ هذا إن لم تكن حجرة مهجورة، واحدة من تلك الحجرات المظلمة الرطبة التي لا يخلو فندق منها والتي يصار عادة إلى إغلاقها في الشتاء ولا يعاد فتحها إلا في مواسم الاصطياف، مع تزاحم الوافدين. وقد توقعت، عندما همّ سليم بفتح الغرفة، أن تهب عليها رائحة عفونة، مقرونة بمشهد فراش لُفّ فوق سرير حديدي غطته طبقة كثيفة من الغبار. فإذا بها، على عكس ما توقعت تماماً، تلج إلى داخل... علبة مجوهرات! أجل، فالغرفة التي خصّتها بها السيدة التي تشبه أم كلثوم كانت توحي بصندوق منجّد من باطنه وملفّح بالحرير الأبيض.

لم تقو على كبح ضحكتها حين وقعت عيناها على السرير الواسع المصنوع من الخيزران الأبيض والمغطّى بفراء أبيض. نظرت إلى سليم، وفي نيتها مسارّته بالمخاوف التي راودتها بصدد الغرفة، مخاوف وهمية، مضحكة؛ لكن الرصانة التي تلبست ملامح وجهه جعلتها تعدل عن فكرتها. قال لها سليم، بعد أن ألقى نظرة سريعة على ساعة معصمه: "إن الفندق، مبدئياً، لا يقدم وجبة عشاء بعد التاسعة. لكن، ربما وافقت السيدة على الخروج عن القاعدة". كان قد شدّد على كلمة "مبدئياً"، مما جعلها تفكر بأنه ربما امتعض لأن السيدة قد سمحت لها بالمبيت في الفندق في حين أصرّ هو على عدم استقبالها "بالمناسبة، لماذا نفى نفياً قاطعاً وجود ولو سرير واحد شاغر في الفندق؟" لم تبحث عن جواب لهذا السؤال الذي أدارته بينها وبين نفسها، بل اكتفت بأن تقول: "لست جائعة على الإطلاق"، لتضيف بعد هنيهة: "ينبغي أن أستيقظ باكراً، في الغد؛ في السادسة صباحاً. فهل ثمة من يتولى مهمة

إيقاظي... مع شيء من القهوة إذا أمكن؟". قال "طبعاً" وأضاف وهو يهم بالانصراف: "تصبحين على خير يا آنسة... عفواً، يا سيدة".

بعد خروج سليم ألقت بنفسها على السرير، كمن يزيح حملاً عن كتفيه، ومكثت للحظات تنعم بملامسة الفراء الأبيض لخدّها، بمشهد الستائر البيضاء الشفافة، المعقودة على طرفي نافذة الغرفة العريضة بحبل حريري لمّاع، بمجمل أثاث الغرفة النظيف البرّاق المعبِّر عن ذوق مرهف. لفتت انتباهها صور فوتوغرافية توزعت على الجدران. استغربت وجودها في غرفة فندق فنهضت ودنت من واحدة منها؛ واجهتها صبية في ثياب سهرة تبتسم لمن باغتها بآلة التصوير وهي منشغلة بإشعال شموع صفّت على قالب من الحلوى. تمتمت بكلمة "غريب" وانتقلت إلى صورة أخرى. كانت الصبية عينها، لكن في جينز وقميص أبيض، تبدو فيها منتصبة القامة، وقد أحاطت بذراعها سيدة بدينة بعض الشيء، تكبرها سناً وتفوقها طولاً. تفرّست في وجه السيدة فألفت نفسها تقول، بصوت مسموع: "لكنها سيدة الفندق! صاحبته... شبيهة أم كلثوم..." كررت ذلك كمن يؤكد أمراً مسلماً به، وكأنها تريد أن تقنع نفسها بصحة ما تقول. ذلك أن السيدة التي في الصورة كانت بلا ريب هي تلك التي تدخّلت لتنقذها، لتسمح لها بالالتجاء إلى الفندق، بالخلاص من العاصفة. غير أنها لم تكن هي تماماً في الوقت عينه. ثمة فارق خفي، عجزت عن تحديده، كان يوحي بوجود تمايز بين المرأة التي حدّثتها لتوها وهذه التي تقف الآن أمامها في الصورة. أين مكمن هذا التمايز؟ ما هويته؟ ما مصدره؟ لماذا هو قائم؟ وهل هو قائم حقاً؟ أسئلة مألوفة

عادت تنصب لها شراكها في هذه الليلة، على أمل جرّها إلى دوامتها.
فكثيراً ما كان ينتابها إحساس بأن ثمة فارقاً، مبهم الهوية، غامض المصدر، يشوش التطابق - إن لم يلغِه - بين الواقع والصورة التي تحملها هي عن الواقع؛ وبأن هذا الفارق، الذي تعجز عن القبض عليه، عن تحديده، بل حتى عن الجزم بصحة وجوده، إنما هو خليق، فيما لو عرفت طريقها إلى تعيينه، إلى كشف سرّه، بأن يقلب رأساً على عقب الصورة التي تحملها عن واقع معين. لكن لم يحصل مرة واحدة أن أفلحت في تسميته، في الحسم في أمره نفياً أو تأكيداً، حتى عندما كانت الشكوك حول سلامة تصورها للواقع تراودها بصدد أمور يفترض أن تكون مسلماً بها. وعندما كان إحساسها الدفين بانعدام التطابق بين الواقع الأصيل وصورتها عنه يطفو ويطغى، كان يغلب عليها حزن سرعان ما ينقلب إلى قنوط وسوداوية، فتنقاد إلى التشكيك بالبديهيات وتجنح إلى فقدان ثقتها بأقرب الناس إليها. وخشية من أن تسقط مرة أخرى في شراك تلك السوداوية آثرت الابتعاد عن الصورة التي حركت في نفسها الشكوك.

من جديد واجهتها المرأة الشابة في صورة أخرى التقطت لها هذه المرة على شاطئ البحر. لمست في نظرتها شيئاً من الأسى وقد بدت، على الرغم من محاولتها الانتصاب وملء المكان بقامتها، وكأنها مجرد نقطة في البحر الكبير الذي احتضنها واحتواها من كل صوب.

"هذه الفتاة قريبة إلى النفس".

ما إن تفوهت بهذه العبارة حتى سألت نفسها: "ولماذا اخترت لهذه

المرأة صفة الفتاة؟ فلعلها تنتمي إلى فئة السيدات. وهي، في مطلق الأحوال، في سن الزواج!" ثم تذكرت ملاحظة صديق عزيز قال لها يوماً: "ثمة نساء يمكثن فتيات حتى سن الشيخوخة. لماذا؟ لأنهن اخترن أن يبقين بنات أمهاتهن!" ضحكت وابتعدت عن الصورة. بحثت عن حقيبتها فألفتها عند باب الغرفة، حيث وضعها سليم. رفعتها على طاولة صغيرة، فتحتها وتناولت منها منامة حريرية بيضاء. وفيما كانت تبدل ثيابها استعداداً للنوم، شردت منها أفكارها لتحوم ثانية حول تلك الفتاة. فمن تكون؟ أتراها صاحبة هذه الغرفة؟ أم صديقة حميمة لها؟ إنها، على الأرجح، مالكة هذا المكان. وإلا لما استأثرت صورها بجدران الغرفة؛ فنصيب الصديقة الحميمة من الصور لا يتعدى واحدة، أو اثنتين في أقصى الحالات! لكن لو سلمنا بأنها صاحبة هذه الغرفة، فما صلتها بصاحبة الفندق؟ أصلة بنوّة؟ في هذه الحال تكون هذه الأخيرة قد تخلّت لها عن غرفة ابنتها. لماذا؟ لأنها لم تشأ أن تدعها تهلك على الطريق في ليلة جحيمية كهذه! أجل، لقد فضلت أن تضع غرفة ابنتها في تصرفها على أن ترفض إيواءها! لكن أين ابنتها؟ لا ريب في أنها قد سافرت يوماً أو اثنين، لا أكثر. فكل ما في الغرفة يعبق بوجودها.

بعد أن ارتدت منامتها بحثت عن مشجب لتعلّق ثيابها. ولما لم تهتد إلى واحد دنت من خزانة أنيقة، صنعت بدورها من الخيزران الأبيض. كان مفتاح ذهبي قد أدخل في قفل بابها؛ أدارت المفتاح في القفل فانفتح الباب وانتشرت، على الفور، رائحة عطر زكية تعرفت فيها على رائحة عطرها بالذات. علّقت ثيابها في الخزانة متجنبة النظر في

محتوياتها. فلئن شاءت ظروف خارجة عن إرادتها أن تقتحم عالم هذه الفتاة الخاص، فإنه يتعين عليها أن تتجنب خرق حرمته. وتأكيداً على عدم رغبتها في استملاك المكان، في التعرف عليه بتفاصيله، عزمت على أن تأوي إلى الفراش. "أطالع قليلاً قبل أن أنام" قالت؛ وتقدمت باتجاه حقيبتها لتخرج منها كتاب وسادتها "صحراء التتار"، غير أنها ألفت الكتاب وقد أخذ مكانه على الطاولة البيضاء الصغيرة إلى جانب السرير. متى أخرجته من الحقيبة؟ ربما عندما أخذت منها منامتها.

تمددت تحت الفراء الأبيض، وما أنهت مطالعة صفحة واحدة حتى كان النعاس قد غلبها.

استيقظت على صوت نقر على الباب. وقبل أن تدعو الطارق إلى الدخول كان الباب يفتح لتدلف منه امرأة قصيرة تحمل صينية طعام. قالت المرأة "صباح الخير" واقتربت منها بخطوات سريعة. ناولتها الصينية قبل أن تكون قد استقامت تماماً في جلستها على السرير، وتوجهت نحو النافذة. سحبت الستائر ليدلف نور رمادي باهت. استدارت نحوها وقالت: "سمحت لنفسي بالدخول لأن سليم أوصاني بأن أوقظك في السادسة". ثم دنت منها، صبّت لها القهوة من إبريق بلّوري شفاف. سألتها إن كانت ترغب في شيء من الحليب. وبعد أن تأكدت من رفضها صرّحت بأنها بدورها لا تستسيغ القهوة الممزوجة بالحليب.

كانت تنتظر أن تبادر القادمة إلى مغادرة الغرفة حتى تباشر بتناول إفطارها. غير أن السيدة القصيرة والدائمة الحركة ما كانت تنوي الانصراف. عادت لتقول وهي تبتسم: "عندما طلب مني سليم أن أتولى

إيقاظ نزيلة في غرفة الآنسة، صعقت. قلت له: غير معقول! في غرفة الآنسة؟ فهزّ رأسه مؤكداً. بصراحة، صعقت!" أرادت أن تشارك في الحديث فقالت بدورها: "شيء مثير للدهشة حقاً... فهذه الغرفة ليست كسائر غرف الفندق... إنها شخصية...". ثم أضافت وهي تتعمد نبرة فرحة: "ليس من المألوف إيواء نزيل في حجرة لها صاحب"، فردّت السيدة القصيرة على الفور: "لكن صاحبة الغرفة رحلت". "رحلت لكنها ستعود، أجابت؛ رحلت يوماً، أسبوعاً..." هزّت المرأة رأسها نفياً. وبعد أن درجت بقامتها القصيرة نحو الباب لتغلقه بهدوء، عادت لتدنو من السرير ولتقول بصوت منخفض: "رحلت على طول. ماتت منذ ثلاث سنوات. قضت في حادثة سيارة. مسكينة. كانت وحيدة أمها". قاطعتها لتسأل: "أمها هي صاحبة الفندق، أليس كذلك؟ السيدة التي استقبلتني بالأمس". أومأت الخادمة برأسها أن أجل واستطردت تقول: "أصرّت في ذلك اليوم المشؤوم على الذهاب إلى البحر. نصحتُها ألا تفعل، فالطريق إليه خطرة جداً، ولاسيما في الكيلو مترات الأخيرة. غير أنها سخرت مني ومن مخاوفي وادّعت أنها سائقة ماهرة وأنها لن تخطئ طريقها إلى البحر". قاطعتها لتسأل: "لقد ذهبت إلى البحر ليلاً، في ليلة عاصفة، أليس كذلك؟ وبسبب الظلام وسوء الأحوال الجوية حادت عن الطريق عند منعطف من المنعطفات؟" غير أن الخادمة أشارت برأسها أن لا، وقالت موضحة: "ذهبت إليه في الصباح! ولو قصدت ليلاً لما حصل ما حصل. فالليل أرحم". وإزاء ما أثارته كلماتها على وجه محدثتها من علائم الاستغراب والفضول تابعت تقول: "الضباب لا يلف ليلاً الطريق المؤدية

إلى البحر. أما عند الصباح فقد ينتشر فيها بكثافة تنعدم معها الرؤية تماماً... وعندما يهيمن الضباب، تتحول الطريق بانعطافاتها الخطرة وتعرجاتها العديدة إلى تهلكة. أجل، إلى مهلكة". وبعد تنهدة طويلة أردفت تقول: "كان لابد أن تتكرر الحوادث القاتلة على هذه الطريق اللعينة حتى تتفضل هيئة الأرصاد الجوية وتصدر نشرة صباحية حول حالة الطقس. الآن، على الأقل، بات في وسع الذاهب إلى البحر أن يتأكد سلفاً من سلامة الطريق، بدلاً من أن يجازف بمواجهة ضباب يباغته على حين غرة".

ساد صمت، وطال، فأدركت الخادمة أن عليها الانصراف. بيد أنها سعت إلى بعث الحوار قائلة: "على الرغم من مرور ثلاث سنوات على هذه الحادثة المفجعة فإننا نعمد يومياً إلى تنظيف غرفة الآنسة وتهويتها، كما لو أنها ستعود إليها بين لحظة وأخرى؛ تلك إرادة أمها..." ولمّا لم تحظَ بجواب قالت بلهجة من يود ختام حديثه: "لكن، هل حصل مرّة أن عاد ميت إلى بيته؟" وبعد تفوهها بهذه الحكمة حزمت أمرها وغادرت الغرفة.

نهضت هي من الفراش بعد أن أسندت صينية الإفطار على الطاولة الصغيرة المجاورة للسرير. وبصورة آلية دخلت إلى الحمام. اغتسلت ثم ارتدت ثيابها. تجنبت النظر إلى رسوم الفتاة وسعت إلى طرد التساؤلات العديدة التي عج بها رأسها. طوت منامتها وأخذت كتاب "صحراء التتار" من فوق الوسادة وهمّت بوضعهما في حقيبتها. بيد أنها فوجئت بوجود كتاب في داخلها. أخرجته، كان "صحراء

التتار". وألفت نفسها تمسك بكل يد كتاباً، كل منهما نسخة طبق الأصل عن الآخر. أعادت أحدهما إلى الحقيبة والآخر إلى حيث وجدته بالأمس، على الطاولة البيضاء. غير أنها تساءلت بعد ذلك: "أيهما نسختي؟ أهي حقاً تلك التي وضعتها في حقيبتي؟ أم نسختي هي التي ستبقى هنا، في جوار سرير الراحلة؟" أسكتت تساؤلاتها بأن خاطبت نفسها قائلة: "ما الفارق؟ ماذا يهم إن حصل تبادل؟ فالكتاب في مطلق الأحوال واحد".

نزلت إلى بهو الفندق لتلفي السيدة واقفة عند مكتب الاستعلام، مستغرقة في السماع إلى مذياع وضع فوق المنضدة الخشبية. أغلقته وهي تتنبه إلى وجودها وابتسمت لها محيية. ردّت لها الابتسامة وشكرتها على ضيافتها وقالت: "لن أنسى فضلك عليّ أبداً!". لم تعلّق السيدة بل مكثت تتأملها. وعندما بادرت إلى فتح حقيبة يدها وفي نيتها أن تدفع أجر الليلة التي أمضتها في الفندق، مدت السيدة يدها وأعادت إغلاق الحقيبة. أمام هذه الحركة التي كشفت عن ود وعطف تجرأت على أن تسأل: "ماذا يتوقعون في الأرصاد الجوية بالنسبة إلى هذا الصباح؟". أجابت السيدة بصوت هادئ: "لم يعلنوا عن شيء..." ثم أضافت وهي تتأملها بحزن: "إن السفر في وضح النهار يبقى أكثر أماناً في مطلق الأحوال". ودّعتها وانصرفت. لحظاتٍ وكانت تقلع بسيارتها، آخذة اتجاه البحر.

كانت قد باشرت في قطع الشوط الأخير من الطريق، المتميز بثناياه المتلاحقة وانعطافاته الحادة، عندما أخذ الضباب ينتشر. لم يمهلها، لم

يدع لها فرصة لأن تفكر بحل، لأن تبادر إلى وضع خطة. فبسرعة مذهلة عمّ وتكثّف وحجب عنها العالم الخارجي. أسقط في يدها واحتارت ماذا تفعل. حاولت أن تخفف من حدة الهلع الذي سيطر عليها بأن فتحت المذياع، فجاءها صوت يقول: "كما أشرنا إلى ذلك في نشرات سابقة فإن الضباب هذا الصباح سينتشر كثيفاً. نحذّر إذن المسافرين من سلوك طريق البحر".

البديل

- أراك متعباً يا سيدي. لا ريبَ أنك قد غادرت لتوك مقر عملك وقصدت هذا المقهى لتروِّح عن نفسك بكأس صغيرة. لقد نحرت يوماً جديداً في حياتك بين الملفات، وسط ضجيج الآلات الكاتبة والحاسبة، وتحت أشعة النيون القاتلة، لا تنكر، فبصمات المكتب واضحة في شحوب وجهك وزيغان عينيك. وبعد خروجك من هذا المقهى ستستأنف حياة مكتب جديدة في بيتك. في هذه المحفظة الجلدية السوداء التي وضعتها بتأنٍ على البار، خوفاً من أن تضيع منك أو تسرق، وثائق وأوراق وعدت رؤساءك بأن تلقي عليها نظرة في المساء. أي أن تمضي سهرتك في عمل إضافي لا تقبض عليه تعويضاً. فأنت موظف أمين، فطر على الإخلاص. ولكن الإخلاص لمن؟ قل لي! أراك تبتسم، حسناً. اسمح لي إذن أن أدعوك إلى كأس. سوف نشرب معاً. لا تحاول أن تعتذر أو أن تتظاهر بالامتعاض. قد لا تكون صحبتي ممتعة، لكنها خير لك من وحدتك. أجل يا سيدي، أنت إنسان وحيد. لقد كشفت وحدتك منذ أن فتحتَ باب المقهى الزجاجي وسرتَ باتجاه هذا البار تبحث لنفسك عن مقعد شاغر أو حتى عن زاوية خالية تحشر نفسك فيها. فرواد هذا

المقهى، وسائر المقاهي الأخرى، ينقسمون إلى فئتين. فئة الجالسين حول الموائد وفئة المتجمعين حول البار. أصحاب الموائد لا يعرفون بؤس الوحدة حتى ولو انفردوا بجلستهم. ترفع حاجبيك استغراباً؟ حسناً، انظر إلى الصالة. لا تتوقف عند الحلقات الصاخبة، ولا عند رأسي هذين العاشقين، بل تأمل جيداً ذلك الشاب صاحب السترة الجلدية، الجالس عند العمود الخشبي. إنه جالس بمفرده، أليس كذلك؟ لكن تمعن في النظر إليه! أهو حقاً وحيد؟ لا، بل هو مشروع حوار. ففي أي لحظة سينهض لملاقاة قادم إليه. يقيني أن الصبية الشقراء التي دخلت المقهى الآن هي على موعد معه. انظر، إنها تتجه نحوه. ها هو ينهض ليحييها؛ يتنتاول منها معطفها، يسحب لها كرسياً، يضحك وتضحك له. ما رأيك بهذا البرهان الساطع على صحة نظريتي؟ أدر رأسك الآن وانظر إلى من حولك من فئة المتكئين على خشب البار. إنهم يتسولون عبارة ترحيب، علامة مودة من الساقي ليوهموا أنفسهم بأنهم في صحبة طيبة، في لقاء مع صديق. تمعن في وجوههم. ألا تشعر بأن الحياة قد ماتت في أعينهم، والاستسلام سيطر على تعابيرهم؟ لماذا؟ لأنهم وحيدون؛ أكثر من ذلك، لأنهم فقدوا حتى الأمل في لقاء ينتشلهم من واقعهم السقيم ويعيد للحياة مذاقها. لماذا؟ لأنهم كبّلوا أنفسهم بالقيود وأمسوا عاجزين عن الإفلات منها. قد تتساءل عن أسباب معرفتي الوثيقة بدواخل هذه الفئة من رواد المقاهي؟ حسناً، سأجيب بكل صراحة وبلا لف ولا دوران: إني أنتمي إليها. فأنا، أيضاً، يا سيدي، أقصد المقهى بعد خروجي من العمل، أحشر نفسي في زاوية شاغرة، أتناول كأساً من الكحول وأنا

أبتسم ببلاهة لمن حولي لأوهم نفسي وأوهم الآخرين بأن تياراً من المشاركة الوجدانية يهيمن على جلستنا ، بل قل على وقفتنا ، ثم أغادر المقهى وتنتهي، مع خروجي منه، دقائقي اليومية مع المغامرة الإنسانية. أتضحك؟ أجل، هذا خير ما نفعله. نضحك من أنفسنا. فأنت أيضاً يا سيدي من هذه الفئة من "المغامرين العظام". كاد شعرك أن يشيب وأنت لا تزال في سلوكك وفي تصرفاتك طالباً ابتدائياً نظامياً ومجتهداً. تدخل إلى المقهى بنفسية تلميذ يقصد الباحة وقت الفرصة. همّ الامتحان الذي ينتظره أو الوظيفة الصعبة التي يتعين عليه إنجازها لا يفارقه حتى وهو يمرح ويلهو. لا ترفعْ يدك احتجاجاً، فهذه المحفظة السوداء تفضح هويتك؛ هوية الطالب السرمدي. لا تحاول إقناعي بأهمية الوثائق والأوراق التي تحتوي عليها وباختلافها "الجذري" عن كراريسنا المدرسية. فلدي محفظة طبق الأصل عنها. أحملها أنا أيضاً باعتزاز وكأنها جواز سفري إلى دنيا صانعي القرار...لكن اليوم، وأنا أدخل إلى هذا المقهى، توقفت عند صورتي المعكوسة على زجاج الباب. أتعرف بمَ أوحى إلي شكلي وأنا أنتصب بقامتي الطويلة وأقبض بقوة على محفظتي الجلدية السوداء؟ بتلميذ صغير مرّت عليه محدلة فتمدد واستطال! أراك تضحك. حسناً! ماذا؟ تنظر إلى ساعة معصمك؟ لا، لا تمسك بمحفظتك استعداداً للرحيل. ربما انقضى وقت فرصتك. ربما سمع التلميذ الذي في داخلك صفّارة الناظر المؤذنة بالعودة إلى قاعات الدرس. لكن تمرد على ندائه اليومي. اسمع. خذ كأساً ثانية. أعلم جيداً أنه ليس من عادتك تجديد طلبك في المقهى. فأنت زبون الكأس الواحدة. لا. لن أدعك

ترحل؛ فقد توصلت إلى حقائق جوهرية ومن واجبي أن أكاشفك بها. لا تتصور أن هذه الحقائق قد تفتقت من جراء إفراطي في الشراب، بل سطوعها هو الذي دفعني إلى كسر طوق الكأس اليومية الواحدة الذي فرضته على نفسي. اسمع. ليلة أمس شاهدت على التلفزيون فيلماً سينمائياً قديماً. شاهدته في ساعة متأخرة من الليل، بعد أن أنجزت مراجعة عدد من الملفات وأعدت ترتيبها في محفظتي بتأن وانتظام. كان بطل هذا الفيلم، الذي يعود إلى عصر الأبيض والأسود في السينما، ممثلاً مسرحياً متقاعداً يعيش في دار للعجزة تقع في منطقة ريفية نائية. ومأساة هذا الممثل الذي حفظ عن ظهر قلب الأدوار البطولية لأشهر المسرحيات العالمية، أنه لم يقف ولو مرة واحدة في حياته على خشبة المسرح. كان الممثل البديل لنجم مسرحي عظيم. بدأ معه حياته الفنية، ومعه أنهاها. هو في الكواليس والنجم تحت الأضواء. كان رهانه الوحيد أن يصاب النجم يوماً بمرض عضال، بكسر في ساقه أو ذراعه، بوعكة صحية ولو عابرة، تتيح أمامه فرصة الحلول مكانه. بيد أن النجم كان قوياً كالحصان، ولم يعان، طول حياته الفنية، ولا حتى من زكام... مكث يستقطب أضواء المنصّة حاكماً على بديله بالانتظار المؤبد في ظلمة الكواليس؛ بألا يكون هملت، وعطيل، وغاليليو والملك لير إلا للمرآة التي يراجع أمامها أدواره والتي لا تعيد إليه إلاّ صورة ذاته. ويوم وضع النجم حداً لحياته الفنية، وجد البديل نفسه وقد أحيل إلى التقاعد. دعي إلى مغادرة المسرح قبل أن يؤدي دوراً واحداً فيه. أليست هذه المأساة بعينها؟ إنسان يعرِّف نفسه، أمام الآخرين وأمام ذاته، بأنه

ممثل، وتُعرَّف مهنته، في بطاقة هويته، بأنها التمثيل، فلا يمثّل حقاً، على أي خشبة مسرح، ولو مرة واحدة في حياته؟... فما الفائدة، يا سيدي، من إتقانك الأدوار البطولية، من تلبسك إياها إلى حد تقمصها، إن حرمت من فرصة تأديتها؟ فما لم تقف على خشبة المسرح، ما لم يشهد لك الجمهور بأنك فعلاً مجنون ليلى، أو تاجر البندقية، أو يوليوس قيصر، فإن تفانيك في تقمص الشخوص يبقى فعلاً مجانياً، ضرباً من الجنون. وإني لأستغرب كيف لم يفقد ممثل الكواليس ذاك صوابه بعد أربعين عاماً من التمثيل بلا جمهور. أفلم يراوده الشعور بأنه على شاكلة أولئك المعتوهين الذين يعتمرون قبّعة مثلثة الشكل ويضعون راحتهم عل معدتهم ويرددون: أنا نابوليون؟ تتساءل لماذا أحدثك بهذا الإلحاح عن ممثل لم يمثل؟... يبدو لي أنك لا تتساءل، بل ترغب في الرحيل. مع ذلك سأجيب عن سؤال ترفّعت عن طرحه ولن أعير بالاً لتأففك: إني، يا سيدي، أعيش مأساة هذا المثل، لكن على نحو معكوس. وعندما تنعكس المأساة، فإنها تغدو مهزلة. فمصيبتي أنا تكمن في أنني أنا النجم والبديل. غير أن بديلي يصرّ على الانفراد بالمنصة حاكماً على النجم الذي في داخلي بالانزواء أبداً في ظلمة الكواليس. لا يا سيدي، لست ممثلاً مسرحياً، لكني لا أطمح في شيء كما أطمح في الاضطلاع بأدوار بطولية. هنالك جوقة من الأبطال أجرّها خلفي منذ عشرات السنوات. بينها المناضل والمغامر والمقامر والماجن! وبينها، أيضاً، العاشق حتى الموت، والحالم، والزاهد المتقشف! منذ عشرات السنوات وهؤلاء الأبطال يرددون أدوارهم، يصقلونها، يعدّلون

ويحسّنون فيها في انتظار لحظة خروجهم إلى الجمهور، لحظة الوقوف تحت الأضواء. غير أن بديلي اللعين يصرّ على سد سائر المخارج في وجوههم. لماذا؟ لأنه ضد البطولة. أجل يا سيدي. فللبطولة، في رأيه، روائح مشبوهة، علاوة على كونها مصدر متاعب لا تحصى. وهي، بالإضافة إلى ذلك، لواء يميز حامله، يخرجه من صفوف القطيع. وهذا ما يرفضه بديلي بتعنت. والأنكى من ذلك كله أنه يتباهى ويتفاخر بدور السجّان الذي يؤدي، دور كابح النزوات البطولية كما يقول. فهو، يا سيدي، صاحب نظرية عجيبة. يزعم أن للبديل وحده حق الخروج إلى الناس، أما جوقة الأبطال فمسرحها في الداخل، في قاع الأعماق. في الكواليس بتعبير آخر. قد تقول: الكواليس تقود مباشرة إلى خشبة المسرح ، والوقوف فيها وعد بالخروج إلى الجمهور. أجل، لكن شرط أن تخلو المنصة ممن يحتلها. وبديلي اللعين هو على شاكلة نجم ذلك الممثل المسكين: دائماً معافى! منظّم هو، متيقظ، متنبه، منضبط مثل الساعة السويسرية! ولطالما حلمت أن يبالغ يوماً في شد لوالبه فتتعطل آليته. لطالما راهنت على انهياره لفك أسر جوقة أبطالي. ولكن عبثاً. فهو من التعقل بحيث لا يسمح لنفسه حتى بالإفراط في الانضباط. ماذا عساك تفعل مع بديل من هذه الطينة؟.. لغاية ليلة الأمس كنت لا أزال أعلل نفسي بالأوهام وأردد، كلما اشتد ضيقي، أن لابد أن يطرأ جديد يقلب هذه المعادلة المشؤومة رأساً على عقب. لكن عندما وضعت في مواجهة ذلك الممثل العجوز الذي أحيل إلى التقاعد وهو لا يزال ينتظر لحظته المؤاتية، انتابني هلع لا يوصف. فقد أدعى بدوري إلى مغادرة هذه

الدنيـا وأنـا لا أزال مـشـروع دور... لذلك قـررت أن أتخلص من هذا البديل. عزمت على قتله. أجل يا سيدي. سوف أقتله. لماذا تستغرب قراري؟ ألأن القتل جريمة؟ لكنه يصبح مباحاً عندما تكون غايته إنقاذ حيوات مهددة! ماذا تقول؟ إن قراري نزوة عديمة الجدوى؟ لا أفهم قصدك! لو كان الممثل العجوز موهوباً حقاً لعرف طريقه إلى خشبة المسرح؟ اسمح لي يا سيدي بأن أعارضك في هذا الرأي. دعني أتكلم... بمَ تنصحني؟ بأن أسهر على بديلي وأمتنع عن مسّه بأذى؟ ولماذا، أرجوك؟ لأني إن قتلت بديلي قضيت حالاً على جوقة أبطالي؟ إنها جوقة من الأبطال المزيفين، تقول؟ أبطال يتشدقون ويتبجحون ليقينهم بأن البديل المزعوم ساهر أبداً على كبح جماحهم؟ أمدرك أنت خطورة ما تقول؟ إنك تتهمني بالنفاق. هكذا، بكل بساطة... لكن... اسمع. سأضرب صفحاً عن الإهانة التي وجهتها لي وسأعزوها إلى تسرّع في إطلاق الأحكام. أنت، في النهاية، حديث المعرفة بي. لا، لا تنفِ! وقد تتوهم بأنني أنتمي إلى تلك الفئة من المتعبين الذين يتمسكون بخشبة الحلم خوفاً من الغرق في رتابة حياتهم. ربما كنت معذوراً. فأنت لم تعش مع تلك الكائنات الرائعة، المتألقة، الجامحة التي تضج في داخلي والتي حرمها بديلي من حقّها في الخروج إلى العالم. لو أعطيت نعمة التعرف إليها لشغفت بها. ولخجلت من الكلمات المهينة التي أطلقتها بحقها. اسمع. سوف نطلب كأساً جديدة وسوف تصغي إليّ وأنا أحدثك عنها. ماذا، أراك تنهض؟ أطالت جلستنا أكثر مما ينبغي؟ ولكن ما وراءنا؟ ألسنا كائنين راشدين؟ ألا يحق لنا إطالة وقت الفرصة؟ سئمتَ الجلوس

بصحبتي؟ عكّرت عليك صفو جلستك؟ آسف. آسف يا سيدي العزيز. كان عليّ ألا أفعل. فما أشد حماقتي عندما تعمقت في الكلام معك. لكأن هذه المحفظة السوداء التي تحملها بخشوع قدسي لم تكن بليغة بما فيه الكفاية في الإفصاح عن شخصيتك. فهل يعقل أن يدرك إنسان على شاكلتك، إنسان يختزل الحياة إلى لائحة من الواجبات، وقوس قزح الألوان إلى رمادية سقيمة، طبيعة الصراع الذي أعاني منه؟ ولكن ثق يا أيها السيد المستعجل بالعودة إلى داره الكئيبة أنك في حضرة إنسان حزم أمره على قتل بديله لتحرير أبطاله. فقد أزفت ساعة انعتاقهم من أسرهم الطويل، ولن أسمح بعد الآن لجلاّد تافه بأن يحرمهم من حقّهم في الخروج إلى العالم. لماذا تضحك؟ كف عن الضحك أرجوك!... قلت لك، كف عن الضحك!... إن كنت ستستمر في الضحك فأنا الذي سيبادر إلى مغادرة المقهى. حسناً. الآن، أراك تستعيد وقارك. تنظر في المرآة لتتأكد من حسن منظرك. تود أن تضيف شيئاً؟ ماذا تقول؟ إن النجم إذا ما نزل إلى الكواليس حولّها، بوجوده، إلى منصّة؟ والبديل إذا ما اتفق له أن ارتقى المنصّة حطّها إلى مرتبة الكواليس؟ ماذا تقصد بهذه الألغاز؟ لا، لم أفهم مغزى كلامك يا سيد. إن الأفعال قادرة على صنع الأحلام، تقول، لكن الأحلام غير قادرة على صنع الأفعال؟ اسمح لي بأن أكرر ثانية بأني لم أفهم. لا، لا تتهمني بسوء النية، أرجوك! بصراحة، غاب عني مدلول كلامك. أو لنقل إني لم ألمس الصلة بين أقوالك والمشكلة التي أواجهها، مع أنها مشكلة واضحة ومحددة وقد شرحتها لك بما فيه الكفاية. ربما لم تفهم لبَّ هذه المشكلة وسوف... حسناً،

حسناً، لا تتأفف. سألزم الصمت وأدعك تتكلم. إن الأبطال الذين في داخلي قد أطالوا المكوث في الظلام؟ وإذا ما خرجوا إلى النور حكم عليهم بالهلاك الفوري؟ إنهم على شاكلة بعض الجثث الآدمية التي لا تحافظ على قوامها وتماسكها إلا ما دامت في عتمة القبور وعزلتها، فإذا ما تعرضت للهواء، للأوكسجين، للشمس، تهرّأت وتفتتت؟ أأنت جاد فيما تقول؟ وهل تراني أكون مدفن أموات في نظرك؟ تابوتاً متجولاً؟ شاهدة قبر كتب عليها: هنا يرقد مناضل ومغامر ومقامر وزاهد وماجن؟... وهل ينبغي، أيضاً، أن أحفر على هذه الشاهدة: احذروا إزاحتها أو حتى تحريكها أو مسّها، وإلا قتلتم الموتى ثانية؟ هل تريدني أن أصدّق هذيانك؟ تبتسم بتعالٍ! لا بأس. إن الرجل الذي أمامك ما هو إذن إلا حجر رخام ثقيل يحمي من الحياة جوقة من الأموات؟ لكن ماذا لو أزحت هذا الحجر؟ هنا، أمامك، وأطلقت جوقة من الأحياء؟ من الأبطال؟ تهز كتفيك استهزاء! كفى تهريجاً، تقول؟ سوف ترى يا إيها الوقح من هو المهرّج بيننا!

مهلاً! ماذا تفعلون؟ كفوا عن الصراخ! أنت، يا هذا، دعني، دعني وشأني. لماذا أنت قابض على يدي؟ لا، لم ألوِ عنقي. ولماذا ألويه؟ ألم تشاهد من قبل رجلاً... يشد ربطة عنقه؟ أأنا مجنون حتى أحاول خنق نفسي؟ وأنت، هناك، لماذا أخذت محفظتي؟ حذار أن ترميها أرضاً. فيها وثائق وأوراق. دعوني وشأني. أرجوكم، لا، لا، عنقي بخير. ليس هنالك من ضرر. يا أيها السيد، اعطني هذه المحفظة من فضلك. شكراً. وأرجو... أرجو المعذرة إن كنت قد أسأت التصرف وتسببت في إزعاجكم. ربما أفرطت في الشراب هذه الليلة. فأنا... زبون الكأس الواحدة.

التحرّي

كنت أهبط آخر درجات سلم كنيسة القلب المقدس في باريس عندما استوقفتني يافطة احتلّت حيزاً من جدار بناء قديم، انتصب في قبالة الكنيسة الشهيرة: جيرار كاسكاد، تحرٍ خاص. وجدتني أبتسم ببلاهة، كسائح أطلّ للمرة الأولى على "برج إيفل" أو ساعة "بيغ بن". ليس لأن اسم السيد كاسكاد كان خليقاً بأن يحتل مكانه في لائحة المشاهير، بل لأني لم أتعامل مع التحريين الخاصين إلا من خلال الروايات. فإن كانت معرفتي بهركول بوارو قديمة، وصداقتي مع شارلوك هولمز وثيقة، فإن التحري الخاص بالنسبة لي كان لا يزال، حتى تلك اللحظة، مواطناً مميزاً من مواطني مملكة الخيال؛ مخلوقاً أسيراً لدائرة الأوهام، لا كائناً من لحمٍ ودم يمكن طرق بابه وتبادل أطراف الحديث معه. راودتني رغبة طاغية في التعرف إلى السيد كاسكاد، ولا سيما أن البناء القديم الذي اختار الإقامة فيه بدا، بواجهته البيضاء، ونوافذه الخشبية الزرق، ومداخنه السود، وكأنه خارج من لوحة لأوتريّو. ووجدت نفسي أتساءل: كم ستكلفني زيارته؟ مئة فرنك؟... لكن كيف أفسر هذه الزيارة؟ هل أقول للسيد كاسكاد: طرقت بابك كي أتعرّف إلى تحرٍ خاص من لحم ودم؟ لابد أن أجد حجة. أن ألفّق قصة. أن أقدّم نفسي إليه وكأني زبونة راغبة في الحصول على خدماته. لكن ماذا أقول له؟

قادتني قدماي إلى مقهى صغير منزوٍ عند منعطف الطريق. واحد من تلك المقاهي العديدة التي تحيط بكنيسة القلب المقدس، والتي يؤمها السياح. طلبت كأساً من النبيذ الأبيض المثلّج وأطلقت العنان لخيالي كيما يحبك قصة معقولة أتقدم بها إلى السيد كاسكاد. لم تكن المهمة مستحيلة بالنسبة إلي. فتجربة عشرين عاماً في الحقل الصحافي علّمتني أن أي قصة ملفقة قابلة لأن تصدّق بمجرد أن تعطى شكلاً منطقياً. لكن صعوبة هذه المهمة كانت تكمن في اختراع حكاية ما بلا ذيول. فكل ما كنت أرغب فيه هو عرض مشكلة وهمية عليه. أطلب منه أن يحقق لي في قضية هي من صنع خيالي، قضية أشبه ما تكون بالصفحة البيضاء الخالية من كل مضمون. وهكذا تنقطع صلتي بالسيد كاسكاد حالما أخرج من مكتبه: فمن أين سيأتي بالأدلة والشواهد على قصة ليس لها أي أساس من الصحة؟ لكن، من أين آتي أنا بهذه القصة، ولمّا تنقض بعدُ على إقامتي في باريس سوى أشهر قليلة؟

أول فكرة خطرت ببالي كانت كلاسيكية إن جاز التعبير. أزعم أمام التحري أن الشكوك تراودني بصدد سلوك زوجي، وأني أتخوف من أن يكون، خلال إقامتنا الطارئة في باريس، قد أقام علاقة مع واحدة من حسانها؛ أدعو التحري بالتالي إلى تقصي الحقيقة بهذا الصدد، على أن أسدد أتعابه إذا ما خرج بشيء ملموس. غير أني سرعان ما استبعدت هذه الفكرة خوفاً من عواقب الاصطياد في المياه العكرة. فماذا لو اتصل بي التحري بعد أسبوعين أو ثلاثة ليعلمني بأن شكوكي في موضعها؟ لن أكون قد علقت في شركه فحسب، بل أكون أيضاً قد قلبت حياتي رأساً على عقب. وهذا ما أنا في غنى عنه. لابد إذن من الاهتداء إلى

شيء آخر، إلى قصة لا يمكن لها أن ترسوَ جذورها في واقعي؛ قصة أطوي صفحتها حال خروجي من مكتب السيد كاسكاد.

طلبت كأساً صغيرة أخرى من النبيذ الأبيض، غير أني لم أستمهل نفسي حتى أنتهي من تجرعها. فقد طفرت الفكرة إلى ذهني، وتجسّدت بسرعة مذهلة في شكل القصة المرجوة. صحت في داخلي: "وجدتها"، وغادرت المقهى على عجل، قاصدة المبنى الأبيض العتيق حيث مكتب التحري الخاص.

في حضور السيد كاسكاد رحت أعرض "مشكلتي". كان الرجل متربعاً وراء مكتب زاخر بالملفات والصحف وقد بدا لي، بثيابه القاتمة اللون، وبهيئته الرصينة ووجهه العديم التعبير، وكأنه كاهن في كرسي الاعتراف. وبطلاقة لا متناهية رحت "أعترف" له. أعترف بلا انقباض في الصدر ولا تأنيب في الضمير، كممثل يؤدي دوراً على المسرح بدون أن يشعر، لحظة واحدة، أنه معني به. قلت له:

- قصتي يا سيدي عجيبة. وسأسردها عليك بالتفصيل علك تفلح في مساعدتي. فقبل شهرين تقريباً، وفيما كنت خارجة من متحف الشمع، أقصد "الموزيه غريفين"، استرعاني شكل امرأة وقفت تتأمل واجهة مخزن لبيع الألعاب. كانت ترتدي معطفاً كحلياً وقد لفّت حول عنقها شالاً أزرق. شيء ما في وقفة هذه المرأة أثار فضولي. ولا أخفيك أنني أحسست بذهول ما بعده ذهول عندما استدارت نحوي: فقد كانت تشبهني إلى حد غير معقول!... كان وجهها وجهي، ولكن مع بعض الفوارق الطفيفة، فوارق قد لا يلمسها سواي. فوجهها هي كان بكراً إن جاز القول. لا أثر للتجاعيد فيه، بل لا أثر فيه لتلك اللمسة الخاصة التي تضفيها، على أي وجه،

الممارسة الطويلة لعمل فيه الكثير الكثير من المساومات والقليل القليل من الإثارة والبهجة. لمسة هي مزيج من القسوة والسخرية.

قد تقول يا سيدي: وما موطن العجب إن كنت قد صادفت امرأة تشبهني إلى ذلك الحد؟ هذا صحيح. فهنالك مثل في بلادنا يقول: ويخلق من الشبه أربعين... لكن موطن العجب يا سيدي يكمن في النظرة التي رمقتني بها تلك المرأة: لقد نظرت إليّ وكأنها تعرفني هي الأخرى. بل إني لمست في نظراتها شيئاً من العتاب".

إن كنت قد حمّلت نظرات تلك المرأة المجهولة عتاباً مزعوماً، فإن السيد كاسكاد بالمقابل شحن نظراته هو بتساؤلات أكيدة حول صحتي العقلية... فقد خالني الرجل، ولا ريب، امرأة معتوهة، أو لنقل عصابية. أنجدني رنين الهاتف الذي قطع صمتاً سيطر للحظات على جلستنا. حاولت على الفور تدارك الموقف بأن اغتنمت فرصة انشغال السيد كاسكاد بالإجابة على الهاتف لتقليب بعض الصحف المرمية على مكتبه. وما إن أعاد التحرّي السّماعة إلى مكانها حتى أخذت أحدثه عن خطر البلقنة المحدق بأوروبا الشرقية بعد انهيار الاتحاد السوفياتي... تكلمت ببلاغة وفصاحة الضليع في حقله، فنجحت في إقناع الرجل بسلامة عقلي. فإذا به يسألني باهتمام:

- ماذا بعد ذلك؟

أرجعت رأسي إلى الخلف وأمسكت بذراعي الأريكة واستأنفت قصتي قائلة:

- ما كنت سأعلق أهمية بالغة على هذه الحادثة لو أنها لم تتكرر. فقد تكررت يا سيدي!

- هل أفهم من ذلك أنك التقيت بشبيهتك ثانية؟
- أجل!

هنا أشعلت سيجارة وأخذت نفساً عميقاً منها، مستمهلة نفسي لتلفيق تفاصيل جديدة. لكن خيالي كان طيّعاً في ذلك اليوم، طيّعاً وخصباً. وبلمحة برق كنت قد جهّزت الفصل الثاني، ورحت أسرده على السيد كاسكاد.

- بعد حوالي أسبوع، وفيما كنت أحتسي فنجاناً من القهوة في مقهى صغير يطل على ساحة السوربون، التقيت بتلك المرأة ثانية. رأيتها كما في المرة الأولى، في معطفها الكحلي ووشاحها الصوفي الأزرق، وقد وقفت تتأمل واجهة واحدة من المكتبات العديدة التي تحيط بتلك الساحة. كما حصل في المرة الأولى تماماً، استدارت ونظرت إلي، ومن خلال زجاج المقهى لمست العتاب واضحاً في عينيها. ولم تمض لحظات حتى كانت تغيب بين حشود الطلبة الذين يزرعون تلك الساحة ذهاباً وإياباً.

"لن أخفيك يا سيدي أن شعوراً بالقلق انتابني بعد هذا اللقاء الثاني. فماذا تريد مني المرأة، ولماذا تصرّ على مطاردتي؟ فباريس ليست قرية أو بلدة صغيرة! وأن أصادف هذه المرأة مرتين خلال أسبوع واحد، في مدينة يقطنها الملايين، فهذا ما لا يمكن تبريره بقانون الاحتمالات! ثم لماذا كانت ترمقني بتلك النظرة العاتبة؟ لماذا كانت تتأملني بشيء من الإحساس المتعالي؟ مَن هي كي تحاكمني؟"

"مضى أسبوعان لم أشاهدها خلالهما. لكن خلال هذا الانقطاع تحوّل امتعاضي منها إلى نوع من العدائية الكامنة. لذا عندما التقيتها للمرة الثالثة..."

قاطعني صوت السيد كاسكاد سائلاً باهتمام واضح:

- التقيتها مرة ثالثة إذن؟

- أجل. وعندما التقيتها للمرة الثالثة، وهي جالسة على مقعد خشبي على ناصية الطريق، أحسست برغبة عارمة في إيذائها. عرفتها من ظهرها، من معطفها الكحلي ووشاحها الأزرق. كانت ترمي ببعض فتات الخبز إلى رفٍّ من الحمام تحلّق من حولها. وعندما استدارت نحوي، لم أتوقف عند نظراتها وإنما عند ذلك الصفاء الذي كانت تنطق به قسمات وجهها. كانت تلك المرأة "مرتاحة داخل جلدها" كما تقولون أنتم الفرنسيين. وفجأة وددت لو أمسك بحجر وأرميها به! غير أنها نهضت، ومضت على عادتها. لكني لم أدعها تفلت مني هذه المرة. سرت وراءها وكأني ظلها وسط حشود المارة في بولفار الإيطاليين. كنت راغبة في إفهامها بأني لن أسمح لها بعد الآن بمطاردتي، وأن الأدوار قد انعكست بيننا. لا أدري كم دامت ملاحقتي لها، كل ما أعلمه أنها دخلت إلى أحد المباني واختفت فيه. انتظرت طويلاً أمام ذلك المبنى، لكن بلا جدوى. فهي لم تعاود الخروج؛ربما هي تقطن في ذلك البناء.

هنا سألني السيد كاسكاد:

- هل تتذكرين عنوانه؟

فأجبته بكثير من الثقة:

- بكل تأكيد...

سأل التحري من جديد: ما هذا العنوان؟

وفيما كان يخرج من درج مكتبه دفتراً صغيراً ويتناول قلماً ليسجل ما سأقوله له، تذكرت عادة الفرنسيين في إعطاء بعض الأبنية أرقاماً

مكررة. عادة طالما استغربتها وعجزت عن إيجاد تفسير لها. فقلت للسيد كاسكاد:

- عشرون مكرر، بولفار مونمارتر.

طمأنني الرجل إلى أنه سيبذل أقصى جهوده لكشف هوية تلك المرأة، ووعد بالاتصال بي حالما تتوفر لديه بعض المعلومات. ولشدة ثقتي بأنه لن يتصل بي مستقبلاً أعطيته رقم هاتفي الفعلي.

خرجت من مكتب السيد كاسكاد تلازمني رغبة جامحة في الضحك. كنت مغتبطة من نفسي. فقد برعت في تلفيق قصتي المزيفة ونجحت في "بيعها" إلى إنسان خبير في التحري عن الحقيقة. صحيح أنني كثيراً ما لجأت إلى التلفيق والتزييف خلال تجربتي الطويلة في الصحافة، بيد أني لم أكن أتخطى حدود "ليّ عنق الحقيقة". أما في مكتب السيد كاسكاد فقد تجاوزت نفسي واخترعت حدثاً من العدم.

لكن ثمة تفصيلاً واحداً عكّر عليّ صفو نشوتي: فلماذا أبديت كل ذلك الإصرار في الحديث عن معطف المرأة الكحلي ووشاحها الأزرق؟ أفلم يكن من عادتي أنا في الماضي ارتداء معاطف كحلية وإحاطة عنقي بمنديل أزرق، من الصوف أو الحرير؟ فلولا هذا التفصيل المجاني لجاءت حكايتي آية في الكمال.

كم كان ذهولي عميقاً عندما جاءني صوت السيد كاسكاد، بعد مضي أقل من أسبوع على لقائي به، يعلن لي بالهاتف أنه اهتدى إلى المرأة التي حدثته عنها! كدت أصرخ عبر الهاتف: هل تسخر مني يا سيدي... غير أني تمالكت نفسي وسألته: من تكون؟

فأجاب بنبرة متزنة وتلقائية:

- إنها طالبة جامعية، تقطن في الشقة رقم ٤ في الطابق الثالث من البناء الذي أشرت إليه. وقد تعرفت إليها بسهولة بفضل معطفها الكحلي وشالها الأزرق. فهل ترغبين في أن أستمر في تحقيقي؟...

صعب عليّ تصديق كلام الرجل. إنه يسخر مني بكل تأكيد. إنه يرغب في الحصول على مزيدٍ من المال. وبكثير من العصبية أجبته قائلة:

- شكراً يا سيدي. لم أعد راغبة في معرفة مزيدٍ عن هذه المرأة. لا داعي للاستمرار في التحقيق.

رميت سماعة الهاتف من يدي فيما تزاحمت الأسئلة في رأسي. فماذا لو كان الرجل صادقاً؟ وهل يعقل أن يكون لفّق لي حكاية بدوره؟ لقد سألني عما إذا كنت راغبة في أن يستمر في تحرياته؟ أتراه حسبني بقرة حلوباً يحسن استغلالها؟ أم أنه اهتدى فعلاً إلى امرأة تلبّي المواصفات التي أعطيته إياها؟ لكن من أين خرجت هذه المخلوقة؟...

سيطر علي انفعال شديد، وألفيت نفسي أذهب وأجيء في شقتي كأسد داخل قفص. وقطعاً للتساؤلات المحيّرة التي تصادمت في رأسي عزمت على التأكد بنفسي من صحة المعلومات التي أمدّني بها الرجل. سرّحت شعري بعصبية، وارتديت معطفي بنزق - لم يكن كحلي اللون - وتوجهت إلى أقرب محطة مترو.

في بولفار مونمارتر رحت أتفقد أرقام الأبنية إلى أن وصلت إلى البناء رقم عشرين. تجاوزته ببضعة أمتار فواجهني بناء يحمل الرقم ٢٠ مكرراً! قطعت البولفار الطويل من أدناه إلى أقصاه، فلم أجد، على طرفيه، بناء واحداً يحمل رقماً مكرراً باستثناء الرقم ٢٠. بدأت

مشاعري تتبلبل وأفكاري تضطرب. فبفعل أي سحر اخترت الرقم المكرر الوحيد لأعطيه للتحري! ترى هل علق هذا الرقم في لا شعوري وأنا أتنزه ذات يوم في هذا البولفار؟ ارتحت لهذا التفسير، وتنفست له الصعداء. لكن سرعان ما عاودني الاضطراب. فما دام التحري قد صدق بخصوص البناء، فلابد أنه صدق أيضاً بصدد ذات المعطف الكحلي والوشاح الأزرق... وكمن يرمي نفسه في الماء وهو عليم بجهله بالسباحة دخلت إلى البناء رقم عشرين مكرر.

فتحت باباً خشبياً عالياً ومهيباً وولجت إلى ممر يفضي إلى باحة داخلية، تحيط بها غرف ذات واجهات زجاجية، بدت لي أشبه ما تكون بمكاتب أو مستودعات؛ وإلى يمين الباحة كان ثمة سلم خشبي، حلزوني الشكل. ولمّا لم أجد سواه توجهت نحوه وارتقيتُ درجاته. اجتزت الطابق الأول في البناء، فالطابق الثاني. وعندما شرعت أصعد صوب الطابق الثالث راودتني رغبة عارمة في التخلي عن مشروعي والعودة بأدراجي إلى البولفار المكتظ بالناس، بعيداً عن هذا السلم الحلزوني الموحش.

غير أني كنت أدرك في أعماقي أن الهرب لن يجديني نفعاً بعد الشوطِ الذي قطعته، وأن خير ما أفعله هو حسم هذه المسألة التي أخذت منحى غير متوقع.

وصلت إلى الطابق الثالث وتسمّرت نظراتي فوراً على الرقم "٤" الذي كان يعلو باب إحدى الشقق. تقدمت باتجاه الباب وبحثت عن اسم يهديني إلى هوية صاحبة الشقة. لكن بحثي لم يأت بثمار. فلم يكن ثمة أثر لأي اسم؛ لا على باب الشقة ولا على الجرس الكهربائي المجاور لهذا الباب. ضغطت بإصبعي على الجرس وتراجعت إلى الوراء قليلاً. فلو فتح

لي أحدهم لادّعيت بأني أبحث عن شقة السيد... لنقل كاسكاد؛ المهم هو أن أرى وجه القاطن في هذه الشقة.

غير أن الباب لم ينفتح. قرعت الجرس ثانية وثالثة دون أن يأتيني جواب. تذكرت ما قاله السيد كاسكاد عن المرأة ذات المعطف الكحلي: إنها طالبة جامعية. أي أنها فتاة في مقتبل العمر على الأرجح. فتاة لها أصدقاء وصديقات قد يأتون إلى شقتها في غيابها. ترى هل من عادتها أن تدع لهم مفتاح الدار تحت ممسحة الأرجل، صنيع سواها من الطلبة؟ تقدمتُ صوب باب الشقة، ورفعت الممسحة من أحد أطرافها فعثرت على ضالتي: مفتاح صغير علّقت به حلقة معدنية. أمسكت بالمفتاح وأدخلته في القفل وفتحت الباب بسرعة، وكأني أريد بتعجلي قطع الطريق أمام صوت ارتفع في داخلي، يناشدني العدول عن مشروعي الأحمق.

أول ما استرعى انتباهي عندما دلفت إلى الشقة لوحة لفان غوغ، هو رسم ذاتي للفنان يمثّله بعد أن قطع أذنه في لحظة جنون. راودني شعور بالارتياح والاطمئنان بعد أن طالعتني هذه اللوحة، فأقفلت الباب من خلفي في غير ارتياب، مع أني أتوجس خيفة في العادة من فكرة الانفراد بنفسي في أماكن مغلقة! كانت الشقة نظيفة ومرتبة؛ وكان أثاثها يتألف من سرير، وخزانة خشبية، وأريكة، ومكتب صغير اعتلته بعض الرفوف صُفّت فوقها الكتب بانتظام. لم أدر لماذا بدت لي هذه الأشياء أليفة، معهودة. لم يكن بين قطع الأثاث ما ينم عن ذوق مميز، عن رغبة في اختيار ما يخرج عن المألوف. لكن الغرفة بأكملها كانت متناسقة، مرتبة على نحو ترتاح له النفس. تقدمت باتجاه المكتبة الجدارية ورحت أقرأ بعضاً من عناوين الكتب التي احتلت رفوفها. كانت

مجموعةُ مارسيل بروست "البحث عن الزمن الضائع" قد احتلّت رفاً بأكمله. أسعدني أن تكون هذه الفتاة من المعجبات ببروست، الذي طالما عايشت أبطاله وأجواءه، وداهمني إحساس بأن ثمة خيوطاً خفية بدأت تربطني بها وتشدني إليها.

من عساها تكون؟ سؤال طرحته بكثير من الحنان والصفاء، لا بالروح البوليسية التي كانت قد قادت خطواتي إلى الشقة رقم ٤ في الطابق الثالث من البناء عشرين مكرر في بولفار مونمارتر... فالروح البوليسية، التي أخذت تتبدد مع مشاهدتي لوحة فان غوغ، تلاشت تماماً مع مطالعتي عناوين مسلسلة مارسيل بروست. خطوت بضع خطوات داخل الغرفة، ثم دنوت من المكتب الصغير وتناولت مجلداً من مجموعة بروست كان مرمياً على سطحه. كان عنوانه "الزمن المستعاد:. ارتميت بعد ذلك على الأريكة والمجلد في يدي، وفي نيتي العودة، ولو للحظات، إلى عالم هذا الأديب السحري. لكن قبل أن أفتح الكتاب، وأنعم بالسعادة الموعودة، أوكأت رأسي إلى ظهر الأريكة لأسلس قيادي، بكامل كياني، للنور الغسقي الباهت الذي أضاء النافذة الوحيدة، وللصمت الكنسي المطمئن الذي ساد الغرفة. أحسست بارتياح نفسي وجسدي عظيم، فأردت تتويجه بمطالعة بروست. فتحت الكتاب، فسقطت منه صورة واستقرت على الأرض. انحنيت أرضاً وأمسكت بالصورة. كدت أصرخ: "ماذا تفعل صورتي في شقة هذه الفتاة؟" لكن حتى هذه الصرخة خنقتها.

المطاردة

حتى لو شاءت اللجوء إلى القوة فإنها لن تستطيع أن تقتحم عليّ خلوتي. فقد أوصدت باب شقتي بالمفتاح والمزلاج وحصّنته بالأريكة الجلدية الثقيلة، وأقفلت باب الممر المفضي إلى غرفتي ووضعت خلفه طاولة وبضعة كراسي، وأقفلت باب غرفتي ثم سددته تماماً بالخزانة العالية التي تكلفت عناء كثيراً في زحزحتها. أسدلت ستارة النافذة الخشبية، وأغلقت مصراعي النافذة بإحكام، ولم أتوان عن سحب الستارة المخملية أيضاً. لم يعد في وسع شعاع نور أن ينفذ إلى حجرتي، لم يعد في مقدور نملة أن تتسلل إلى داخلها. الآن فقط أستطيع أن أتنفس الصعداء. فأنا هنا في مأمن منها. لن أباغت بظهورها. لن أفاجأ بحضورها. ربما بالغت في إقامة التحصينات، لكن لو لم أفعل لجعلتني هذه اللعينة أفقد صوابي. فمنذ أسبوع وهي تطاردني. منذ أسبوع فقط، يا إلهي!... لقد انقضى هذا الأسبوع وكأنه عام بكامله؛ فقد انقلبت حياتي رأساً على عقب منذ أن التقيتها في صورتها الأولى. أجل، صورتها الأولى، لأنها ذاتُها وإن تخفّت خلف وجوه مختلفة. حيلتها لم تنطل عليّ. تظهر لي في كل مرة بوجه جديد. تحاول إقناعي بأنه جديد. لكن، لتسخرْ من سواي! فقد كشفتُ

سرها، أنا. أدركت منذ البداية أنها هي هي. وردتها الصفراء، في مطلق الأحوال، تفضح هويتها. اللعنة عليها وعلى وردتها. وردة سحب دمها ولا تزال تدّعي أنها وردة! وردة وصفراء؟... فالوردي يفترض فيه أن يكون وردياً وليس بلون الشمع!...

كان عليّ ألا ألبي دعوة العرس. فلو لم أقصد تلك البحيرة المشؤومة في يوم أحد النحس ذاك لما التقيتها. لما جلبت الذئب إلى كرمي. وأي ذئب؟! لكن هل كان في وسعي أن أقاوم رغبة المشاركة في ذلك العرس؟ كنت أعلم بأنه سيقام في حدائق قصر قديم، وبأن فرقتين موسيقيتين ستعزفان حتى الصباح، وبأن المدعوين يقدّرون بعشرات المئات، وبأن أشهر الطهاة قد تباروا في إعداد موائد الحفل، وبأن الأسهم النارية سوف تطلق ابتهاجاً بالعروسين. كان عرساً ليس كسائر الأعراس، فكيف لا ألبي الدعوة لحضوره؟

لبّيت الدعوة وتنعمت بالعيد ساعات. رقصت وضحكت وشربت وغنيت مع المغنين. وعندما ارتفع صوت يقول: لنتسابق في اتجاه البحيرة، ألفيت نفسي في مقدمة الراكضين. وبلغت البحيرة المتاخمة لحدائق القصر وجلست لاهثة إلى جوارها. وقبل أن أسترد أنفاسي كان عيد الألوان ينفجر في السماء. فقد انطلقت الأسهم النارية من منصة نصبت وسط البحيرة، وراحت تفرش فوق الرؤوس ثرياتها الحمر والخضر والبرتقالية. استلقيت على ظهري، فوق المرج النديّ، لأملأ عيني بمشهد الأشكال السحرية المرتسمة على صفحة السماء الداجية. وفيما كانت تنطلق من صدري صيحة دَهَش وإعجاب لشمس ذهبية سطعت للحظات

ثم تساقطت، بآلاف من الشرارات، فوق البحيرة، سمعتها تقول: "إن العشب مشبع بالرطوبة، ورطوبة الليل مؤذية". كانت هذه الكلمات موجهة إلي. فعندما بحثت عن مصدر الصوت رأيت امرأة واقفة إلى جواري تنظر إلي وهي تبتسم. رفعت ظهري متكئة على ذراعيّ فلفحتني نسمة باردة. نهضت على الفور وتلمست ظهري. كان ثوبي مبللاً. راودتني نوبة سعال زادت من حدتها رائحة احتراق الأسهم النارية. بحثت عن شخص أعرفه لأستعير سترة، شالاً، أي غطاء أرميه على ظهري الذي تثلّج تحت ثوبي المبلل. غير أن جميع أصدقائي كانوا قد تبخّروا. كانت هي وحدها واقفة إلى جواري تراقبني عن كثب وقد ارتسمت ابتسامة متخابثة على شفتيها. حاولت أن أستنجد بها، يا لحماقتي! قلت لها: "أود أن أضع أي شيء على كتفيّ. فأنا أعاني من الربو، وهذه الرطوبة التي تلبستني قد تتسبب لي في أزمة". مدّت يدها عند ذاك وتناولت الوردة الصفراء التي كانت قد شكّتها على صدرها. قدّمتها إلي وهي تقول: "ليس لدي سوى هذه الوردة أعطيك إياها". كدت أن آخذ الوردة، من قبيل الخجل، غير أن نفوري من الورود الصفر كان أقوى، ولحسن الحظ! إني أرتعد اليوم لمجرد استذكاري ذلك المشهد. فلو شاء لي سوء الطالع أن أتقبل منها الوردة ذلك الأحد المشؤوم، لقضي عليّ! لقد ابتعدتْ عني يومها، وانصرفت أنا من العرس وعدت مهرولة إلى داري لأخلع عني الثوب المبلل وأرتدي منامة صوفية على الرغم من دفء الطقس.

إني الآن على ثقة تامة من الأمر: فمنذ لحظة مفارقتها إياي في جوار البحيرة كانت قد رسمت خطتها الجهنمية لإيقاعي في التهلكة. لكن من أين كان لي أن أتوقع أن الذي حصل سيحصل؟

يوم الاثنين ذهبت إلى عملي كسائر أيام الاثنين. وفي السادسة مساء غادرت المكتب وقصدت محطة المترو كما أفعل مساء كل يوم عمل. غير أني، على غير عادتي، كنت متشوقة إلى استقلال المترو لاستئناف مطالعة رواية كنت قد بدأتها وأنا في طريقي إلى العمل في الصباح. لذا ما إن أخذت مكاني على المقعد الجلدي الأزرق حتى فتحت روايتي وغرقت في المطالعة، منشغلة تماماً عما يدور من حولي. قرأت فصلين كاملين. وفيما أنا أهم بمطالعة فصل ثالث جاءني صوتها يقول: "إن الازدحام اليوم غير معقول. يكاد المرء يختنق". رفعت رأسي عن الكتاب لألفاها جالسة قبالتي، على المقعد المواجه لمقعدي. كان شعرها ونحن في المترو، قصيراً، لا يغطي حتى أذنيها، في حين كان مسدلاً في جوار البحيرة، يغطي أعلى كتفيها. غير أنه لم يصعب علي أن أتعرفها، وعلى وجه التحديد من تلك الابتسامة المتخابثة المرتسمة على شفتيها ومن الوردة الصفراء إياها التي وضعتها على الكتاب الجاثي فوق ركبتيها. وكأني لم أفهم مغزى عبارتها من الوهلة الأولى فعادت تكرر: "نكاد نختنق في هذا الازدحام". عندئذ فقط تنبهت إلى اكتظاظ الركاب في عربة القطار. فقد ضاقت بالواقفين في الأمكنة المخصصة لهم فاندسوا في الممرات الفاصلة بين المقاعد واتكأوا على الجالسين الذين غاروا تحت وطأة كتلة بشرية متعددة الرؤوس والأطراف. راودني لدى هذه الرؤية المزعجة شعور بالاختناق. فقلت في نفسي: أنهض وأشق طريقي إلى الباب وأغادر عربة المترو عند أول محطة. فمن المستحيل أن أظل جالسة وسط هذا الحشد البشري الهائل. لكن قبل أن أغلق كتابي،

قبل أن أمسك بمحفظتي، كان المترو يتوقف في النفق المظلم لعطل أصابه فجأة. بدأ قلبي يخفق، فحاولت أن أخفف من ارتياعي مرددة بيني وبين نفسي: "كثيراً ما يحدث أن يتوقف المترو في النفق، غير أنه يستأنف سيره بعد لحظات معدودات". فإذا بصوت السائق يرتفع عبر المكبر طالباً المعذرة من الركاب وداعياً إياهم إلى التحلي بالصبر وواعداً بألا يطول وقوفهم. حاولت أن أتمسك بحبل هذا الوعد وسعيت جاهدة إلى استئناف مطالعتي علني أنجح في الانشغال عما حولي. لكن عندما أحنيت رأسي فوق روايتي لم أر إلا الوردة الصفراء وقد دفعتها اللعينة في اتجاه ركبتي، وارتفع صوتها يقول: "حدث مرّة أن توقف المترو في النفق ووعد السائق بأن يستأنف الرحلة بعد لحظات، غير أن الركّاب مكثوا أكثر من ساعة ينتظرون الفرج". راودتني رغبة عارمة في صفعها. لكن، قبل أن أحرّك ساكناً، كان الظلام يخيّم على المركبة. فقد انطفأت الأنوار كلياً. إني لواثقة اليوم من أنها هي التي تسببت في العطل الذي طرأ على التيار الكهربائي. فهي تملك قدرة خارقة لا يملكها سواها من البشر. فلو كانت امرأة كسائر النساء، امرأة من لحم ودم، لما استطاعت أن تتبخر من أمامي فجأة! لقد حكمت علي بأن أعيش لحظاتٍ جحيمَ الظلام في مركبة غصت بالركاب ثم جعلتني أفقد صوابي مع عودة النور! فعندما أنيرت الأضواء ألفيت نفسي جالسة أمام رجل بدين. فمتى نهضت، وكيف استطاعت أن تشق طريقها بين زحام الواقفين؟ وبأي سحر غادرت المركبة والمترو لا يزال متوقفاً في النفق؟ أسئلة انهالت عليّ وأنا أبحث عنها عبثاً بين الرؤوس والأجساد. سألت الرجل الذي أمامي: "أين المرأة التي

كانت تجلس مكانك؟". فأجابني ببلادة: "عن أي امراة تتكلمين؟" قلت للفتى الذي جلس إلى جواره: "ألا تذكر أن امرأة كانت تجلس هنا، إلى جوارك؟" هز كتفيه ولم ينبس بكلمة. عند ذاك تنبهت إلى وجود الوردة الصفراء على صفحات كتابي. وردة صفراء زاد في قبحها ذبول وريقاتها. فصرخت في وجه الرجل البدين: "لا تنكر أنك قد احتللت مكان المرأة صاحبة الوردة الصفراء!" وأضفت، وأنا ألوّح بالوردة أمام وجهه: "هيه. من أين أتت هذه الوردة؟ إنها لها! للمرأة التي كانت تجلس مكانك، فلا تنكر!" تدخل الفتى ليقول: "هذه الوردة نصف جافة. ربما كانت في الكتاب". فنهرته قائلة: "وبأي معجزة تأتي إلى الكتاب؟ هل اتفق لك أن اشتريت كتاباً فأعطوك معه وردة صفراء؟". بدأ الواقفون والجالسون من حولي ينظرون إلي باستغراب، فازداد شعوري بالضيق. ولحسن الحظ أقلع القطار، فنهضت على الفور ورحت أشق طريقي نحو الباب وأنا أردد كلمة "معذرة" كلما دست على قدم أو نحرت كتفاً أو ساقاً. وبلغت الباب مع توقف المترو عند أول محطة، فهبطت إلى الرصيف متنفسة الصعداء. ثم خرجت إلى الشارع وقطعت المسافة التي كانت لا تزال تفصلني عن داري سيراً على الأقدام.

يوم الثلاثاء ذهبت إلى المكتب في سيارة تاكسي: فتجربة يوم الاثنين مع المترو كانت أقسى من أن أتجرأ على المغامرة بخوضها من جديد. انقضى النهار وأنا مأخوذة بدوامة العمل، غير أن صورة اللعينة مكثت مع ذلك تطاردني. وعندما أزفت ساعة الانصراف وقالت لي إحدى الزميلات إنها ذاهبة عند قريبة تقطن في جواري وإنه يسرها أن

ترافقني في المترو، أجبتها على الفور بأني مدعوة إلى العشاء خارج المدينة، ومضطرة بالتالي إلى الذهاب بسيارة أجرة.

وبالفعل صعدت إلى سيارة تاكسي، وإنما للذهاب إلى بيتي. كنت من السذاجة بحيث توهمت أنَّ مطاردتها لي ستكفّ مع ابتعادي عن المترو!... لم يكن ليدور لي في خلد أنها ستتجرأ على ملاحقتي حتى عقر داري. ألا ما كانَ أشد أغبائي! فبروح مرحة رحت أضغط على زر المصعد الكهربائي وأنا أتأمل بسعادة وارتياح النبتات الخضر التي احتلت مدخل بنايتي. وصل المصعد وفتح بابه لتخرج هي منه. في الحقيقة، لم أتعرفها من الوهلة الأولى. خلتها جارة من الجارات، امرأة كسائر النساء. بيد أن الشكوك دهمتني عندما ابتسمت لي، فتكشفت ابتسامتها عن ذلك التخابث الشرير. حاولت مع ذلك تجاهلها ودلفت إلى المصعد. لكن ما إن رأيت وردتها الصفراء مرمية فوق الأرض حتى جنّ جنوني. ركلت الوردة بقدمي وقلت لها بأعلى صوتي: "خذي قذارتك معك!". بدرت عنها عندئذ حركة مهينة بحقي. أشارت بإصبعها إلى صدغها ثم حركت يدها وكأنها تريد أن تقول: "هل فقدت عقلك؟". ثم اختفت. خرجت أنا من المصعد، إذ لم أعد أتجرأ على استخدامه. اتجهت نحو السلم الداخلي للبناية وشرعت بالارتقاء على قدميّ إلى شقتي الواقعة في الطابق الرابع عشر. عندما بلغت أخيراً عتبة شقتي كنت ألهث بشدة، وكان العرق يتصبب بغزارة من جبهتي. ثمة رجل وامرأة كانا يقفان أمام باب المصعد ينتظران قدومه. عندما شاهداني أطل من الباب المفضي إلى السلم وأنا في تلك الحالة من الإعياء الشديد سألاني

على الفور بصوت واحد: "هل المصعد معطل؟". أشرت بحركة من رأسي أن لا وسرت في اتجاه باب شقتي. مكثا يراقبانني وأنا أخرج المفتاح من حقيبة يدي وأحاول بمنتهى العسر إدخاله في القفل وقد فقدت السيطرة على أصابعي بسبب الرجفة التي استحوذت عليها. ولما تعثرت للمرة الثالثة في إدخال المفتاح نظرت إليهما حانقة وصحت بغضب: "ألم تشاهدا قبل اليوم شخصاً يفتح باب بيته؟". عندها فقط أشاحا بنظراتهما عني، ففتحت الباب ودخلت إلى بيتي.

يوم الأربعاء وقفت لي بالمرصاد على الرصيف المحاذي لمكتب عملي. كنت في طريقي إليه، عائدة من المطعم الإيطالي الصغير الذي اعتدت على تناول وجبات غدائي فيه. هذه المرة تعرفتها حتى قبل أن تسفر عن وجهها. فقد رابني مشهد امرأة اتكأت على عمود كهرباء وغيّبت نصفها العلوي خلف جريدة مفتوحة. فليس من عادة النساء الوقوف على هذا النحو، في الشارع أو في غير الشارع... قررت أن أبادرها هذه المرة. سرت في اتجاهها بخطوات واثقة، قبضت على طرف الجريدة أريد أن أسحبها من يديها وأن أكشف عن وجهها. غير أنها تمسكت بها بقوة فلم أفلح إلا في انتزاع مزقة منها، تظاهرتْ بالدهشة، ورفعت حاجبيها استغراباً. بيد أن تمثيليتها لم تنطل علي. قلت لها وأنا أثبّت نظراتي في عينيها: "كفي عن مطاردتي وإلا ستضطرينني إلى الاتصال بالشرطة". تظاهرت هذه المرة بالارتباك والخوف وبدت راغبة في الرحيل. اقتربت منها أكثر وسألتها بحدة: "أين وردتك الصفراء؟ أين وضعتها اليوم؟ هيا، اكشفي عنها". وكادت اللعينة أن تخدعني.

فعندما أدارت ظهرها وركضتْ مهرولة، توهمتُ للحظة أني قد ارتكبت خطأ في حقها. فربما أسأت الظن بامرأة بريئة وقفت بالمصادفة تطالع صحيفتها على الرصيف المحاذي لمكتبي. غير أن مزقة الصحيفة التي بقيت بيدي بددت هذا الظن. فقد خُطّت عليها، بحروف سود عريضة، هذه العبارة القاسية: "سرطان الرئة مآل المدخنين". لقد اختارت إذن طريقة جديدة لتنغص عليّ حياتي! ما من وسيلة إلا وستجربّها هذه الشريرة! ليلعنها الله!

رميت قطعة الجريدة وكذلك السيجارة، التي كادت أن تحرق أصابعي، وتوجهت نحو المكتب. غير أني عجزت عن القيام بأي عمل. فالبلبلة التي كنت فيها منعتني من جمع أفكاري ومن التركيز على أي موضوع. لذلك رحّبت بدعوة المدير لي لأخذ بضعةِ أيام في إجازة. كانت دعوته لطيفة ومهذبة إذ اكتفى بأن يقول بأنه لمس من نتائج عملي في الأيام الأخيرة أني في حاجة إلى بعض الراحة. لم يدع لي فرصة لأن أشرح له أسباب اضطرابي، لأن أقصّ علي بالتفصيل حكاية تلك المرأة الرجيمة. كنت لا أزال أروي له حادثة البحيرة، وكيف تبلّل ثوبي، وكيف قدّمت لي الماكرة وردتها الصفراء،عندما قاطعني قائلاً: "نتحدث عن هذا الموضوع في مناسبة أخرى. المهم الآن هو أن تريحي أعصابك من العمل بضعة أيام". كدت أن أضيف: "المهم هو أن أريح محفظتي من أجور سيارات التكسي، وساقي من صعود السلالم وهبوطها". غير أن اليد التي مدّها في اتجاهي مودعاً لم تسمح لي بأن أشرح له كيف حرّمت علي تلك اللعينة ركوب المترو والدخول إلى المصعد الكهربائي.

انتصف يوم الخميس وأنا لا أزال مستلقية في سريري، أتنعم بعطلة لم أكن خططت لها. غير أن الإحساس بالجوع دفعني، في النهاية، إلى النهوض. أخذت حماماً وأعددت لنفسي وجبة طعام خفيفة. ولما كانت الشمس مشرقة، على غير موعد هي الأخرى، عزمت على القيام بنزهة.

هبطت السلم بخفة ومرح. ولم أكتم ضحكتي وأنا أتخيلها لاطية لي في جوار المكتب. فقد توهمتُ أن هذه الإجازة قد جعلت الأمور تختلط عليها: تخالني في المكتب عندما أكون في البيت، وفي البيت عندما أكون في الشارع! وبحيوية طفلة ورشاقة مراهقة رحت أجوب الطرقات، وأزور المخازن، وأتفرّج على المارة. كنت قد حددت الخامسة موعداً لعودتي إلى البيت تحسباً لشرّها: ففي مثل هذه الساعة أكون عادة في المكتب. لذا لن تسعى ورائي خارج حدوده. هكذا تصوّرت...

فبعد أن سرت طويلاً، قرابة نصف الساعة، أحسستَ بتعب طبيعي. جلست في مقهى وطلبت كوباً من العصير. بعد لحظات دخلت طفلة حاملة طبقاً فرشت فوقه باقات من البنفسج. وسرعان ما انتشرت رائحة الزهر الزكية في المقهى، رائحة أيقظت في نفسي ذكريات عذبة. ففي أيام الربيع، عندما كنت لا أزال تلميذة في المدرسة الابتدائية، كنت أشتري كل صباح باقة بنفسج لأضعها في كأس صغيرة على مكتب المعلمة. كنت عريفة الصف وكنت أحرص على أن تكون منصّة المعلمة مزدانة دوماً بالزهور.

ناديت الطفلة وطلبت منها باقة بنفسج. وفيما أنا أناولها بعض النقود رأيت امرأة كانت تجلس على مائدة مجاورة تنحني باتجاهي. لست أدري من أين أخرجت الوردة الصفراء. كل ما أذكر أنها وضعتها تحت

أنفي وهي تقول: "وهذه الوردة الجميلة، ألا تقبلينها هدية مني؟". ثم أطلقت ضحكة شيطانية. نهضت وفي نيتي أن أقوم إليها وأؤدبها. توهمت بائعة البنفسج المسكينة بأنها هي المقصودة فحملت طبقها وهرولت في اتجاه باب المقهى تريد الخروج. لحقت بها كي أشرح لها الموقف، لكن عندما بلغت الباب بدوري كانت قد اختفت. وفيما أنا أجوب الشارع بنظري بحثاً عن أثرها رأيت الموكب يتقدم في عرض الطريق. سيارة سوداء ضخمة وخلفها رتل من المشاة في ثياب قاتمة. مكثت واقفة على الرصيف أراقب تقدم الموكب في اتجاهي. عندما أصبحت السيارة الضخمة بمحاذاتي رأيت النعش وقد غار تحت أكاليل وباقات من الورود الصفر. وتنبهت فجأة إلى أن سائر الماشين خلف النعش نساء. نساء في أثواب سود وقد غطين رؤوسهن ووجوههن بنسيج أسود شفاف. وفيما أنا أراقب موكبهن المذهل رأيت إحداهن تكشف عن وجهها، وتغمزني بعينها ثم تسدل الوشاح على وجهها من جديد. وقبل أن أنبس بكلمة، أو آتي بحركة، كانت امرأة ثانية تبادر بدورها إلى الكشف عن رأسها، وإلى غمزي بعينها، ثم إلى إعادة إسدال النقاب على وجهها. وإذا بالسائرات في الموكب كافة يقمن بالحركات عينها، الواحدة تلو الأخرى، في إيقاع جهنمي رهيب. طار صوابي أمام مشهد عشرات الوجوه التي تغيب تارة خلف الأوشحة السود وتنكشف طوراً لتغمزني بحركة شيطانية. رحت أصرخ كالمسعورة فتجمع المارة من حولي. لم يأبهوا للموكب الرجيم الذي احتلّ عرض الشارع، ولم يتنبهوا لغمزات تلك الرؤوس المتشحة بالسواد؛ كان جل اهتمامهم الاستفسار

عن سبب ارتياعي. يا لغباوتهم! دفعت الأجسام المتحلّقة من حولي واندفعت أركض في اتجاه داري. وبأنفاس لاهثة صعدت السلم ولم أبلغ شقتي إلا وأنا في حالة شبه إغماء لشدة إعيائي.

أمضيت ليلة مضطربة وأفقت صبيحة الجمعة على ألم شديد في الرأس. كانت حرارتي قد بدأت ترتفع. تناولت قرصي أسبرو، فلا زال الصداع ولا هبطت الحرارة. تناولت قرصين آخرين فشعرت بقدر من التحسن. ولما بحثت عن طعام أسكّن به جوعي تنبهت إلى أن ثلاجتي قد غدت فارغة تماماً: لا فاكهة، لا لحم، لا جبن على رفوفها، ولا خبز كذلك في الكيس المعلّق إلى جوارها. وبالرغم من إعيائي الشديد، ومن نفوري من فكرة الخروج إلى الشارع، فقد ارتديت ثيابي وذهبت إلى بقّال الحي. اشتريت كمية كبيرة من الخبز والجبن وعلب الكونسروة تحسباً للأيام القادمة، وعدت محملة بالأكياس. شرعت بارتقاء السلم وأنا أعد الدرجات واحدة واحدة. كان عليّ أن أجتاز مئتين وثمانين درجة للوصول إلى شقتي. عندما بلغت الدرجة المئتين، حيث الباب المفضي إلى شقق الطابق العاشر، رأيت الباب يفتح ورأسها البغيض يطل علي. قالت بصوت خافت: "لماذا أخذت السلم؟ ألم ينبئك البواب بما حدث؟ لقد تسللت أفعى من الحديقة إلى مدخل البناية وعبثاً بحث عنها لقتلها". ثم أضافت وهي تغمز بعينها: "انظري جيداً أين تضعين قدميك. فربما اختبأت الأفعى في السلم".

نفحت سمّها ثم تراجعت وأغلقت الباب. حرّرت ذراعيّ من الأكياس وسعيت إلى الباب أريد فتحه، لكن اللعينة كانت قد أقفلته. انحنيت على الأرض للملمة الأكياس التي تبعثر محتواها غير أني لشدة خوفي

من أن تكون الأفعى قد اندسّت بينها عدلت عن جمعها. استأنفت الصعود وأنا أرتجف من شدة الهلع. بلغت الطابق الحادي عشر وسعيت إلى فتح الباب، لكنها كانت قد سبقتني إلى إقفاله. عدت إلى الصعود وأسناني تصطك لهول ما أنا فيه؛ سجينة في السلّم الداخلي اللولبي للبناية في صحبة أفعى! باب الطابق الثاني عشر كان موصداً بدوره. وكذلك باب الطابق الثالث عشر. وكدت أن أفقد حتى الأمل في الخروج من السلم وأنا أتابع صعودي إلى الطابق الرابع عشر. وعندما ألفيت بابه مفتوحاً بكيت فرحاً، وألماً أيضاً، لشدة إرهاقي وإعيائي.

سمحت لي اللعينة بأن أعود إلى شقتي، لكن بعد أن أرغمتني على ترك المؤن في قفص السلم. ولأن الجوع استبد بي فقد اشتد ألم رأسي وارتفعت حرارتي. لم أنم الليل. لم أغف إلا مع بزوغ الفجر لأرى نفسي مستلقية في مركب صغير عائم على سطح البحر. كانت حركة الأمواج تهدهدني، وأشعة الشمس تغمر جفني المسدلين بنور برتقالي رائع. وعندما اصفرّ النور فتحت عينيّ لأرى مطراً من الورد الأصفر ينهال عليّ. وفيما أنا أخبط بيديَ وقدميّ ذات اليمين وذات اليسار لأدفع عني الورد الذي كاد أن يكتم أنفاسي، ارتفع طرفا المركب واجتمعا فوق رأسي. اسودت الدنيا فجأة فرفعت ذراعي أريد ضرب الخشب فرأيت يديّ وقد قبضتا على أفعيين. حاولت أن أصرخ، بل صرخت وصرخت، ولكن ما من صوت خرج من حنجرتي. وأفقت عند ذاك لحسن الحظ. نهضت من السرير لأبدل ثيابي التي كانت قد تبللت تماماً، وذهبت إلى الثلاجة بحثاً عما آكله فلم أعثر فيها إلا على بعض الزيتون فالتهمته. لم يسد جوعي. قلت أصبر حتى الثامنة ريثما يفتح بقال الحي دكانه

فأطلب منه بالهاتف أن يرسل لي ما عنده. وارتحت للفكرة. فمن غير المعقول أن أجازف بالخروج بعد أن أنذرني حلم الصباح من مغبة استخدام السلم أو المصعد الكهربائي. فالأفعيان ترمزان إلى الأول، والمركب الذي انغلق طرفاه علي إلى الثاني. لاريب في أن ملاكاً من عالم الغيب قد أوحى لي بهذا الحلم عند بزوغ فجر هذا السبت ليقيني من الشر الذي يترصد لي.

في الثامنة اتصلت بالبقال. طلب مني أن أعاود الاتصال بعد ساعة لأن الصبي الذي يعمل عنده لم يصل بعد. عاودت الاتصال في التاسعة فقال إنه يعتذر عن إرسال حاجياتي لأن الصبي لم يأت وقد لا يأتي. رحت ألحّ عليه موضحة له بأن أسباباً قاهرة، أقلّها الحمى والمرض، تحول دون خروجي. سمعته عند ذاك يتكلم مع شخص في دكانه، بعد ذلك دعاني إلى تجديد طلبيتي ووعد بتأمينه لي في أقرب وقت.

بعد أقل من ربع ساعة رنّ جرس الباب. ركضت مسرعة أريد فتحه. لكن الملاك عينه أوقف يدي التي كانت قد أمسكت بمقبض الباب وهمس في أذني بأن أتحقق أولاً من هوية الطارق عبر العين السحرية. وما إن ألقيت نظرة حتى تقهقرت إلى الخلف مذعورة: فقد رأيتها، هي، واقفة أمام الباب، محملة بالأكياس. عرفتها من ابتسامتها الخبيثة حتى قبل أن تقع عيني على باقة الورود الصفر التي حاولت إخفاءها خلف الأكياس. عادت وضغطت على زر الجرس ثانية وثالثة وأنا لا أحرك ساكناً خلف الباب. ولما أدركت أني قد كشفت أمرها أخذت تطرق الباب بيدها فنهرتها وقلت لها أن تغرب عن وجهي وإني لن أفتح لها حتى ولو بقيت تقرع حتى المساء. فأجابتني بمسكنة: "أنا جارة في البناية، والبقّال

الذي أبلغني أنك مريضة رجاني أن أحمل إليك هذه الأكياس". انتابني نوبة من الضحك. الغبية تتوهم أنها ستخدعني بهذه الكذبة. أتحسبني طفلة؟ عندئذ سمعتها تقول: "سأضع الأكياس أمام الباب وأرحل". فقلت لها: "حسناً، حسناً، ضعي الأكياس، لكنني لن أفتح الباب". وبدلاً من أن ترحل، كما زعمت، راحت تتكلم مع أشخاص عجزت عن تحديد هوياتهم عبر العين السحرية. فقد تعمدت اللعينة الوقوف أمامها لتسد الرؤية عليّ. ثم بدأت الضربات تنهال على الباب، واختلطت الأصوات تدعوني إلى فتحه. آثرت الصمت ولم أنبس بكلمة، إلى أن هدأ الضجيج في الخارج. نظرت من العين السحرية فلم أر سوى الجدار المواجه لباب شقتي. قلت أغتنم الفرصة وأفرج الباب بمقدار محسوب لأسحب الأكياس. وعندما أطللت برأسي نحو قرص الدرج رأيتها واقفة أمام باب الشقة المجاورة وفي يدها مجموعة مفاتيح. أغلقت بابي مسرعة وأقفلته بالمفتاح والمزلاج. لقد كانت اللعينة تعد العدّة لانتهاك حرمة بيتي! ثم حصّنت الباب بالأريكة الجلدية الثقيلة وأوصدت باب الممر المفضي إلى غرفتي ووضعت خلفه طاولة وكراسي. وأقفلت أخيراً باب غرفتي ثم سددته تماماً بالخزانة العالية.

والآن؛ ماذا عساها تفعل ضدي؟ لن أخرج من الشقة، لن أغادر هذا المكان، لا اليوم، ولا بعد اليوم. سأظل ماكثة هنا في غرفتي المحمية بثلاثة أبواب موصدة، حصّنتها بكل ما أملك من أثاث ثقيل. لن أسحب الستارة، لن أفتح النافذة، لن أدع لشعاع شمس مجالاً لاقتحام خلوتي، لن أسمح لنملة باجتياز حدود حرمتي. لن آكل، لن أشرب، لن أدخّن، لن أسمح لنفسي حتى بالتفكير بالأعياد والأعراس. لقد أرادتها حرباً حتى النهاية. حسناً! فلتعلم بأني قد قررت الصمود حتى النصر.

الدوامة

- مارغريت! تعالي. انظري ما جاءتنا به الآنسة.

دنت من ناداها الشاب باسم مارغريت من البار وحيًّتني بابتسامة. أمسكت بعد ذلك بالبوستر، وانكبت عليه تتأمله بفضول واهتمام ظاهرين. وتابع الشاب يقول بصوت طفل فرح: "هذا مقهانا". "الديك الصيّاح". الكلمتان تبدوان بوضوح على اليافطة. تخيلي أن عمر هذه الصورة ينيف على ثلاثين عاماً! لقد التقطت ولابد من الساحة. فقد ظهرت الشرفة بأكملها... يا إلهي! كيف استطاع المصور أن يحشر كل هؤلاء الناس في لقطة واحدة؟... لقد كانوا، ولا ريب، يحتفلون بمناسبة سعيدة.

استدار بعد ذلك نحوي وقال:

- أين عثرت على هذا البوستر؟... ينبغي أن أحصل على واحد منه لأعلقه في صدر المقهى.

فأجبته وأنا أراقب المدعوة مارغريت التي كانت لا تزال تتفحص الصورة.

- اشتريته من المركز التجاري. فثمة كشك فيه يبيع صوراً فوتوغدافية قديمة التقطت في أماكن عامة وفي مدن وبلدات فرنسية شتى.

وأردفت أقول بعد هنيهة:

- هل تعرفت إلى وجه ما في هذه الصورة؟...

ضحك وأجاب:

- قبل ثلاثين عاماً كنت لا أزال أدبّ على الأرض... وأنا لست من بلدة "سان - مور" في مطلق الأحوال. وعهدي بهذا المقهى حديث. فقد تسلمت عملي فيه قبل ثلاثة أعوام. فمن أين لي أن أتعرّف على هؤلاء الزبائن؟

هززت رأسي موافقة وسعيت إلى سبر المرأة بأن سألتها:

- وهل تعرفت أنت يا سيدتي على واحد من هذا الجمع؟... أم أنك، بدورك، غريبة عن "سان - مور؟"

تولى الرجل الإجابة عنها وقال وهو يلتقط البوستر من بين يديها: "إن مارغريت في وضعي تماماً... ولكن لماذا تطرحين هذه الأسئلة؟... ما الذي يحرّك فضولك؟...

فأجبته بلهجة أردتها غامضة: "لنقل بأني أحقق في قصة مثيرة...".

سألتني على الفور: "وهل أنت صحفية؟. لم أؤكد ولم أنف، فتأوّل صمتي على أنه إقرار. عرض عليّ عندئذ كأساً من المشروب وأبدى استعداده لتقديم كل مساعدة لي. فلمهنة الصحافة وهرتها في هذا البلد، ومن يمارسها يحظى بالاهتمام والتقدير.

هنا تدخلت زميلته لتسأل:

"هل في هذه الصورة شخص معين يثير اهتمامك؟"

نظرت إلى الصورة بإمعان، كأني لم أحفظ تفاصيلها عن ظهر قلب، ثم قلت وأنا أشير بإصبعي إلى حيث وقفت الفتاة: "لنقل هذه الصبية التي ابتعدت قليلاً عن الجمع وبدت وكأنها مأخوذة بتأملاتها".

وأمسكت بأنفاسي فيما انشغل الاثنان بتفحص وجه الفتاة. لكن مسعاهما لم يأت بنتيجة. فبحركة آلية واحدة هزا رأسيهما نفياً: لم يتعرفا إلى الفتاة ولم ينتبها إلى الشبه الصارخ بينها وبيني!..

- ولماذا لا نعرض البوستر على جانين، قالت مارغريت.

راق الاقتراح لزميلها الذي عقّب على ملاحظتها قائلاً:

- فكرة صائبة يا عزيزتي!

وبلمح بصر توارى خلف ستارة كشفت، وهو يزيحها، عن سلّم خشبي قديم. فقالت لي مارغريت موضحة:

- جانين صاحبة المقهى. ورثته عن زوجها الذي توفي قبل أعوام. إنها تقطن في الطابق العلوي.. هي امرأة صموت. نادراً ما تتكلم. ولكن من يدري؟ ربما تفيدك بشيء. فقد أمضت عمرها في هذا المقهى...

ودخل علينا الرجل بعد هنيهة بصحبة سيدة في الستين، مهيبة الشكل، صارمة التقاطيع. حيّتني بحركة من رأسها ومكثت تتأملني بإلحاح أربكني. خشيت أن تكون قد أساءت الظن بي؛ كأن يكون خيّل لها أني أعمل لصالح الشرطة، أو أنني أسعى إلى خلق المتاعب لها بالنبش في ماضيها أو في ماضي المقهى!... لذلك سارعت أقول وأنا أبتسم لها بمودة:

- آسفة على إزعاجك!... إن السيدة مارغريت هي التي اقترحت أن نستنير بمعلوماتك... ولكن يقيني بأن هذه الصورة لا تعني لك شيئاً... لا تحرّك فيك ذكرى... فرواد المقهى كثر، وهم يتبدلون يومياً... ناهيك عن أن أبطال هذا الحفل على شرفة "الديك الصيّاح" قد خلّدوا جلستهم الحلوة قبل ثلاثين عاماً! إنه لعمر...

قاطعني الرجل ليقول، وهو يفرش البوستر على البار ويدعو جانين بحركة من رأسه أن تقترب:

- إن الآنسة مهتمة بوجه خاص بهذه الفتاة. بالصبية الواقفة في جوار العمود.. إنها في الواقع تبدو غريبة عن الجمع... أو لنقل: غير مندمجة في الجو... هل سبق أن التقيتها؟

لم تطل جانين النظر في البوستر فقد بدا وكأن أمره لا يعنيها. وددت لو أسألها إن كانت هذه الصورة قد أخذت في عهدها هي، أي في زمن كانت قد غدت فيه زوجة صاحب المقهى. بيد أنها لم تدع لي فرصة للكلام. فقد رمقت الشابين بنظرة صارمة وقالت: إن الزبائن ينتظرون. انسحب الاثنان على الفور فيما تلبسني أنا حرج شديد. أفلم تُفهِمني بتلك العبارة، الموجهة لسواي، بأني قد تسببت في تعطيل العمل في المقهى؟

مددت يدي إلى البار لأخذ البوستر. ولكن قبل أن أرفعه عن السطح الخشبي الملمّع رأيتها تسلط إصبعها على شاب توسط الجمع وأحاط بذراعه خصر فتاة شقراء. وقالت بلهجة واثقة:

- يقيني أنه جوستان!... اذهبي إليه، لعله يفيدك في بحثك... إنه صاحب مخزن لبيع الدمى، وسوف تهتدين إلى متجره بسهولة، فهو يقع في قبالة دار البلدية. بلدية "سان - مور" طبعاً.

شكرتها على بادرتها وغادرت المقهى.

* * *

لم أجد صعوبة بالفعل في العثور على المخزن ولكن ما إن فتحت بابه حتى شعرت بالانقباض؛ كنت أتوقع حيِّزاً يشع بألوان زاهية، فرحة، فإذا بي ألفي نفسي في مكان كئيب، وسط وجوه تجمدت على تعابير حزينة. أدركت أن المتجر مختص ببيع دمى قديمة، شبه أثرية. دمى باهظة الثمن، كما تبين لي من استعراض أسعارها، تصلح لتزيين صالونات

الراشدين لا غرف نوم الأطفال. كان معظمها ملبساً بأثواب مخملية، كحلية أو زيتية، زينت ياقاتها وأطراف أكمامها بمخرمات من الدنتيلا عرتها صفرة. كانت هذه الدمى، على جمالها الأكيد، تولّد لدى من يتأملها رغبة في البكاء. فقد حملت في عيونها حنيناً إلى ماض اندثر، إلى عوالم طحنها الزمن.

كان رجل أصلع وبدين يجلس خلف مكتب في صدر المتجر. تركني أجول في أرجاء المكان دون أن ينبس بكلمة. لم يسألني عن طلبي إلا عندما صرت على بضع خطوات. تهربت من الجواب بأن سألته، بدوري، إن كان هو السيد جوستان. ولما أكد لي ذلك بإشارة من رأسه بادرت إلى فرش البوستر على المكتب أمامه. أشرت إلى حيث كان يجلس مع الفتاة الشقراء وقلت وأنا أبتسم: "هذا أنت، أليس كذلك؟".

"يا إلهي!" صرخ الرجل وهو يحملق في الصورة. وأضاف، وهو يرمقني بفضول: "ولكن... من أين أتيت بهذا الكنز؟... كيف عثرت عليه؟..."

– جئت به من المركز التجاري، أجبت. وبوسعك الحصول على نسخة عن هذا البوستر لقاء خمسين فرنكاً... ولكن، قل لي يا سيد جوستان، هل تتذكر المناسبة التي التقطت فيها هذه الصورة؟

لم يعر الرجل سؤالي اهتماماً. فقد كان مأخوذاً بالصورة، يتفحّصها ويقلّبها كطفل أهدي لعبة أحلامه. كررت عليه السؤال وأنا أدني رأسي من رأسه لأنتزع اهتمامه قسراً. عندئذ قال: "لست أدري!.. ربما كنا نحتفل بنجاح ماريان في الشهادة الثانوية. فقد اضطرها المرض إلى الانقطاع عن الدراسة عامين ولم تحصل على هذه الشهادة إلا في سن متأخرة نسبياً.."

بيد أنه سرعان ما أضاف: "ما هذا الهذر!... لقد احتفلنا بنجاح ماريان

في باريس، في مقهى "الكوبول" لا في "الديك الصيّاح"... بصراحة لا يسعني إشباع فضولك. فكثيراً ما كنا نتردد على المقهى الأخير، وكنا نستغل أبسط حدث لإقامة الاحتفالات... كانت أياماً حلوة!"

أطلق الرجل تنهدة وهو يتفوه بالكلمات الأخيرة، وبدا، للحظة، وكأنه صورة طبق الأصل عن الدمى التي زخر بها متجره.

تعمدت لهجة لا مبالية وأنا أسأله: "وهذه الفتاة الساهمة المتكئة على عمود، ماذا تذكر عنها؟"

رفع المدعو جوستان حاجبيه وركّز نظّارته الطبية على عينيه. افترّت شفتاه بعد ذلك عن ابتسامة وقال: "إنها جولي... أجل جولي. صديقة من صديقات ماريان. فتاة خجولة تهوى المطالعة والموسيقى الكلاسيكية. هكذا عرّفتها ماريان على الأقل".

دبّت فيّ حماسة شديدة لدى سماعي هذه التوضيحات: فقد غدوت قاب قوسين من هدفي! وبصوت متهدج سألت الرجل:

- أين هي الآن؟... هل في وسعك أن تهديني إليها؟

رفع جوستان يده في حركة استسلام وقال كمن يسلّم بحقيقة بديهية:

- أين هي الآن؟... الله وحده يعلم. فقد أخذت هذه الصورة قبل أكثر من ثلاثين عاماً...

- وماريان؟ ألا تستطيع هي أن تهديني إليها؟ كانت صديقتها كما أوضحت لي...

- ماريان؟... ولكنها توفيت أيها الآنسة!... قضت هذه الوردة البيضاء وهي في ريعان الشباب... انظري كيف كانت تبتسم بحزن في هذه الصورة. كأنها كانت تدرك أن أيامها معدودة...

وأدركت أنا، بعد أن ألقيت نظرة خاطفة على الصورة، أن ماريان هي تلك الفتاة الشقراء التي كان جوستان يحيطها بذراعه. وأضاف هذا الأخير، بعد أن أطلق تنهدة أخرى:

- لقد توقفت حياتي لحظة رحيلها.

كادت الدموع تنفر من عيني حنقاً وغيظاً. فقد انقطع فجأة الخيط الذي كان سيقودني إلى تلك الفتاة الساهمة، إلى جولي اللغز، إلى شبيهتي التي كانت، على غراري، تهوى المطالعة والموسيقى الكلاسيكية...

حاولت، مع ذلك، أن أعيد إحياء الأمل بأن سألت الرجل:

- أما عدت تلتقي مع رفاق الأمس؟.. لابد أنك لا تزال على صلة مع أكثر من واحد من بينهم. أعني من بين الذين ظهروا في الصورة...

ولمّا هز رأسه نفياً عدت أقول:

- ولكن، ألا تذكر ولو اسماً واحداً من أفراد تلك الشلّة؟

- أذكر أكثر من اسم طبعاً، فقد كنا نلتقي باستمرار. ولكن ما الفائدة؟ فقد تشتت شملنا، وانقطعت أخبارنا عن بعضنا بعضاً، وراح كل في سبيله.

بيد أنه أضاف بعد لحظة:

- يا لي من مغفل! هنالك كريستيان. كريستيان موران. لقد التقيتها صدفة قبل أشهر. أفادتني بأنها تعمل في وكالة أنباء. ما عدت أذكر اسم الوكالة. لكني، بالمقابل، أذكر أنها تقع غير بعيد عن بورصة باريس.

قاطعته لأسأله مستفسرة:

- أهي "وكالة الصحافة الفرنسية؟"

زم شفتيه ثم قال: "لست أدري، ربما".

وكنت قد أصبحت عند باب المتجر عندما هرع نحوي ليسألني:

- لقد أُخذت في دوامة أسئلتك وفاتني أن أستفسر عن أسباب اهتمامك بتلك الفتاة. أعني جولي. فلماذا تبحثين عنها؟

اكتفيت بأن قلت:

- لنقل بأني أهوى العتائق، على غرارك.

* * *

كانت كريستيان موران قد أكدت لي بأني سوف أتعرف عليها بسهولة: فهي تسرّح شعرها على طريقة أيام زمان، تشده إلى الخلف وتجمعه في جدلة. "لن تعثري في كل باريس على امرأة واحدة تضفر شعرها" قالت عندما كلمتها على الهاتف. والحال، منذ دخولي إلى المقهى الصغير الذي ضربت لي موعداً فيه قيض لي أن أصادف ثلاثة نساء شددن شعرهن إلى الوراء وجمعنه في ضفيرة!...

وكانت قد أكدت لي أيضاً بأنها ستحضر إلى المقهى في تمام الرابعة. وقد قاربت الساعة الرابعة والنصف ولم تأت بعد. "لن تأتي" قلت بيني وبين نفسي. ربما ارتابت من مكالمتي. لم تقتنع بالقصة التي سردتها عليها. إنها صحفية. مهنتها أن تبيع الكلام لا أن تشتريه. لو كانت راغبة حقاً في مقابلتي لما اعترضت على أن نلتقي في مبنى الوكالة، ولما ضربت لي موعداً في هذا المقهى. لقد سخرت مني في خلاصة القول. لم تشأ أن تغلق الخط في وجهي فاختارت طريقة لبقة لإفهامي بأنها غير مستعدة للتعاون معي. علماً بأن هذا الموعد الوهمي ليس غاية في اللباقة! فقد كان حرياً بها أن تعلن صراحة عن عدم اكتراثها فتوفر عليّ هذه الجلسة السقيمة في مقهى يعج برواد يفرطون في التدخين وفي الكلام.

- آسفة على هذا التأخير؛ ولكن منذ أكثر من نصف ساعة وأنا أبحث عن مكان لصف سيارتي...

نهضت للحال ومددت يدي لأحيي السيدة التي انتصبت أمامي. تأهلت بها ودعوتها للجلوس واعتذرت عن الإزعاج الذي تسببت فيه لها، وكنت في صميمي أعتذر عن سوء ظني بها...

ما أن جلست حتى سألتني وهي تهز رأسها، محركة شعرها المسدل على كتفيها:

- ألم تتنبهي إلى شيء؟

ضحكت وأجبتها قائلة:

- طبعاً! تنبهت إلى عدم وجود الضفيرة الفريدة... ضفيرت كدت بسببها أتورط في محاورة ثلاث سيدات دخلن المقهى قبلك.

ضحكت بدورها، قهقهت بالأحرى، مما جعل الأنظار تستدير نحونا.

أخرجت علبة لفائف من حقيبة يدها وعرضت عليّ واحدة. رفضتها شاكرة. سألتني مستغربة:

- ألا تمارسين رذيلة التدخين؟

- مارستها لفترة وتوقفت.

- ولماذا؟

لم أدرِ بماذا أجيب. فلو قلت لها لأسباب صحية لهزأت مني. فهذه السيدة نسيج وحدها. إنها حتماً في الخمسين، لكنها تتصرف وكأنها مراهقة. والأغرب من ذلك أنها لا تبدو متصنعة، متلبسة دوراً لا يناسبها أو لا يليق بها...

قلت لها:

- لماذا ادّعيت بالأمس أنك تسرّحين شعرك على طريقة أيام زمان؟

عضت على شفتها قبل أن تجيب:

- لست أدري... ربما لرزانة لهجتك. فقد خيل إلي، عندما كنت تكلمينني على الهاتف، أني في حضرة امرأة جداً جديّة، وجداً رصينة.

- امرأة من أيام زمان؟

- إن شئت...

- ولأني فعلاً هكذا تعرفت عليّ بسهولة؟

رمقتني بنظرة عابثة وهي تجيب:

- ولكنك لا تزالين في ريعان الشباب! يقيني أنك لم تتجاوزي العشرين بعد... لقد اهتديت إليك على الفور، هذا صحيح. ولكن لسبب بسيط: فأنت المرأة الوحيدة الجالسة بمفردها في هذا المقهى.

ولّعت سيجارة وأضافت تقول:

- دعينا من قصة التسريحة ومن النساء الرزينات... لندخل إلى صلب الموضوع. لماذا لفّقت لي تلك القصة الجميلة على الهاتف؟... ألأنك راغبة في مقابلتي؟

شعرت بشيء من الارتباك وأجبتها بصوت خفيض:

- لكني لم ألفق شيئاً... كل ما في الأمر أني حوّرت الحقيقة بعض الشيء. إني أبحث فعلاً عن فتاة في العشرين... أو بالأحرى عن امرأة كانت ذات يوم في العشرين...

وما إن تفوهت بهذه الكلمات حتى أدركت مدى سذاجتها... بل مدى حماقة مشروع بحثي... وتوقعت من كريستيان موران تعليقاً ساخراً، أو ابتسامة هازئة. غير أنها سألت باهتمام واضح:

- أحقاً تبحثين عنها بسبب إرث؟

- نعم ولا... هنالك إرث، ولكن ليس بالمعنى المتعارف عليه... ليس أموالاً وعقارات.. إنه من نوع آخر...

"لا داعي للتحديد، قالت. لنقل مثلاً، بأنه باقة ورد جميلة... ولكن، يا جميلتي، كيف يسعني أن أهديك إلى تلك السيدة التي كانت في العشرين ذات يوم؟".

أخرجت على الفور البوستر من ملفه الكرتوني ووضعته نصب عينيها. لدى رؤيته أطلقت صفرة طويلة حمّلتها كامل ذهولها. وإذ راحت تتفحصه بدقة قلت لها.

- أنت غير ماثلة على هذه الصورة... هذا على الأقل ما فهمته من السيد جوستان.

فردت على الفور:

- لا... هكذا يبدو لي... لاريب في أن الشلّة كانت قد اجتمعت يومها في "الديك الصيّاح" لتودِّع جان لانغلوا... فهو من يتصدر الطاولة ويرفع كأسه عالياً.

"أين هو؟" سألتها وأنا أنحني فوق البوستر. فأشارت إلى شاب بشنب كثيف كان يبتسم باعتزاز، فعدت أسألها:

- ولماذا لم تنضمي إلى أصدقائك يومها؟

- ولماذا هذا الفضول؟... حسناً!... لأني كنت ناقمة على جان. فقد هجرني ليرحل إلى القطب الشمالي...

- أمن أجل ذلك كانت جولي بدورها حزينة؟

- ومن تكون جولي هذه؟

أشرت إلى فتاتي الساهمة وأنا أقول:

- هذه هي جولي... صديقة ماريان.

هزّت رأسها نفياً. أكدت لها بأن جوستان هو الذي أفادني بذلك.

فردت بلهجة استخفاف: "جوستان يخرّف... إن عِشْرة الدمى قد جعلته يخلط بين وجوه الآدميين...". وتبدلت لهجتها وهي تسأل: "أهذه هي الفتاة التي تبحثين عنها؟". ومن دون أن تنتظر جوابي راحت تتفحصها بإمعان. قلت في نفسي: "سوف تكتشف الشبه لا محالة... فهي لا تعاشر الدمى ...". لكن توقعي لم يصدق. فكريستيان موران أيضاً مرّت مرور الكرام على التماثل الصارخ بيني وبين فتاة الصورة. وفجأة صاحت: "وجدتها!... إنها كلير!.. كلير دورلياك... أذكر تماماً أين التقيتها: في حديقة اللوكسمبورغ، عند الحوض الكبير. كانت برفقة جورج ساكس وكانت ترتدي سترة من الجينز فوق ثوب فضفاض". وانفرج وجه كريستيان عن ابتسامة وهي تضيف: "يا إلهي كم كنا نحلم، ونخطط، ونناقش ونعدو بحماس المغفلين وراء المشاريع الطوباوية... كانت كلير نسوية وأنا ماركسية. وقد مكثنا على مدى ساعتين أو أكثر نتبارز بالحجج والأقوال المأثورة. هي ترميني بآراء سيمون دي بوفوار وأنا أفحمها بآخر ما اقتبست من مطالعاتي لألتوسر".

هل بدا في عيني ألق، أو نمت قسمات وجهي عن اغتباط وشغف؟ فقد أخذت كريستيان لهجة ساخرة وهي تضيف:

- لا ريب في أن النسوية الثائرة قد تحولت إلى زوجة مطيعة وربة بيت مثالية. تماماً كما انقلبت المناضلة الماركسية إلى مقاتلة في سبيل رفاهيتها الشخصية...

- المهم أين هي الآن؟ أين كلير دورلياك؟ ما عنوانها؟

- عنوانهـــــا؟... ولكن لست أدري أين حلّت في أرض الله الواسعة.. كنت لا أزال طالبة جامعية عندما صادفتها... ولولا ذلك الجدل الذي دار بيننا لما بقي اسمها ووجهها عالقين في ذاكرتي!

- وجورج ساكس؟ أين هو جورج ساكس، عدت أسأل بإلحاح.

هزت كتفيها تعبيراً عن جهلها واكتفت بأن قالت: "غابت عني أخباره تماماً".

وأمام الخيبة التي ما كان لها إلا أن تظهر بوضوح على وجهي، عادت إلى تفحص الصورة وبعد ثوانٍ قالت، بشيء من التردد:

- ربما استطاعت سيسيل أن تفيدك عن أخبار كلير. فقد بقيت لفترة، على ما أذكر، على علاقة بجورج ساكس... ولست أدري من قال لي إنهما تزوجا ومن ثم افترقا... جرّبي حظك معها!

- وهل تعلمين أين أستطيع أن ألقاها؟

- إن لم تبدل مكان إقامتها منذ عشر سنوات، فإنك ستجدينها في بلدة "بربيزون".

- البلدة الكائنة في جوار "فونتنبلو"؟

- طبعاً! لا توجد "بربيزون" أخرى في فرنسا في مطلق الأحوال...

- وما عنوانها؟

- لا تتوقعي مني أن أعطيك اسم شارع. كل ما أذكر أن دارها تقع في جادة البلدة الرئيسية حيث الفنادق والمطاعم والغاليريات الفنّية... ثقتي بأنك ستهتدين إلى محترفها بسهولة. فثمة يافطة صغيرة، كتب عليها اسمها، سيسيل لوترپامون، تشير إلى مدخله.

- ذكرت كلمة محترف، فهل سيسيل رسّامة؟

- ولماذا كانت في رأيك ستقطن في "بربيزون" لو لم تكن رسامة؟

ولم تدع لي فرصة للإجابة إذ سألتني على حين غرة:

- كيف عثرت على هذه الصورة التاريخية؟

فأجبتها "اشتريتها". ولكن إذ مكثت ترمقني بنظرة هازئة، غير مصدقة زعمي، أضفت موضحة: "ثمة أكشاك في المراكز التجارية قد اختصت في بيع مثل هذه الصور. تعرض بضاعتها تحت عنوان: تعرّف على بلدتك كما كانت قبل أكثر من ربع قرن...

- وهل أنت من "سان - مور؟"

- لا!

- ويقيني أنك لست فرنسية...

- أنت على صواب.

- ولماذا استهوتك تلك البضاعة إذن؟ لماذا وددت التعرّف على "الديك الصيّاح" بالذات كما كان قبل أكثر من ربع قرن...

- بالمصادفة رأيت صورته.

لم تقاوم كريستيان موران رغبتها في الضحك. سألتها:

- لماذا تضحكين؟

- لأنك أغرب إنسان التقيته حتى الآن!... فأنت لست من "سان - مور"، ولست فرنسية، ولست من جيل كلير دورلياك. ولكنك تلحظين وجه هذه الأخيرة على بوستر عثرت عليه مصادفة، فتفطنين إلى ضرورة تسليمها إرثاً!... ألا توافقينني يا عزيزتي على أن حكايتك أغرب من أن تصدق؟... فليس فيها ذرة واحدة من الواقعية!

تمتمت بصوت مخنوق: "لقد أوضحت لك بأن الإرث معنوي..."

- معنوي!... أتلك هي في رأيك اللمسة الواقعية المنشودة؟

كدت أصرخ بحدة: "والشبه الجلي بيني وبينها، أليس من صلب الواقع!". بيد أني تمالكت نفسي وقلت لها وأنا أهم بلف البوستر: "ألا يحق لي أن أحلم؟"

نظرت إليّ بعطف ثم قالت بلهجة عذبة، مشحونة بالحنين:

- طبعاً!... إن لم يحلم المرء في العشرين فمتى عساه يفعل؟

* * *

بدت لي سيسيل لوتريامون امرأة طاعنة في السن للوهلة الأولى. ربما بسبب الشيب الذي وخط شعرها والتجاعيد التي حرثت جبهتها. وربما أيضاً لأنها لم تكن تهتم بمظهرها. فقد استقبلتني ببنطال أسود قديم وكنزة رمادية داكنة وبوجه خلا من كل أثر للمساحيق. لكأنها شاءت أن توفّر الألوان في شخصها لتنشرها، زاهية، متألقة، مظفّرة، في اللوحات التي غطت جدران مرسمها. ولم تحتفظ لذاتها إلا بلون فرح واحد: زرقة عينيها التي احتوت صفاء السماء كله...

بادرتني قائلة:

- لو لم تؤكدي لي على الهاتف بأن جورج ساكس هو الذي أرسلك إليّ لكنت اضطررت إلى الاعتذار عن استقبالك. فأنا أعدّ لمعرض جديد، ومن عادتي أن أنقطع عن الناس تماماً عندما أؤخذ في دوامة العمل.

وأضافت بعد برهة وهي تحدق النظر إليّ:

- أنت تعلمين طبعاً أن جورج ساكس قد توفي منذ بضعة أعوام!..

ولاريب في أنها قد قرأت في وجهي دهشة وارتباكاً إذ أطلقت ضحكة عابثة جعلتني، للحظة، أشعر بأني في حضرة طفلة.

تناولت علبة لفائف من فوق منضدة من السراميك الأحمر وعرضت عليّ واحدة. رفضتها شاكرة فقالت وهي تولع لفافة: "خيراً تفعلين".

- والآن، هل ستوضحين لي كيف اهتديت إليّ ولماذا؟

لم يتعذر عليّ أن أشرح كيفية اهتدائي إليها. ولكن، عندما آن

أوان تحديد دوافعي وتفسيرها انتابني بعض الإحراج. لم أشأ أن أكرر قصة الإرث؛ وانسجاماً، ولا ريب، مع الجو المحيط، خرجت بقصة أخرى. زعمت أني أملك لوحة لصبية مجهولة الهوية، لوحة ورثتها عن أسرتي. وأن المصادفة شاءت أن ألقى الصبية عينها على صورة قديمة، فشئت أن أبحث عنها لأعطيها خاصتها.

تعرفت سيسيل لوترياmون إلى نفسها بسهولة على البوستر، مع أن القبّعة التي كانت قد اعتمرتها غريبة الشكل، مزينة بزهور وحبّات فاكهة، وتغطي قسماً كبيراً من وجهها. ولكن عندما أشرتُ إلى صبيتي السارحة في الصورة قائلة: "وهذه كلير دورلياك" زمت شفتيها في حركة تنم عن حيرة وتردد. تفحصت وجه الفتاة للحظات ثم أعلنت، بلهجة قاطعة: "لا، ليست كلير..."

سألتها عندئذ:

– أعساها تكون جولي، صديقة ماريان؟

– لا أعرف من تكون جولي هذه. بالمقابل، فإن وجه هذه الفتاة ليس غريباً عليّ...

قلت في نفسي: "لقد تنبهت حتماً إلى الشبه المذهل بيننا... فهي رسامة، خبيرة في سبر الوجوه..."

وأطلقت سيسيل صرخة أتبعتها بضحكة فرحة ثم قالت:

– يا إلهي!... كيف فاتتني معرفتها... إنها دومينيك؛ دومينيك لوتريك.

– أأنت واثقة من ذلك؟

– طبعاً!... لقد كانت دومينيك فتاة غريبة الأطوار، أعني ميّالة

إلى الخروج عن السلوك المألوف.. لذلك يتعذر على من التقاها، ولو لمرة واحدة، أن ينساها... ففي تلك الجلسة، على سبيل المثال، جلسة مرحة ضمتنا في "الديك الصيّاح"، أصرت على إسماعنا "السمفونية الحزينة" لتشايكوفسكي!... كانت قد أحضرت معها شريط هذه السمفونية وآلة تسجيل صغيرة. وكانت، كلما ضجت حلقتنا بالضحك وبالتعليقات الساخرة، ترفع صوتها لتأمرنا بالسكوت ثم تسمعنا مقطعاً من ذلك اللحن الشجي.

وأرجعت سيسيل رأسها إلى الخلف في حركة استسلام لذكرياتها. وبعد هنيهة أردفت تقول:

- أذكر حتى الآن المشادة التي وقعت يومها بينها وبين جان بوريل. كان هذا الأخير رياضياً، بطلاً من أبطال كرة السلة. ولم يكن يحب الموسيقى الكلاسيكية. وقد ضاق ذرعاً بتصرف دومينيك فسألها بحدّة: "لماذا تفرضين علينا هذا النغم الحزين ونحن سعداء؟" فأجابته من عليائها: "إن في غور الحزن سعادة وفي ذروة السعادة حزناً... ولكن على من تتلو مزاميرك يا داوود؟ أعلى كتلة من العضلات؟"... وقد اغتاظ جان من جوابها وحاول أن ينتزع منها آلة التسجيل بالقوة. وكاد الجو يتوتر لو لم يتدخل بعض الرفاق لترطيب خاطر المتشاجرين... وقد علمت فيما بعد أن دومينيك كانت معجبة بجان بوريل وأنها كثيراً ما كانت تتابع تمريناته في ملعب نادي "الراسينغ"، لأنها كانت تجد متعة في تأمل جسده الرياضي. كتلة العضلات كما وصفته... لقد كانت حقاً فتاة غريبة الأطوار!

فسألتها بلهفة:

- وأين هي الآن؟

بدت سيسيل وكأنها فوجئت بهذا السؤال. مررت يدها على عينيها قبل أن تجيب بنبرة حزينة:

- أين هي الآن؟... أين بقية الرفاق؟... لست أدري! لقد سلك كل واحد طريقه وانقطع عن أخبار الآخرين.

- وجان بوريل؟ أين أصبح؟ فربما بقي هو على اتصال بها...

ولّعت سيسيل سيجارة جديدة وأمهلت نفسها قبل أن تجيب:

- أعتقد بأن جان قد تزوج من أرجنتينية ثرية ورحل معها إلى بوينس آيريس... أجل، هذا ما أعلمني به موريس برجراك عندما التقيته صدفة في المترو في باريس... لقد انقضت سنوات على هذا اللقاء العابر... موريس هو ذلك الشاب الحليق الرأس الواقف غير بعيد عن دومينيك. فعندما التقطت هذه الصورة كان يؤدي خدمة العلم.

تمسكت بالخيط الجديد الذي هدتني إليه سيسيل وسألتها على الفور:

- وهل يسعني الوصول إلى موريس برجراك؟ هل لديك عنوانه؟

أطلقت زفرة قبل أن تجيب:

- عنوانه، لا. ولكن حين صادفته في المترو قال لي إنه قد اقتنى مكتبة في شارع "لاب" بجوار "الباستيل". لست أدري إن كان لا يزال يعمل في تلك المكتبة. فلقائي معه يعود إلى بضع سنوات، وموريس لا يعرف كيف يثبت لا في مكان ولا في عمل.

شيعتني سيسيل حتى باب محترفها. كنت قد بدأت أهبط السلم الحجري الضيق، الذي تفوح منه رائحة رطوبة وعفونة، عندما نادت: "يا آنسة!". استدرت نحوها؛ كانت لا تزال واقفة عند الباب. ترددت لحظة قبل أن تقول: "لقد حدثتني عن لوحة. عن رسم شخصي لدومينيك. فهل يسعني أن أراه ذات يوم؟"

أجبتها وأنا أبتسم: "هذه أمنية سهلة التحقيق".

* * *

شارع "لاب"، القديم حتى الاهتراء، لم يكن يحتوي إلا على مكتبة واحدة: "الحديقة السرية". مكتبة مختصة في بيع الكتب الباطنية كما اتضح لي من تفحص المؤلفات المعروضة في واجهتها. وقد أطلت ولابد في وقفتي أمام تلك الواجهة بدليل أني استرعيت انتباه الشاب، الفاقع الشقرة، الذي كان يجول داخل المكتبة. فقد فتح الباب الزجاجي وسألني بصوت غانج: "هل الآنسة راغبة في اقتناء كتاب مثير؟"

ابتسمت بالرغم مني وقلت: "لا، إن الآنسة راغبة في مقابلة السيد برجراك. ولكن يبدو أنه قد رحل".

فصاح الشاب: "آه، موريس! ولكنه لن يتأخر... إن شئت انتظاره فتفضلي". وأشار بحركة من يده إلى داخل المكتبة. شاورت نفسي في قبول دعوته غير أن فكرة الجلوس مع هذا الشاب لم ترق لي. شكرته على بادرته وانصرفت.

تجولت على مدى ساعة في الأزقة الضيقة والمميزة المتفرعة عن شارع "لاب"، وعندما قفلت عائدة توقفت عند ملهى "البلاّجيو" الذي كان يعلن عن سهرات "رترو" على ألحان الستينات. ألحان كانت دومينيك لوتريك ترقص عليها ولا ريب. أكان "الروك" هو سيد الحلبة يومذاك؟ أم "التويست"؟ أم "التانغو السرمدي"؟ إن دومينيك، المولعة بتشايكوفسكي وبسمفونيته الحزينة، كانت تميل حتماً إلى رقص "التانغو"...

من خلف واجهة "الحديقة السرية" لاح لي رجل جالس خلف مكتب. رجل نحيل، خفيف الشعر، منكب فوق مجلد ضخم. تنبه إلى صوت

الباب الذي فتحت، فرفع رأسه ونظر إلي من خلف نظّارة طبية. قلت وأنا أخطو إلى داخل المكتبة.

- آمل أن تكون السيد موريس برجراك؟

فابتسم وأجاب: "شكراً... فهذه أول مرة يأمل فيها إنسان أن أكون أنا..."

ارتحت إليه للحال. وبيسر ودونما إحراج أطلعته على أسباب زيارتي. فسألني بفضول: "أين الصورة التي تتحدثين عنها؟.. أرني إياها بسرعة أرجوك". ناولته إياها، فتلقفها بيدين متلهفتين. وفيما كنت أراقب تعابير وجهه انشغل هو بتلاوة أسماء الماثلين على البوستر، وقد غدوت أعرف بعضاً منها. وانتهى من تعدادها من غير أن يأتي بذكر دومينيك لوتريك... فقلت له بلهجة عابثة: "ودومينيك؟ لماذا أسقطتها من حسابك؟".

فأجاب وهو يتفحص البوستر ثانية:

- دومينيك!... أية دومينيك؟

- دومينيك لوتريك. انها تقف إلى أقصى اليسار، غير بعيد عنك... فأنت صاحب الرأس الحليق، أليس كذلك؟

أخذ وقته قبل أن يجيب:

- ولكن الواقفة إلى أقصى اليسار هي كارين؛ كارين دوترون. وقد ذكرت اسمها في الأول.

- أواثق أنت من ذلك؟

- طبعاً!...

وبالرغم من شعور الخيبة الذي انتابني راودتني رغبة عارمة في الضحك. فسألني وهو يبتسم:

- ولماذا تضحكين؟... أبسبب رأسي الحليق؟...

نفيت بحركة من يدي فتابع يقول:

- إن كانت كارين هي التي تبحثين عنها فلن يسعني أن أرشدك إليها... لقد التقيت بها مرتين أو ثلاثاً ولكن منذ زمن بعيد. منذ عهد الصورة التي بين يديك... إن نادين دوراس هي التي جمعتنا بها. كانت صديقتها الحميمة. مسكينة نادين...

- ولماذا مسكينة؟ ماذا حلّ بها...

تجاهل سؤالي ومكث ساكتاً للحظات. قال بعد ذلك وهو يثبّت نظره في عينيّ:

- لازلت أذكر حواراً دار بيني وبين كارين دوترون. كنا قد حططنا في مقهى صغير في "بولفار سان - جرمان" بعد خروجنا من مشاهدة فيلم هيتشكوك "الدوامة". وفيما كان بقية الرفاق يضجّون ويصخبون انزوت كارين في أقصى الطاولة. كانت ساهمة بل شبه مأخوذة... استغللتُ شغور مقعد بجوارها لأجلس بقربها. سألتها ما الذي جعلها تجنح عنا، فاكتفت بأن أجابت: "موضوع الفيلم كان رائعاً". وافقتها فتابعت تقول، وكأنها تخاطب نفسها: "أين يقف الأنا وأين يبدأ الآخر؟... إن الحدود بينهما ليست قاطعة في مطلق الأحوال. فهنالك تنافذ مستمر بين الاثنين". لم أوافقها هذه المرة. قلت لها، على ما أذكر: "التنافذ مستحيل. ومأساة الإنسان أنه لا يستطيع أن يتخطى ذاته. فهو سجين هذه الذات". ابتسمت عند ذاك بشيء من السخرية وقالت: "وما هي الذات؟ أهي صرح قدّ من حجر صوان؟... قد لا تكون أكثر من مرآة؛ تعكس صوراً لثواني ثم تجتر حنينها إليها... إنها حنين دائم إلى الآخر".

أطلق موريس برجراك تنهدة وأضاف وهو يداعب البوستر: "يا لترف الشباب!...إنه سن الإنفاق بلا حساب على تساؤلات وجودية". فعقبت قائلة: "ولكنها تساؤلات جوهرية!" ابتسم بحزن وأجاب: "لمن يكون في العشرين".

وساد بيننا صمت قطعته لأقول:

- سؤال واقعي، لا وجودي، أود أن أطرحه عليك الآن: هل من سبيل للوصول إلى من أسميتها كارين دوترون؟

مرر يده في شعره وفكر ملياً قبل أن يجيب:

- لست أدري بصراحة إن كان كارلوس روبان سيفيدك بشيء. فثمة علاقة قربى تجمعه بنادين وربما تستطيعين عن طريقه أن تحصلي على أخبار كارين.

- ولماذا لا ألجأ إلى نادين مباشرة؟ لقد أكدت بأنها كانت صديقة حميمة لكارين.

هز موريس برجراك رأسه نفياً وقال:

- لا. لا فائدة من الاتصال بنادين. دعي المسكينة وشأنها. إنني أجهل في مطلق الأحوال في أي مصح قد حلّت.

- حسناً!... أين يسعني أن ألقى كارلوس روبان؟

- عندما التقيته لآخر مرة أعلمني بأنه يعمل في مصرف "الكريدي ليونيه"، في المقر المركزي.

- تعني البناء الكائن في "بولفار كابوسين"؟

- "لا، بل في "بولفار الإيطاليين".

التفتت إلى الوراء. كان الشاب الأشقر يقف عند مدخل المكتبة. ابتسم لي وأضاف.

- سمحت لنفسي أن أصحح خطأك!.. خطأ شائع في الحقيقة... فكثيراً ما يختلط أمر هذين البولفارين على الباريسيين؛ لاتصال واحدهما بالآخر ولا ريب؛ وربما لتشابههما الكبير أيضاً.

قلت بلهجة عابثة: "لنقل إن بينهما تنافذاً".

لم يهتم الشاب بتعقيبي؛ دنا من موريس برجراك وسأله وهو ينحني عليه: "ألن نذهب إلى الغداء؟ فقد قاربت الساعة من الواحدة!"

نظر إلي برجراك بشيء من الارتباك ثم قال وهو يهم بالنهوض: "هل تشاركنا الآنسة طعامنا؟". شكرته على بادرته واعتذرت عن قبول دعوته التي استقبلها الشاب بقدر من الامتعاض. وفيما كنت أودعه همس بالقرب من أذني: "إذا ما وفقت في بحثك فلا تبخلي عليّ بأخبار كارين".

* * *

لم أوفق في بحثي مع أنه طال وتشعب. وجاء يوم اضطررت إلى التسليم فيه بأن سعيي لن يأتي بنتيجة. فقد استنفدت معارف تلك الصبية الساهمة من غير أن أهتدي حتى إلى اسم ثابت لها. فقد كان هذا الاسم يتحول من لقاء إلى آخر، ومعه صفاتها بل وكامل هويتها.

وفي أمسية خريفية اشتد فيها البرد ألفيت نفسي أدلف إلى مقهى "الديك الصيّاح". كانت قاعته الفسيحة خالية تماماً من الرواد. وفي صدر تلك القاعة، خلف البار، بانت السيدة المسنّة، صاحبة المقهى، ومن ورائها، على الحائط، ذلك البوستر الذي جعلني أعدو على مدى أسابيع... دنوت من السيدة التي استقبلت قدومي بابتسامة وديعة؛ وعندما أصبحت في مواجهتها حيتني وسألتني عن طلبي قلت "كأساً من

الشاي" وأنا أعتلي واحداً من المقاعد المصفوفة في جوار البار. غابت للحظات وعادت بالطلب. وقالت وهي تصب الشاي:

- كنت أشاور نفسي في إغلاق المقهى عندما لمحتك تدخلين... فما من رواد هذا المساء وما من خدم أيضاً.

فقلت لها وأنا آخذ جرعة من السائل الحار:

- إني لآسفة على إزعاجك... سأشرب الشاي بسرعة وأرحل.

- أبداً، إني لسعيدة بوجودك... إن وحدة المساء صعبة بعد صخب النهار.

بعد برهة أشارت بحركة من يدها إلى البوستر وسألتني باهتمام: "هل عثرت عليها؟". هززت رأسي نفياً. فأردفت تقول: "ألم يتعرف عليها جوستان؟"

فأجبتها:

- أجل، تعرف عليها رجل الدمى. كما تعرّف عليها كثيرون آخرون.

- إذن؟

- المشكلة أنه لم يحصل أن اتفق اثنان على الرأي عينه. كل مرة كنت أقابل فيها واحداً من الماثلين على هذا البوستر كنت أخرج بصورة جديدة عنها.

- وأين المشكلة؟ فلكل منهم نظرته المميزة إليها.

فقلت موضّحة:

- لقد اختلفوا حتى على اسمها، على هويتها!

مررتْ يدها على سطح البار في حركة آلية ثم قالت:

- إن كانوا قد اختلفوا على اسمها فهل هذا يعني بالضرورة أنهم قد اختلفوا على هويتها؟

- ولكن، كيف عساي أن أهتدي إليها وأنا لا أزال أجهل اسمها الحقيقي!

أحاطتني بنظرة امتزج فيها العطف والسخرية، وبصوت خفيض سألتني:

- ولماذا تلحّين في البحث عنها ؟ أبسبب ذلك الشبه المذهل بينك وبينها ؟

كادت الدهشة أن تعقد لساني.

بصوت مرتجف تمتمت:

- أنت أول من تنبه إلى هذا الشبه!

فأجابت وهي تبتسم:

- ربما لأني لم أعرفها.

وأضافت بعد هنيهة: "آن أوان إغلاق المقهى". استدارت وضغطت بيدها على زر كهربائي، فانطفأت الأضواء الموزعة في القاعة. عاودت الكرة، فانقطع التيار عن الفوانيس المتدلية فوق البار. ولم يبق سوى مصباح واحد مضاء، يبث نوراً خافتاً.

نهضتُ من فوق المقعد وهممت بالانصراف. عندما بلغت الباب استدرت ونظرت إلى حيث كانت لا تزال تقف بقامتها المهيبة. فقلت بصوت يكاد لا يكون مسموعاً:

- لكم وددت أن ألتقيها.

فأجابت فيما كان المقهى يغرق في ظلمة تامة:

- أواثقة أنت من أنك لم تلتقيها ؟

الدعوة

"يرجى حضورك إلى دار والديك في تمام الساعة الخامسة من يوم السادس عشر من أيلول الجاري".

للمرة العاشرة كانت هناء تطالع هذه الدعوة الغريبة التي وصلتها مع بريد الصباح؛ وللمرة العاشرة ألفت نفسها عاجزة عن الاهتداء إلى تفسير لها. فمن الذي يدعوها إلى دار أبويها؟ وكيف، والدار نفسها قد أقفرت، وأقفلت أبوابها ونوافذها، غداة وفاة والدتها، قبل أكثر من عشر سنوات؟ لقد كان يعز عليها الذهاب إليها، خوفاً من تحريك ذكريات حزينة ومؤلمة. وربما كانت تعتب عليها بقاءها، بعد رحيل أهلها عنها. فإذا بمن يوجه إليها دعوة رسمية لزيارتها. دعوة أشبه ما تكون بالإنذار أو بمذكرة جلب! ترى من هو صاحب هذه الدعابة السمجة؟ باعث الرسالة لم يكتب اسمه على ظهر المغلف. وأغلب الظن أنه قد وضع هذه الرسالة بيده في علبة بريدها. فهي لا تحمل طابعاً أو دمغة مركز بريدي، بل لا تحمل حتى عنوانها. اسمها فقط: هناء الصالح. الشيء الأكيد هو أنه يعرفها حق المعرفة، وإلا لما اختار تاريخ السادس عشر من أيلول موعداً لدعوته: فالسادس عشر من أيلول هو يوم ميلادها. لكن من يدري؟ فربما

اختاره صدفة... حاولت مع ذلك استذكار اسم أو وجه قابل لأن يكون وراء هذه الدعوة. غير أنها لم تجد بين أصدقائها ومعارفها من تلصق به تهمة ممازحتها على ذلك النحو الصبياني، بل الغبي. طوت الرسالة وأعادتها إلى مغلفها ورمتها في درج.

أطلّ يوم السادس عشر من أيلول. انقضت ساعاته الأولى دون أن يُدقّ بابها أو يرن جرس هاتفها. وتملّكها شعور بالخيبة الممزوجة بالمرارة. فذكرى مولدها ما عادت تعني شيئاً لأحد. ربما لأنها غدت تُصنف في فئة البالغين، والبالغون لا يحق لهم الاحتفال بعيد مولدهم. فهذا عيد الصغار، عيد من لهم أبوان يبتهجان أبداً بذكرى إطلالتهم على هذه الدنيا. وتذكرت دعوة المجهول وابتسمت بحزن: فهذا الغريب، أو الصديق، الذي أبى أن يكشف عن هويته، ميّز على الأقل يوم السادس عشر من أيلول عن سائر أيام السنة! وغمرها حنين عارم إلى دار أبويها وراودتها رغبة جامحة في التوجه إليها بعد طول هجران. نظرت إلى ساعة معصمها. كانت عقاربها تشير إلى الثانية. إن الذهاب من دارها الساحلية إلى دار أبويها الجبلية يتطلب ساعتين إلى ساعتين ونصف، تبعاً لازدحام السير. فلو تحركت على الفور، لوصلتها قبل الخامسة بكل تأكيد... ووجدت نفسها تقول: سأكون على الموعد.

كان الازدحام على أشده على الطريق الساحلي الطويل. وبين أرتال السيارات وزماميرها المزعجة حشرت سيارتها وتركت نفسها تنقاد لإيقاع السير. تتوقف السيارة التي أمامها فتتوقف، تسير فتسير. لم تحاول مرة واحدة أن تخرج من الرتل الذي انخرطت فيه، أن تناور، أن

تستغل بضعة أمتار شغرت في الرتل الموازي لرتلها لتنعطف بسيارتها وتتقدم قليلاً. نوع من الخدر قد سيطر عليها. فهي ذرّة في هذا النهر الحديدي الهادر، وقد استسلمت لتياره الجارف. ضغطت بحركة آلية على زر الراديو، فانساب صوت عبد الوهاب يردد "وأقول لعيني ليه تبكي ليه ما دام الليل ما لوش آخر".

زاد هذا الصوت الهادئ وهذه العبارة المكررة من إحساسها بالخدر. وغاب عنها كل ما من حولها باستثناء المصباحين الصغيرين على جانبي مؤخرة السيارة التي أمامها. فكلما لاح فيهما نور أحمر، ضغطت على فراملها، وكلما اختفى، رفعت قدمها قليلاً محررة الكابح من دعستها. راودتها الرغبة في النوم وتمنت لو تستطيع أن توقف سيارتها هنا، في ازدحام الطريق، وأن تستلقي على مقعدها الخلفي وتنام، كما كانت تفعل وهي طفلة. لكن كان عليها أن تقود! وطفرت من ذكريات الماضي البعيد صورة. صورتها هي وقد تقوقعت فوق فراش السيارة الجلدي، وغارت تماماً تحت معطف والدها. كانت عائدة مع أبويها من نزهة طويلة وقد غلب عليها النعاس مع هبوط الليل. أمها كانت تدخن وهي تستمع مطروبة إلى أم كلثوم تنشد "هلّت ليالي القمر". كان دخان سيجارتها ينتشر ضباباً شفافاً داخل السيارة وكانت هي تراقب تموجاته متدثرة في معطف والدها، مطمئنة، سعيدة. لكن سعالاً انتابها، فعلا صوت والدها يقول ناهراً: "كفي عن التدخين، سوف تختنق الطفلة". رفعت رأسها وأجابت على الفور، وهي تقاوم إحساسها بالاختناق: "لا، دخان السيجارة لا يزعجني. إنه جميل ورائحته طيبة". ضحكت والدتها وأدار والدها رأسه صوبها وقال: "ألم تنم عروستي بعد؟"

وانقطع سيل الذكريات على صوت زمور مزعج. كان سائق السيارة التي خلفها قد استاء من تباطُئها ومن اتساع المسافة التي باتت تفصلها عن السيارة التي أمامها. ضغطت بقدمها على دواسة البنزين وانتظمت داخل الرتل من جديد. كان صوت عبد الوهاب لا يزال يردد: "وأقول يا عيني ليه تبكي".

توقف السير. أشعلت سيجارة وفتحت زجاج النافذة على يسارها. تنبهت إلى وجود رجل ينظر إليها بعينين غاويتين. كان قد سلّم مقود سيارة إلى امرأة بجانبه وانشغل بتأملها هي. لم تدع له فرصة لمخاطبتها. فما إن حاول إخراج رأسه من السيارة ليبادرها بعبارة ما حتى أغلقت نافذتها بحركة هادئة أرادتها وقحة. تململ الرجل داخل سيارته. وظلّت هي ترمقه ببرود لتزيد من ارتباكه. أطلق السائق خلفها زموره فأقلعت من جديد. عبقت السيارة بدخان سيجارتها وانتابتها نوبة من السعال أرغمتها على فتح النافذة من جديد. الرجل في السيارة المجاورة لم ينظر إليها هذه المرة، بل مكث يحملق أمامه وكأن عنقه أصيبت بتشنج. نقرت على زمورها؛ كاد أن يدير رأسه نحوها بحركة عفوية، غير أنه تدارك نفسه وظل يتجاهلها كطفل حرد. ضحكت لمشهده ثم انشغلت عنه. ولمحت حيزاً شاغراً على يمينها فتحررت من رتلها وراحت تتقدم بسرعة أكبر. وبعد لحظات كانت تغادر الطريق الساحلية المختنقة بالسيارات وتباشر صعودها باتجاه الجبل.

كانت كلما ارتفعت أكثر شعرت بارتياح أعمق. فعدد السيارات كان يتضاءل، موحياً لها بأن الطريق قد غدت ملكها، وحجم المساحات

المبنية كان ينحسر لينفرش مد الغابات الأخضر. ثم أخذ الضباب ينتشر. ضباب أبيض خفيف له طعم الحنين. كانت مزقه تعربش على الصخور، تندس بين الأشجار، تعربد فوق مداخن البيوت الجبلية القديمة، وتكلل مصابيح السيارات العابرة بهالة برتقالية تحكي لغة العيد. تابعت صعودها. مزق الضباب شرعت تتجمع وتلتحم لتشكل نسيجاً متماسكاً. داخلها شيء من القلق. فماذا لو اشتد الضباب وحجب عنها الرؤية، إلى أي حال مزرية ستؤول عند ذاك؟ راودتها فكرة الانعطاف بسيارتها والإقفال عائدة إلى الساحل. دار والديها... ؟ تزورها في مناسبة أخرى. وماذا تنتظر أصلاً من زيارتها ومن تلك الدعوة الغريبة التي تلقتها قبل أيام؟ أمن أجل الذهاب إلى دار مقفرة، مهجورة، انطفأت فيها الأنوار من سنوات، تتحدى الضباب وتغامر بالتيه على هذه الطريق الجبلية الضيقة والمتعرجة؟ وماذا لو حادت عجلاتها عن الإسفلت؟ ستهوي إلى الوادي الذي على يمينها أو تصطدم بالصخور التي على يسارها. مع ذلك ظلّت تصعد. بل ضغطت بكل قواها على دواسة البنزين فانطلقت السيارة تشق بعنف حجاب النسيج الضبابي الشفاف. وامتلكها إحساس بالنشوة وسمعت نفسها تقول، بصوت عال، كأنما تخاطب شخصاً ما إلى جانبها: "أنا ابنة الجبل، لم أخلق لأعيش في الساحل!"

كان الضباب يشتد ويتكاثف، غير أن قوة غامضة كانت تدفعها إلى موالاة الصعود، وإلى إسكات هلعها المرضي من انسداد الرؤية أمامها. وفجأة اكتسبَ النسيج الضبابي قتامة مخيفة، وتحولت السيارة الصغيرة، في لحظات، إلى شرنقة خانقة. دبّ الذعر في نفسها، بعد أن

لفّها البياض وعزلها عن العالم المحيط. أطفأت محركها وبادرت، بحركة عفوية، إلى فتح باب السيارة للهرب من هذا السجن المرعب. لكن ما إن أخرجت رأسها من السيارة حتى أدركت عبث محاولتها: فالضباب كان قد عمّ وغيّب معالم الأشياء تماماً. بل إنه استغل الثغرة التي أحدثتها بفتحها الباب ليشرع بالتسرب إلى داخل السيارة. أغلقت الباب بسرعة، وتأكدت من أن زجاج النافذة مرفوع حتى النهاية. كانت كجرذ وقع في فخ. لم تفكر لحظة واحدة بخطر اصطدام سيارتها، المتوقفة في عرض الطريق، بسيارة أخرى صاعدة إلى الجبل أو هابطة منه. كان مصدر هلعها الأوحد وجودها أسيرة في مكان مغلق لا تستطيع الإفلات منه. الإحساس بالاختناق أخذ يدهمها. ضيق في التنفس يشتد ويشتد، ويزداد مع اشتداده ضغط الزنار الحديدي الذي لف صدرها. الهواء ما عاد يدخل إلى رئتيها إلا بمشقة ولا يخرج منهما إلا مصحوباً بصفير ينخر اذنيها ويزيد من حالة الضيق التي هي فيها. عرق بارد، لزج، بدأ يتصبب من جسدها، فاصلاً بينه وبين ثيابها وكأنه يسعى إلى تعريتها من آخر درع تحميها. صفير أنفاسها تحول إلى فحيح أفعى تلف صدرها وتضغط عليه بلا رحمة. أحست برغبة عارمة في أن تصرخ وتعلن استسلامها أمام الاختناق الهاجم. غير أنها لم تعد تقوى حتى على الصراخ. أغمضت عينيها وأسندت رأسها إلى مقود السيارة واستنجدت بالعبارات التي اعتادت على الاستعاذة بها في ساعات الاختناق الحالكة، علّها تخفف من ضيقها. وراحت تردد بينها وبين نفسها: أنا الآن واقفة على شرفة وأمامي غابة خضراء تمتد إلى ما لا نهاية! أنا

منتصبة على قمة جبل تنحدر سفوحه لتعانق البحر البعيد! أنا على شاطئ نهر تنساب مياهه بطلاقة!

لكن تعويذاتها لم تؤت أي مفعول. كانت تفتح فاها وتستنشق الهواء بكل قواها فتعجز عن إدخاله إلى صدرها. وقعت نظراتها على أصابع يدها، فهالها رؤية أظفارها المزرقة. رفعت رأسها ونظرت إلى وجهها في المرآة الصغيرة أمامها. كانت الزرقة عينها قد تلبست شفتيها. بكل قواها سعت إلى عبٍّ بعض الهواء، لكن حاجزاً فولاذياً حال دون تسربه إلى رئتيها. ضربت رأسها بزجاج النافذة وشعرت بأنه سيغمى عليها. مدّت يداً مرتجفة، وبصعوبة فائقة تمكنت من فتح النافذة. أسندت رأسها من جديد إلى المقود وغابت عن الوعي فيما كان الضباب ينتشر داخل السيارة.

صوت ناعم أيقظها. صوت عذب يقول: "دخان السيارة لا يزعجني. إنه جميل ورائحته طيبة". تمسكت بهذا الصوت الذي كان له في أذنها وقع قطرات مطر على وريقات عطشى. وخاطبت نفسها قائلة: لماذا أخشى هذا السحاب الأبيض الذي يلفني؟ إنه الدخان المنتشر من سيجارة أمي. وما خلته أفعى تشد على صدري وتخنقني، ما هو إلا معطف أبي. هأنذا متقوقعة على المقعد الخلفي في سيارة تعود بي مع والديّ إلى دارنا. فلمَ الضيق ولم الخوف؟

وأخذت أنفاسها تنتظم مع انحسار الثقل الجاثم على صدرها. وبجهد كبير فتحت عينيها لتشاهد صخوراً وأشجاراً من خلف زجاج النافذة. لقد تبدد الضباب إذن وحرّرها من تلك الشرنقة الخانقة. أحسّتْ

بإعياء شديد، كمن عمل حتى الإرهاق أو مارس الحب بإفراط. من قال إن الحب موت مؤقت؟ ما عادت تذكر. أعادت تدوير محركها استعداداً لاستئناف رحلتها إلى دار أبويها. لكن، أتراها تحلم؟... فها هي الدار تنتصب أمامها، زاهية، متألقة، سابحة في نور برتقالي. من أين جاء هذا النور العجيب؟ وكيف أصبحت أمام الدار وكيلو مترات عدة كانت لا تزال تفصلها عنها عندما حاصرها الضباب وأرغمها على التوقف؟ لم تشغل نفسها بالبحث عن جواب، بل فتحت باب السيارة، وبقدمين لا تزالان ترتجفان سارت في اتجاه البيت، في اتجاه الحديقة الصغيرة الوديعة المحيطة به. دفعت الباب الخشبي العتيق، تقدمت بضع خطوات ثم توقفت عند السنديانة الشاهقة التي تظلل عتبة الدار. طوقت بذراعيها جذعها الأليف ومسحت خدها على خشبها العطر، وأغمضت عينيها مستسلمة لنشوة اللحظة. هبّت ريح ناعمةٌ وراحت تعبثُ بخصلات شعرها. وترامى إلى مسامعها حفيف. أهي الريح تداعب أغصان السنديانة؟ لكنه حفيف منتظم، ثابت الإيقاع! فتحت عينيها. كانت أرجوحة، تدلّى حبلها من فرع في السنديانة، تؤدي حركة نواسية أمامها. دهشت لمشهدها وراحت تجيل عينيها في أطراف الحديقة. ترى هل فاجأت بدخولها طفلاً لدى رؤيتها؟ ولكن من أين يأتي الطفل والدار قائمة في رقعة مهجورة؟ وماذا ترى الآن؟ سيارة والدها متوقفة أمام باب الحديقة الخشبي! لقد دخلت منه لتوها ولم تنتبه لوجود "السيتروين" السوداء القديمة. هذه "السيتروين"، ألم تُنقل محمولة إلى مقبرة سيارات قبل سنوات؟ كيف تراها عادت إلى هنا؟ وأين ذهبت سيارتها هي؟

سيارتها الأوبل البيضاء؟ أيعقل أن تكون قد سُرقت في لحظة؟ ومن قبل من؟ وكيف تراها تعود إلى دارها؟ أبهذه الستروين المعطّلة؟ ترى... هل تم إصلاحها؟ هل استردت قدرتها على السير؟

أرادت التأكد من حالة السيارة فتقدمت خطوتين في اتجاهها، غير أن أصواتاً صادرة من داخل الدار خلفها جعلتها تستدير وتتوقف مشدوهة. فخلف نافذة المطبخ الصغيرة المطلّة على الحديقة لمحت رأساً تتحرك. منعها النور البرتقالي المخيم على الدار من التعرف إلى تلك الرأس التي سرعان ما اختفت. تقدمت قليلاً في اتجاه الدار، فغدت الأصوات مسموعة أكثر. وشيئاً فشيئاً بدأت تحدد مصادرها. هذا صوت ماء يسيل من صنبور، وهذه بربرة طناجر وضعت فوق النار، وهذا هدير آلة خفق البيض، وهذه قرقعة صحون. ماذا يحدث في الدار؟ هل احتلها أحدهم خلسة؟ أيكون هذا الدخيل هو الذي وجه إليها الدعوة للحضور؟ ولكن من يكون؟

وإذا بصوت أمها يأتيها واضحاً جلياً وهو يسأل: كم الساعة الآن؟

وثب قلبها في صدرها وكاد يحطّم أضلعها. غمرتها سعادة عارمة، جنونية، وكالريح العاصفة انطلقت. دفعت باب الدار بكل قواها فانفتح. دلفت إلى القاعة الواسعة التي أضاءتها شمس أيلول الغاربة بوهج نحاسي وتسمّرت عند عتبتها وقد شخصت عيناها إلى والدها، الجالس في ركنه المألوف، يطالع صحيفة. رفع رأسه وابتسم لها. كان قد لف نفسه بعباءته الصوفية السوداء، المزركشة عند أطرافها بخيوط ذهبية، وأحاط عنقه بشال حريري أبيض لم يسبق أن وقعت عيناها عليه.

اقتربت منه وفي نفسها رغبة ملحّة في التعرّف إلى هذا الشال الذي فاجأها وجوده حول عنق والدها، غير أنه رفع يده مشيراً إلى ناحية المطبخ وقال بصوت هادئ: "أمك في انتظارك". ابتسم لها مجدداً وعاد إلى مطالعة صحيفته.

غادرت القاعة الكبيرة وسلكت الممر الطويل المظلم المفضي إلى المطبخ. امتلأت أذناها ثانية بالأصوات الأليفة التي كانت قد ترامت إلى مسامعها وهي في الحديقة. تمهلت قليلاً أمام الباب الذي كان نصفه العلوي مؤلفاً من زجاج ملون مبرقع. ثم دفعته ودخلت. ميّزت على الفور أمها المنحنية فوق فرن الغاز. ثم رأت جدتها وهي تدير ملعقة خشبية في وعاء نحاسي كبير. وقرب الطاولة المغطاة بنسيج مشمّع، طبعت عليه مربعات زرق وبيض، جلس خال أمها العجوز يشرب كأساً من الشاي. حيّا الثلاثة قدومها بابتسامة رضى. رنت من أمها وقبلتها وقد طفح قلبها بفرح طفولي. لمحت في عينيها النظرة المتواطئة التي كانت تستقبلها بها كلما خبأت لها مفاجأة طيبة. فسألتها: "ماذا اعددت لي اليوم؟"، ثم أضافت وهي تنظر إلى الفرن: "أقالباً من الحلوى؟". ضحكت أمها وأجابت: "وهل كان يعقل ألا أعدّ لك قالباً من الحلوى في عيد ميلادك؟". دنت إلى أمها بامتنان وقالت بلهجة مداعبة: "لكن قد يعجز قالب الحلوى عن استيعاب كل الشموع. فقد نيّف عددها على الأربعين". أجابت الأم بهدوء: "سنستغني عن الشموع هذه المرة". انتابها ضيق مبهم لدى سماعها هذه الكلمات، فاستدارت نحو الخال العجوز الذي كان قد أخرج سبحة خضراء من جيب قنبازه وانشغل بطقطقة

حبّاتها الكبيرة. دنت منه وأحاطت كتفيه بذراعيها وهمست في أذنه: "منذ متى لم أشاهدك؟ أمن عشرين عاماً؟ خمسة وعشرين؟. داعب بأصابعه شنبه الأبيض الطويل وقال: "ما عدت أذكر يا ابنتي. ربما من عشرين عاماً، ربما من خمسين، ربما من مئة". ضحكت وقالت له مداعبة: "هل أصبت بالخرف يا خال! فقبل مئة عام، قبل خمسين عاماً، لم أكن أنا قد ولدت بعد. فهل أكون قد شاهدتك للمرة الأخيرة قبل ولادتي؟" وتنبهت لوجود الجدة التي كانت لا تزال تدير الملعقة الخشبية في الوعاء النحاسي، غير مبالية بما يدور من حولها. قالت موجهة كلامها لأمها ولخالها: "ماذا تفعل الجدّة هنا، بيننا؟... أنا لم أعرفها إلا بالصوَر! لقد توفيت قبل عام بالضبط من مولدي. هذا ما قيل لي أكثر من مرة. فماذا تفعل هنا؟". مكث الاثنان صامتين وقد بدا الارتباك واضحاً على وجهيهما؛ أما الجدة فلم تعر كلامها أي اهتمام، فكأن الأمر لا يعنيها. وتسارعت ضربات قلبها ودبّ فيها ذعر فأسرعت نحو أمها وسألتها محتدة: "ما دمتِ تحتفلين بعيد مولدي، فلماذا لم تدعي شقيقي أيضاً؟ من عادتك أن تدعينا جميعاً كلما أولمت وليمة. فأين سالم؟ وأين جاد؟ ألن يحضر!؟" كانت تنظر إلى أمها مستغيثة، تترقب منها كلمة تعيد الطمأنينة إلى نفسها. ومضت لحظات والأم صامتة. بعد ذلك قالت بهدوء وهي تبتسم بأسى: "العيد اليوم لك وحدك".

خبا النور البرتقالي الذي كان يلفّ المكان وأخذ ينحسر بالتدريج. رمادية غسقية كئيبة انتشرت في المطبخ الذي تلاشت فيه أصوات الطهو الأليفة. اختفت الجدّة، وبقيت الملعقة الخشبية وحدها تدور داخل الوعاء

النحاسي الكبير، ثم توقفت عن الدوران. نهض الخال العجوز من جلسته، سار في اتجاه النافذة المطلّة على الحديقة وغاب. لم يبق بجوارها سوى أمها. أحست بإعياء شديد وراودتها رغبة طاغية في الاستسلام للنوم. قالت لأمها: "إني متعبة، أود لو أرتاح قليلاً". فأجابتها بحنان: "تعالي معي، لقد أعددت لك سريرك".

اتكأت على أمها وخرجتا معاً من المطبخ إلى الممر المظلم الطويل. دلفتا إلى القاعة الكبيرة حيث كان يجلس والدها فبدت لها مترامية الأبعاد، شاهقة الجدران. جرّتها أمها نحو أبيها الذي كان قد وضع صحيفته جانباً ومكث بلا حراك في مقعده. كان الشال الحريري الأبيض الذي لف له عنقه يسطع وكأنما بنور خفي، أما عباءته فغابت منها خيوطها الذهبية وغدت سوداء حالكة. مدّت أمها يدها ونزعت الشال عن عنق والدها؛ أرادت أن تسألها لماذا فعلت ذلك ولماذا يجلس والدها هكذا بلا حراك وكأنه دمية ضخمة، غير أنها لم تقوَ على الكلام. تابعتا سيرهما في اتجاه غرفتها. مرّتا أمام ساعة الجدار الكبيرة؛ وقفت هي تحملق في عقاربها التي أشارت إلى الخامسة، فدعتها أمها بحركة من ذراعها إلى استئناف السير وقالت: "منذ دهر وهذه الساعة تشير إلى الخامسة".

بلغتا أخيراً غرفتها. لدى رؤية سريرها المفروش بغطاء أبيض ناصع شعرت بارتياح عميق. أخيراً ستتمددُ وتستسلم للنوم. حاولت أن تتقدم نحو السرير، لكن شللاً غريباً سمّرها في مكانها. تثاقل جسدها حتى بات متعذراً عليها تحريكه، فاضطرت أمها إلى حملها بالنيابة عن

ذاتها. مدَّدتها برفق فوق السرير وهمّت بفرش شال والدها الأبيض فوق جسدها المنهك. استجمعت كل قواها لتسأل أمها: "أنت التي دعيتني إلى المجيء، أليس كذلك؟". لم تجب أمها عن سؤالها واكتفت بسحب الشال فوق وجهها.

لم تعد ترى إلا بياضاً ساطعاً غيّب عنها ملامح الأشياء من حولها. وضاقت بهذا البياض الباهر، المعمي، وحاولت تحريك رأسها للتحرر منه. لكن ثقلاً رهيباً جثم فوق عنقها. ثقلاً سحق صدرها أيضاً. أرادت أن تصرخ، أن تستنجد، لكن الكلمات كانت تختنق في حنجرتها. انتفض صدرها بحشرجة، بيد أنها لم تسمع صرخة بكائها. فقد انفجرت هذه الصرخة في داخلها فيما كانت رأسها تهوي على المقود والضباب يفرض هيمنته المطلقة على المكان.

الواحة

- السيدة هند كامل، أنت مطلوبة على الهاتف.

نطق النادل بهذه العبارة وتناول فنجان القهوة من فوق الطاولة أمامي واستدار. نهضت على الفور وتناولت بدوري حقيبة يدي، ورحت أشقّ لنفسي طريقاً بين الكراسي والطاولات الصغيرة التي افترشت الرصيف لأدلف إلى داخل المقهى. اصطدمت حقيبتي بكرش رجل بدين فطلبت منه المعذرة. دعست على قدم شاب كان منهمكاً بتقبيل فتاة فزجرني بقسوة. تمسّكت بظهر مقعد احتلته امرأة ترتدي معطفاً من الفراء الرمادي فغمرتني رائحة عطر فاخر. عندما بلغت أخيراً باب المقهى لمحت من خلف زجاجه جهاز الهاتف الأبيض فوق البار الخشبي الكبير. شددت الباب إلى ناحيتي وهممت بالدخول، لكن كعب حذائي الرفيع علق في خيوط سجادة صغيرة وضعت عند المدخل. فقدت توازني وكدت أقع أرضاً، غير أن قدمي، لحسن الحظ، خرجت من الحذاء الذي بقي أسير الخيوط. انتعلت الحذاء وأخرجته من السجادة بحركة عصبية فيما كان الدم يحرق وجنتيّ لشدة الخجل. لا ريب أن رواد المقهى يحملقون الآن بي ويسخرون من انفعالي! تمالكت نفسي وسرت إلى البار حيث يرقد الهاتف

الأبيض. رفعت سمّاعته فجاءني صوت رنين. نظرت إلى الساقي الذي وقف خلف البار يلمّع صفحته بفوطة صفراء، فقال لي: "بوسعك استخدام الهاتف، سيدتي". ثم أضاف "شرط أن تكون المخابرة داخلية". استغربت كلماته، فقلت له وأنا أشير إلى السماعة في يدي: "ليس في نيتي أن أطلب أحداً! فأنا المطلوبة على الهاتف". ارتسمت ابتسامة خبيثة على شفتيه سعى إلى إخفائها بسرعة. أدركت عندئذ حماقة تصرفي، فسألته على الفور: "أين الهاتف الثاني؟ الهاتف الذي طُلبت عليه؟...". فأجاب بتهذيب متصنّع حرّك في نفسي رغبة في صفعه: "سيدتي، لا يوجد في هذا المقهى سوى هاتف واحد برسم الزبائن، وأنت تشغلينه الآن... بلا سبب!". فأجبته بصوت ارتفع أكثر مما ينبغي: "بل هنالك سبب وجيه. فقد أبلغني النادل بأني مطلوبة على الهاتف!". قال "ربما" واستدار نحو زبون اتكأ على البار يستفسر عن طلبه.

شعرت بدوري برغبة في الاتكاء على خشب البار. أعدت سماعة الهاتف إلى مكانها ومكثت لهنيهة أتأمل قوارير الكحول التي نكِّست رؤوسها فتدلّت، وكأنها مشنوقة، إلى الأسفل. ثم استدرت نحو قاعة المقهى أبحث عن النادل الذي وضعني مزاحه السمج في هذا الموقف المحرج. كان ذا شنب أسود كثيف: هذا ما أتذكره تماماً. فعندما انحنى باتجاهي ليتناول فنجان القهوة من أمامي لم أر من وجهه سوى ذلك الشنب. سأعثر عليه إذن، وبسهولة. النادلُ الذي يمر الآن بين الموائد الصغيرة، حاملاً صينية عمرت بكؤوس البيرة، حليق الوجه تماماً. وذاك الذي يحاسب العجوز عند مدخل المقهى له شنب ولكن له لحية أيضاً.

والثالث الذي خرج لتوه من الباب المفضي إلى المطبخ بدين وأشقر، وبلا شنب في مطلق الأحوال.

أين تبخّر اللعين؟ نصب لي فخّه وهرب. "السيدة هند كامل أنت مطلوبة على الهاتف"... نطق بهذه الكلمات بلا مبالاة مطلقة، بحياد رسول مهمته التبليغ! ومن أين له أن يعرف اسمي؟ أجل، كيف عرف أنني أدعى هند كامل مع أني لست من رواد المقهى المواظبين؟ لا بد أن أعثر عليه لأقف على خفايا هذه القصة، بل هذا المقلب.

دنوت من الساقي صاحب الفوطة الصفراء وكان منهمكاً في صب كأس من النبيذ. سألته: "أين النادل الرابع؟" رفع رأسه ونظر إليّ مستغرباً. فقلت له: "هنالك نادل رابع. أنا متأكدة من ذلك، فهو الذي أبلغني بأني مطلوبة على الهاتف". وضع زجاجة النبيذ على البار وقال بتأفف وهو يمسح بفوطته بضع قطرات من الخمر سكبها سهواً خارج الكأس: "ليس لدينا نادل رابع... ولا هاتف ثان!..." أمسك عن الكلام لحظة ثم أضاف، لكن بصوت غانج هذه المرة وهو يرمقني بنظرة ماكرة: "إن كنت راغبة في الترفيه عن نفسك ساعة من الزمن، أستطيع أن أحرر نفسي للحال. ما رأيك؟". أدرت له ظهري على الفور خوفاً من أن تنطلق يدي وتقذف كأس النبيذ في وجهه. كان بودي أن أبتعد بسرعة عن البار، غير أن ساقيّ المرتجفتين لم تسعفاني. سرت بضع خطوات مع ذلك أبحث عن مكان خالٍ. رأيت امرأة شقراء ترتدي كنزة صوفية حمراء تنظر إليّ وهي تبتسم بحرارة. تعلقت بابتسامتها وعزمت أن أتقدم صوبها. غير أن سيدة دنت منها، صافحتها، وجلست

إلى مائدتها. تعرجت بصعوبة بين الممرات الضيقة التي ترسمها نزوات الجالسين لأبلغ طاولة شاغرة في صدر المقهى. حشرت نفسي فوق كرسي وأخرجت بسرعة علبة لفائفي. أشعلت واحدة وأخذت منها نفساً عميقاً. كانت أصابعي ترتجف فأسندت السيجارة إلى المنفضة ووضعت يدي في جيب معطفي. كان الجو خانقاً داخل المقهى فرأيت أن أخلع المعطف. حاولت التحرر منه وأنا جالسة لكن ضيق المكان حال دون ذلك. لاسيما وأن صحيفة كبيرة، فرشتها طولاً وعرضاً امرأة احتلت الطاولة المجاورة، كانت تعتدي على مجالي. غريب أمر بعض الناس. يقصدون المقهى لا ليلتقوا سواهم من البشر بل لينطووا على أنفسهم ويطالعوا صحيفتهم! تململتُ في جلستي، ثم نهضت وخلعت المعطف. وفيما أنا أستدير لأسنده إلى ظهر مقعدي سمعت حفيف ورق. حسناً، لقد قررت السيدة أخيراً أن تطوي صحيفتها الغالية. فإذا بها تبادرني قائلة "هل سنمكث هكذا، كل واحدة على طاولة؟". لم أجب، بل تناولت اللفافة التي كان نصفها قد تحول إلى رماد. كانت أصابعي لا تزال ترتجف. أردفتْ تقول: "لماذا أنت مضطربة إلى هذا الحد؟". أطفأت السيجارة وأخفيت يدي تحت الطاولة. لكن الرغبة في التدخين كانت لا تزال تلحّ علي، فأشعلت سيجارة جديدة. قالت بلهجة لمست فيها تأنيباً: "هذا الإفراط في التدخين غير مبرر". كانت تقصد استفزازي بهذه الملاحظات، وكان حرياً بي أن أتجاهل وجودها وألاّ أعيرها أي اهتمام. مع ذلك استدرت نحوها وقلت بصوت وددته ألا يكون متهدجاً: "وهل تعلمين ماذا حصل لي؟ لئن رأيتني مضطربة،

فلسبب محدد. جئت إلى هذا المقهى مصادفة فإذا بنادل لا أعرفه ولا يعرفني يخاطبني باسمي ويعْلمني بأن ثمة من يطلبني على الهاتف. أنهض عن مقعدي على رصيف المقهى، وأدلف إلى داخله باحثة عن الهاتف، فألقى سمّاعته مطبقة. أسأل الساقي إن كان في المقهى هاتف آخر، فإذا به..." قاطعتني قائلة: "أنت تعلمين جيداً أني لست من هواة الجلوس في الهواء الطلق، خاصة في أيام الشتاء. فلماذا اخترت طاولة في الخارج، على الرصيف؟". قلت لها: "لكن الشمس تسطع اليوم... ثم ما شأني أنا بربوك أنت؟ إن كنت تخشين البرد فما عليك إلا المكوث في الأماكن الدافئة. أما أنا فأجلس حيث أشاء. على كل حال سأغادر هذا المقهى الذي لم يخبئ لي اليوم سوى الإزعاجات". وفيما كنت أهم بالنهوض أردفتُ أقول: "ثقي بأني سوف أعثر على ذلك النادل النذل، وسوف أحاسبه على تصرفه الوقح. فهنالك إهانات آبى التغاضي عنها". راحت تبتسم وتهزّ رأسها كمن لا يصدق قصة تروى له. أغاظتني حركتها وبحثت عن عبارة جارحة أرميها بها، غير أنها سبقتني إلى القول: "لدي أعمال تنتظرني. فكفى لفاً ودوراناً..." ثم أردفت، وقد سبقتني أيضاً إلى العثور على عبارة جارحة: "تريننى آسفة عما سأقوله. لكن، بصراحة، قصة النادل هذه لا تليق بخيالك الخصب. فمن عادتك إخراج الأمور على نحو أكثر إثارة... أكثر تشويقاً... يبدو أنك، فعلاً، متعبة". قررت تجاهلها ورحت أحملق بصاحبة الكنزة الحمراء. راودتني الرغبة في الذهاب إليها، في طرد الصديقة التي تجالسها واحتلال مكانها. ومع أني كنت مقتنعة بعجزي

عن تنفيذ هذه الرغبة ألفيت نفسي أقول: "ما رأيك لو..." لم أكمل عبارتي، ولم تسع هي إلى معرفة ما كنت سأقوله. فقد راحت تطوي صحيفتها وتدسها في حقيبتها الجلدية السوداء. ثم أخرجت بعض النقود من جيب سترتها ووضعتها على الطاولة. كانت تتهيأ للانصراف وتتقصد أن تفهمني ذلك. لم أبال بتصرفها، بل اغتنمت فرصة مرور النادل البدين الأشقر بمحاذاتي لأطلب منه فنجاناً ثانياً من القهوة. عندئذ قالت: "حسناً. لماذا دعوتني إلى هذا اللقاء؟" فأجبتها على الفور "أنا ما دعوتك إلى أي لقاء... لقد دخلت المقهى مصادفة". تناولت حقيبتها الجلدية، نقّبت فيها بعينيها ويديها، ثم أخرجت ورقة زرقاء مطوية. فتحتها ووضعتها أمامي على الطاولة ثم قالت: "لعل هذه الرسالة من صنع خيالي أنا!". لم يكن أمامي مناص من التعرف إلى خطي في الكلمات التي ارتسمت على الصفحة. مع ذلك وجدتني أقول: "ما علاقتي بهذه الرسالة! الخط قريب من خطي، لكن كثيراً ما تتشابه الخطوط!" قبضت حينئذٍ على الرسالة بكلتا يديها، وبسطتها أمام عيني بعصبية وقالت بلهجة آمرة: "اقرأي ما جاء فيها، فعساك تتعرفين إلى أسلوبك ما دمت ترفضين التعرّف إلى خطّك!" وعلى مضض قرأت بعض السطور : "أود أن أكون بقعة برتقالية في لوحة لغوغان؛ أود أن أكون عود عشب أخضر في سهل العاصي؛ أود أن أكون نبرة في صوت بربارا هندريكس".

انتابني إحساس بالضيق وأنا أقرأ هذه الكلمات، ضيق انقلب حقداً وغضباً على هذه المرأة التي أرغمتني على مطالعتها. فقلت لها

بلهجة متحدية: "ماذا تريدين أن تثبتي بذلك؟ أفلا يحق لي أن أحلم؟ ما دخلك بخصوصياتي؟ من دعاك؟ هل كتبت أقول: "أود أن أكون سيدة صارمة تطالع يومياً صحيفتها وكأنها تؤدي طقساً من الطقوس، حتى تفرضي وجودك عليّ؟". لم تبال بغضبي بل اكتفت بالقول: "تابعي" وأفهمتني بحركة من يدها بأن علي استئناف قراءة الرسالة. لم يكن أمامي من مفر، فعدت إلى الورقة الزرقاء لأقرأ: "اشعر بأني مصفاة بائسة. أجمع وأغبّ بشوق ونهم لأرى ما ادّخرته يتسرب من ثقوبها الصغيرة في هدر مستمر. كيف أصبح سيلاً متدفقاً، عطاء زاخماً، وكياني في تبعثر وتشتت دائمين؟ حياتي تنساب من بين أصابعي، فأرجوك ساعديني كي أعيد القبض عليها. أنا أدور في دوامة لا أرى لها من مخرج. حركتي بلا جدوى وعَدْوي بلا هدف. لمَ لا تمسكين بيدي من جديد؟ حاولت أن أفلت منك، أن أراهن على ضياعي. عرفت التيه، جرّبت مذاقه، تجرعته حتى الثمالة، لكن لم أجْن منه شيئاً. إلاّ أن العودة إليك صعبة إن بقيت أنت على تزمّتك، وتشددك، وتعلقك المفرط بقوانين منطقك. ألا يسعنا أن نلتقي ولو للحظات عابرة؟ حاولي أن تكوني يوم الاثنين القادم في مقهى "الواحة" حوالي الساعة الرابعة".

أسقط في يدي وأنا أطالع الكلمات الأخيرة. مع ذلك حاولت أن أتملص من البداهة، فقلت: "هذه الرسالة غير موقّعة... إنها لا تحمل توقيعي... أنا لم أوقعها..." فهزّت كتفيها وأجابت: "وهل من حاجة للتوقيع بيننا؟" فصرخت في وجهها وقد جعلتني برودة أعصابها أخرج

تماماً عن طوري: "ولمَ استنجد بك؟ هل أنت خشبة الغريق؟" فأجابت بهدوء قاتل: "ذلك هو الدور الذي اخترته لي أنت". فقلت لها، مدفوعة برغبة في إيلامها: "أتدرين لماذا لا تغرق الخشبة؟ لأنها خشبة... شجرة ميتة... بل جيفة شجرة...". ارتجفت شفتاها فشعرت بارتياح عميق. وسادت بيننا لحظات من صمت لم أسع إلى قطعه. فللمرة الأولى منذ دخولي إلى هذا المقهى أحسست بطمأنينة، بقدر من الثقة في ذاتي.

أحضر النادل القهوة. رشفت منها قليلاً ثم ولّعت سيجارة. لم تعلّق على إفراطي في التدخين، بل مدّت يدها إلى علبة لفائفي، أخرجت واحدة وولّعتها بدورها. قالت بعد ذلك، وقد تبدلت لهجة صوتها: "حتى أحلامك قد تغيرت. ففيما مضى كنت تودين لو تكونين شعرة بيضاء استراحت راضية فوق رأس مناضلة نذرت حياتها للكفاح مثل الباسيونارا...". لم أعلّق على ملاحظتها. فأردفت تقول وهي تبتسم بارتباك: "أنت توافقينني على أن شعرة في رأس الباسيونارا خير من عود عشب في سهل فسيح". ثم أضافت، وهي تحاول أن تقبض على يدي: "لماذا تخليت عن حلم أستطيع أن أشاركك فيه؟". دفعت يدها بقسوة وقلت بحدة فاجأتني: "دعي أحلام الشَعْر الأبيض لك". توقعت أن ترميني بواحدة من عباراتها اللاذعة غير أنها اكتفت بأن قالت: "أما عاد يسعنا أن نلتقي مرة واحدة بدون أن نتشاجر؟ بدون أن نتبادل الضربات المؤلمة؟". فأجبتها على الفور: "أنت التي تبدئين دوماً بفتح النار... ثم، لماذا لا تبادرين أنت إلى ضرب موعد لي؟ هل حتّم علي أن أكون دوماً الساعية وراء اللقاء؟". قالت بصوت منفعل: "وهل ينبغي أن

أذكرك بأنك أنت التي سعت وراء الفراق؛ ادّعيت بأنك قد ضقت ذرعاً بعقلي المبرمج، وسئمت حتى الموت من منطقي الخانق؛ أمسيت لا تتحملين رؤية صحيفة أو كتاب بين يدي؛ اتهمتني بالعقم، بتكرار كلام فارغ، برفع شعارات ممجوجة، باللهاث خلف الأحداث الخارجية. زعمت أن شغلي الشاغل قتل الحلم ثم تشريحه على أوراقي المسطّرة، وأن هوايتي المفضلة لجم الجموح ومنع كل خروج عن القطيع. أصررتِ على اعتباري تجسيداً للاكراهات قاطبة. وسخرتِ مني، وادعيت أن سعيي الدائب إلى تغذية خلاياي الرمادية قد حولني إلى كائن رمادي. وطعنتني في كرامتي وزعمت أن المرأة الناضجة والمتحررة، التي أنا هي، لم تفلح إلا في دفع المرأة الحالمة والصاخبة، التي هي أنت، إلى الاستماتة من أجل التحررر منها... لقد أردت أنت الانفصال وحققته. مع ذلك كله تضربين لي المواعيد في "الواحة"... هنا قاطعتها قائلة: "ليس ثمة ما يلزمك بالمجيء!" ونظرت إليها أترقب جوابها. فهزّت رأسها وقالت: "أجل، لست ملزمة. ومع ذلك حرصت على أن أكون دوماً على الموعد. لماذا؟ هذا ما أعجز عن تفسيره". فأجبتها بسخرية: "ربما لأنك فطرت على ذلك!".

وهممت بالنهوض. استغربت حركتي فسألت: "لكن، إلى أين أنت ماضية؟ لم نتحدث بعد في صلب الموضوع!". قلت "وما صلب الموضوع؟". فأجابت: "ما أوضحته في رسالتك... أعني الرغبة التي أفصحت عنها..." فقلت: "أي رغبة؟". لمست في نظرتها انكساراً، فشعرت، للمرة الأولى منذ بداية جلستنا، بقدر من العطف تجاهها.

سألتها، وفي نيتي التخفيف من ثقل الجو الذي ساد بيننا: "ما أهم أخبار اليوم؟". بدت وكأنها لم تفهم معنى سؤالي، فأردفت أقول: "كنت تطالعين صحيفتك قبل لحظات. فعمَّ كانت تتحدث؟". ابتسمت وقالت: "كانت أفكاري مشتتة في الواقع... ما عدت أذكر ماذا قرأت على وجه التحديد". ثم مدّت يدها إلى علبة لفائفي وأخذت واحدة منها. قلت لها وأنا أولع لها اللفافة: "حذارِ من الإفراط في التدخين!". وانفجرت ضحكة واحدة في صدرينا. قالت وقد قرّبت رأسها من رأسي: "قبل مجيئك حاولت استذكار جميع لوحات غوغان التي تسنى لنا تأملها. غير أني لم أعثر فيها على تلك البقعة البرتقالية التي تتحدثين عنها... ففي تلك اللوحات مساحات حمر، وأخرى أقرب إلى اللون الأصهب، أما البرتقالي الصرف فلم أقع له على أثر. هل أنت واثقة من وجوده؟". رحت أضحك بمفردي هذه المرّة. ثم لمست يدها فوق الطاولة وقلت لها بلهجة ودية: "حالتك ميئوس منها. لن تتبدلي ولن تتغيري!". أمسكت هي بيدي وشدّت عليها. حاولت أن أسحبها فقالت: "امكثي، لا ترحلي". غير أني نهضت، وتناولت حقيبة يدي وتقدمت في اتجاه المخرج. فتح لي نادل الباب الزجاجي، فناولته قطعة نقود دون أن أنظر إلى وجهه. مررت بين الطاولات التي افترشت الرصيف وأنا أشد قامتي وشعرت بنظرات إعجاب تواكب تحركي. وعلى ناصية الرصيف وقفت أتأمل حصاناً رفع على قاعدة عمودية واعتلاه جنرال باللباس العسكري. حصان حجّر تخليداً لذكرى قائد اشتهر بذكائه ونفاذ بصيرته. كانت الشمس تسطع وتلف بأشعتها الساحة الفسيحة التي توسطها النصب.

وفجأة رأيت الحصان يقفز من فوق العمود ويعدو وسط الساحة. دار عدة دورات وهو يطلق صهيلاً قوياً ويهزّ الأرض بوقع حوافره. حصان ناصع البياض، شامخ الرأس، مشيق الجسم، عصبي العضلات. وفيما كنت أتأمل عدوه منبهرة ألفيته يخفف من سرعته بالتدريج ثم ينتصب من جديد فوق قاعدته ليلتحم بالقائد ثانية. ومن غير أن ألتفت صوب المقهى رفعت يدي أحييها، واثقة من أنها تتابعني بنظراتها.

الانتحال
أو إفادة سلوى صائغ

نظراً إلى فداحة ما حصل وإلى خطورة الوضع المستجد وما ينذر به من تطورات، أرى من واجبي تجاه الآخرين وبخاصة تجاه نفسي، أن أضع النقاط على الحروف بصدد كل ما يتعلق بتلك المأساة المفجعة. وإن كانت رواية مفصّلة لما وقع يوم الثالث والعشرين من شباط تفرض نفسها بطبيعة الحال، فإنها تبقى في حاجة إلى مقدمة توضح طبيعة العلاقة التي جمعتني بثريا سالم. فإن شاء القدر أن يتلاقى مصيرانا في ذلك اليوم المشؤوم، وفي ظروف رهيبة دفعنا كلتانا ثمنها، فإن علاقتنا، التي تضرب جذورها بعيداً في ماضيينا، لم تنعقد في الثالث والعشرين من شباط.

مهما أوغلت في ذكرياتي لازمني وجه ثريا سالم. فلقد ترددنا على مدرسة ابتدائية واحدة، وتابعنا تحصيلنا الإعدادي في معهد واحد، وارتقينا منه إلى ثانوية واحدة. ولكن لم يجمعنا صف واحد ولو لمرة يتيمة. فقد كانت الشعبة "آ" من نصيبها على الدوام، والشعبة "ب"، للصف عينه، من نصيبي أنا لا محالة. لكأنه حتم علينا أن نتقدم جنباً

إلى جنب، وفق خطين متوازيين، ولكن مستقلين. كنا نتصادف يومياً في باحة المدرسة، قبل الدخول إلى الصف أو بعد الخروج منه. ومع ذلك قلّما كنا نلتقي، وإذا اتفق أن اجتمعنا فإنما ضمن حلقة واسعة من الزميلات. فالانفراد بثريا كان أمراً شبه مستحيل. فحيثما حلّت، تحلقت الطالبات من حولها وأحطنها بحاجز يصعب تخطيه. من هنا كان مصدر اغتباطي عندما ضربت لي موعداً في دارها في الثالث والعشرين من شباط. لم تبادر هي إلى دعوتي، بل أنا التي بادرت إلى طلب ذلك الموعد، متذرعة بضرورات العمل. غير أن النتيجة كانت واحدة: كنا سنلتقي!

لقد احترت في تفسير أسباب السحر الذي كانت ثريا سالم تمارسه على الطالبات كافة. لم تكن تتفوق عليّ لا في الجمال ولا في الغنى ولا في الدراسة؛ ولم تكن بطلة من بطلات الرياضة. ومع ذلك كانت هيمنتها محسوسة ملموسة، وقد فرضتها عليّ كما فرضتها على غيري. كانت هي الأولى على الدوام في الشعبة "آ"، وكنت أنا الأولى على الدوام في الشعبة "ب". ومع أني رأيتها بأم عيني، وأكثر من مرة، تراجع في كتاب أو تحفظ عن ظهر قلب قبل الدخول إلى الامتحان، فقد شاع عنها أنها تنجح بفضل ذكائها الخارق، من دون اجتهاد، في حين شاع عني أني أجدّ وأكدّ كيما أظفر بالمرتبة الأولى. كنت على يقين بأن ما أبذله من جهد في الدراسة لا يزيد عما تبذله هي، وأن خلاياي الرمادية تستحق هي الأخرى التقدير، بل الإعجاب؛ وكنت سأحظى بهذا الإعجاب لو لم يتزامن وجودي على مقاعد الدراسة بوجود ثريا سالم. فقد كانت تستقطب الثناء والمديح وتنال منهما لا حصتها فحسب، بل حصتي

المشروعة أيضاً. مع ذلك، لم أبغضها يوماً؛ بل لم أشعر تجاهها قط بغيرة أو حسد. كل ما كنت أرغب فيه هو أن تنظر إليّ نظرتي إليها، أن تعاملني معاملة الند للند؛ وعندما كان يشطح بي الخيال، كنت أحلم بأن تخصني بعلاقة مميزة، فتختارني صديقة حميمة، معزّزة، مميزة. والحال أنها ما اهتمت حتى بحفظ اسمي. فإذا اتفق أن وجهت إليّ الكلام، نادتني باسم سلمى، فأبادر حالاً إلى تصحيح خطئها، وأذكّرها بأني ما زلت ادعى سلوى، سلوى صائغ. كانت تبتسم، تعتذر، ثم تنشغل عني بمخاطبة سواي. وتلك كانت حدود "حوارنا". ولم أفلح قط في اختراق هذه الحدود، وكم بالأحرى في تحطيمها. بيد أني مكثت أصبو إلى ذلك، حتى بعد أن فرّقت بيننا الظروف ورحلت هي عن مدينتنا، قاصدة العاصمة.

أقرّ بأني لم أسع إلى تقصي أخبارها في السنوات الأولى لفراقنا؛ فقد استقطبتني اهتمامات أخرى مع التحاقي بمعهد الصحافة، وعرفت الانسجام والامتلاء مع دخولي حقل العمل. خضتُ تجربة الكتابة الصحفية باندفاع وحماسة ووظفت كامل كياني فيها. وغدت مهنتي هي شاغلي الأوحد، فمارستها بقناعة المؤمن، المتحصن ضد الشكوك في سعيه وراء ما يعتبره هدفه الأسمى. إلى أن أصدرت ثريا سالم روايتها الأولى. فقد كان لهذا الحدث وقع أليم في نفسي؛ أكثر من ذلك، لقد كان بداية النهاية بالنسبة إلى مطامحي الصحفية وإيماني بعملي الصحفي. أعترف بذلك الآن؛ أسلّم بهذه الحقيقة بعد طول لف ودوران. ولكن لماذا؟ هذا ما يتعذر عليّ الإجابة عنه. لا حرصاً على كرامة

مجروحة أو دفاعاً عما تبقى لي من كبرياء؛ بل لأني لا أملك جواباً عن هذا السؤال. قد يبدو من السذاجة بمكان أن أربط بين صدور رواية لزميلة في الدراسة وبين همود حماستي لمهنة استحوذت عليّ طيلة سنوات. ولكن هذا الذي حصل. فما إن طالعت في إحدى الصحف نبأ صدور رواية جديدة هي باكورة أعمال كاتبة شابة تدعى ثريا سالم، حتى سيطر عليّ شعور بالإحباط. وعندما قرأت هذه الرواية، أقصد طبعاً "مجرى السيل"، أصبت ببلبلة لا حدود لها. فقد تفاعلت مع كل سطر فيها وبدا لي وكأني أنا كاتبتها. وراودتني مراراً رغبة طاغية في أن أصارح ثريا سالم بما يختلج في نفسي من مشاعر، في أن أوضح لها إلى أي حد نحن متشابهتان، في أن أكاشفها أخيراً بما لها في نفسي من مكانة مميزة جاءت هذه الرواية تزيح لي النقاب عن أسبابها. بيد أني لم أفعل. فكلما أمسكت بقلمي وفي نيتي تحرير رسالة إليها شعرت بقيود خفية تكبِّل يدي وتمنعها من أن تشي بما يختلج به صدري. وكنت أبادر إلى السخرية من محاولتي وأركز على عبثيتها ولا جدواها لأبرر عجزي عن تحقيق رغبة تلازمني وتطاردني. سلوك اختبرته عندما كنا لا نزال على مقاعد الدراسة. فلطالما وعدت نفسي بمد جسور حوار مباشر وصريح مع ثريا سالم، بيد أني لم أتجرأ يوماً على الخروج من قوقعتي.

وأصدرت ثريا سالم رواية ثانية وثالثة ورابعة... ومع صدور كل رواية جديدة لها كان جرحي القديم ينتكئ وينزّ. كيف لا وهذه الأعمال تأتي تباعاً لتذكي ذلك الشعور الموجع، ذلك الإحساس المؤلم، بأني لا أزال أعيش على عتبة ذاتي؟ فبطلات ثريا كنّ لسان حالي. لا أسوق هذا

الكلام جزافاً، بل عن قناعة راسخة ومبررة. والعوالم التي خلقتها ثريا، سبق لخيالي أن شيّدها، وحلّق فيها ودعاني إلى الإقامة في أجوائها. ولكن يبقى أنها قد انفردت هي بكتابة هذه الروايات التي تتغذى من نسغ تجربتنا المشتركة ومناخنا العاطفي الواحد. لقد احتكرتها لنفسها وسلبتني من حقوقي فيها. أكثر من ذلك، لقد جرّدتني هذه الزميلة حتى من متعة الكتابة في حقلي الخاص، الحقل الصحفي. أفلم تصف الكتابة الصحفية، في مقابلة أجريت معها، بأنها كتابة بديلة؟ أفلم تقل بأنها تفضل من يخلق الحدث على من يعلّق عليه؟ أفلم تذهب إلى حد اتهام الصحفيين بامتطاء تجارب الآخرين وبالتطفل على أصحاب الفعل والقول معاً؟ لقد أثارت هذه العبارات غضبي عندما طالعتها؛ وقد حاكمتها بانفعال وحدة، وسقت بيني وبين نفسي أبرع الحجج في دحض ما تضمنته من آراء مغلوطة. بيد أني لم أفلح في محو الآثار التي خلّفتها في نفسي، لكأن للنفس قوانين لا يتحكم بها العقل والمنطق. وهكذا وجدت نفسي أنقاد بالتدريج إلى التحلل حتى من الاحترام الذي كنت أكنّه لمهنتي. لم أعد أعرف للحماسة طعماً ولا للكتابة مذاقاً. ولئن واظبت مع ذلك على عملي فبحكم قوة العادة، بحكم الخبرة التي اكتسبتها والتي كانت تمكنني من أن أحرر، عند الطلب، عدداً محدداً من الصفحات حول موضوع محدد. لم أعد أهتم بما أكتب، لم أعد أتعرّف على كتابتي أو أعترف بها. فما تخطّه يدي فإنما هو برسم العمل وحده. أما كتابتي الحقّة، الأصيلة، المشروعة، فكانت تلك التي تخطها يد ثريا سالم. وكنت لشدة تماهيّ معها أعتبرها خاصتي وإن كانت ملكيتي لها منقوصة، أو

بالأحرى غير معترف بها. غير أني كنت على يقين بأن هذا الاعتراف سيأتي لا محالة يوم ألتقي بثريا سالم، يوم يجمعني وإياها لقاء ثنائي لا يضم أحداً سوانا. فقد كنت على ثقة مطلقة بأني يوم أعرِّفها على نفسي ستتعرف حتماً على نفسها فيّ. فنحن متشابهتان إلى حد التماثل. هذا ما أعلمه أنا وتجهله هي. وهذا الجهل أتحمل أنا مسؤوليته. فأنا التي امتنعت دوماً عن كشف أوراقي في حين تجرأت هي على ذلك. لقد اختارت هي أن تتحدث بصدق عن تجربتها مع الحياة، عن تجربتنا المشتركة بالأحرى، في حين تعمدت أنا ألا أكتب إلا عن الآخرين. ولكن، لئن ميز بيننا هذا الفارق فإنه يبقى على كل حال ثانوياً. أما الجوهر فواحد.

وجاء اليوم المنتظر. فقد عادت ثريا سالم لتستقر في مدينتنا. وما إن علمتُ بنبأ عودتها حتى بادرت رئيس التحرير بفكرة إجراء مقابلة صحفية معها. لاقت فكرتي الترحاب. والحق أنها كانت فكرة رائعة، ولاسيما بالنسبة إلي. فقد تسنت لي أخيراً ذريعة لمقابلة زميلة الأمس التي غدت كاتبة شهيرة. مقابلتها على انفراد ومن موقع قوة. فأنا التي ستطرح الأسئلة وهي التي ستجيب. وسوف تكون أسئلتي ذكية ونافذة بحيث تكشف لها عن معرفتي الوثيقة، بل الصميمية بها...

عندما عرّفتها على نفسي وأنا أكلمها على الهاتف بدت وكأن اسمي لا يعني لها شيئاً. ذكّرتها بعهد الدراسة فضحكت، ثم اعتذرت، ثم أبدت استعدادها لاستقبالي متى شئت. قلت "غداً". فترددت. استمهلتني بعض الوقت، ريثما تلقي نظرة على دفتر مواعيدها. قالت

بعد ذلك: "هل يناسبك يوم الثلاثاء فأجبتها على الفور: "حسناً، بعد غد إذن". لكنها استدركت قائلة: "لا، أقصد يوم الثلاثاء من الأسبوع المقبل. في الثالث والعشرين من الشهر". قلت: "فليكن". فأردفت تقول: "لنقل في الثالثة بعد الظهر... بالمناسبة إني أقطن في شارع الروضة وشقتي تقع في الدور الثالث من البناء رقم ١٩".

في تمام الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الثالث والعشرين من شباط كنت ألج إلى مصعد كهربائي وأضغط على الزر رقم ٣. ولدى خروجي من مقصورة المصعد لم ألق أمامي سوى باب خشبي واحد. دنوت منه وقرعت الجرس. مضت ثوان من دون أن يفتح لي الباب. عاودت الكرّة، فلم ألقَ جواباً. قرّبت وجهي من الجرس الكهربائي أتفحص المستطيل الأبيض الصغير الذي اعتلاه. وجدته بكراً فابتسمت: فمن عادة المشاهير ألا يضعوا أسماءهم على أبوابهم خوفاً من حشرية الفضوليين. ضغطت على الزر للمرة الثالثة ووقفت أنتظر بفارغ الصبر ظهور ثريا سالم. ومضت لحظات والباب أمامي أصمّ، ينتصب كالحاجز المنيع بيني وبين الرؤية العزيزة، المرتقبة. استدرت على نفسي وقطعت مرتين أو ثلاثاً الممر الضيق الفاصل بين مدخل الشقة وقفص المصعد ذهاباً وإياباً. ثم عدت إلى الباب وضغطت على زر الجرس للمرة الرابعة. وتراءى لي وكأني سمعت صوتاً أصم من وراء الباب الذي بقي، مع ذلك، مغلقاً. قلت في نفسي: ربما كانت نائمة واستيقظت على رنين الجرس. فلأمهلها كيما ترتدي ثيابها. ومكثت واقفة بلا حراك. وطال انتظاري. ولّعت سيجارة ورحت أدخن. عزمت على الرحيل حالما تنتهي السيجارة من الاحتراق.

بيد أني رميتها أرضاً قبل أن تنتصف. طلبت المصعد؛ تأخر عن الوصول، فاخترت النزول على السلم مدفوعة برغبة في الابتعاد عن ذلك الباب الذي أصرّ على البقاء موصداً في وجهي.

لن أسعى إلى وصف خيبة أملي. ولست أدري أصلاً إن كانت كلمة "خيبة" تفي بوصف الشعور الذي تملكني وأنا أبتعد عن شقة ثريا سالم. إن كلمة فراغ قد تكون أنسب. أجل أحسست، وأنا أخلّف شقتها ورائي، بأن رأسي قد أضحت خاوية، وقلبي فارغاً، ومشاعري جوفاء. لم أكن ثائرة، أو غاضبة، أو ناقمة، أو حاقدة. بل كنت في حالة ثانية إن جاز التعبير. حالة سبق لي وأن عشتها مرة واحدة، لحظة استيقاظي من التخدير بعد عملية إجهاض. والحال أن ثريا سالم كانت بالنسبة إلي، وبمعنى من المعاني، جنيناً حملته على مدى أعوام...

لم أشعر بلسعة الصفعة التي وجّهت إليّ إلا عندما عدت إلى داري، إلى مكتبي وملفاتي وأوراقي. عند ذلك فقط تنبهت إلى أني قد أهنت، وعلى نحو لا يقبل أي ظروف تخفيفية. فإن تكن ثريا سالم قد نسيت موعدنا وخرجت من بيتها فقد أهانتني؛ وإن تكن قد استسلمت للنوم في انتظار قدومي فقد أهانتني؛ وإن تكن قد تقصدت ألا تفتح لي الباب فقد تمادت في إهانتي... وراودتني رغبة في أن أتصل بها هاتفياً لأصب عليها جام غضبي، أو لأستفسر على الأقل، وإنما بحزم وجفاء وجفوة، عن أسباب عدم تواجدها في دارها في الموعد المحدد. فأنا صحافية في نهاية المطاف؛ وبغض النظر عن الأسباب الذاتية التي دفعتني إلى الذهاب إليها، فثمة اعتبارات موضوعية كانت تقتضي منها أن تستقبلني. ولو سلمنا، افتراضاً، بأنها قد اضطرت إلى التغيب

عن دارها لأسباب قاهرة، فقد كان الأولى بها أن تعلمني بذلك مسبقاً، أو أن تتصل بي لاحقاً للاعتذار. وأمسكت بسمّاعة الهاتف وأدرت القرص، لكن عدت فأغلقت الخط وابتعدت عن الجهاز... فما الفائدة من العتاب؟ وهل أهنت في كرامتي فحسب كي أقبل بعبارات اعتذار جاهزة وملفقة؟ فحتى لو تلقيت في اللحظة بالذات اتصالاً هاتفياً من ثريا سالم، حتى لو سمعتها تعتذر عن تغيبها وتعرب عن أسفها بصدق وعفوية، لما تبدل في الأمر شيءٌ. فهل كان لي أن أتخلى لسبب من الأسباب عن الموعد، فيما لو كنت أنا التي ضربته لها؟... وإن لم تكن متلهفة للقائي تلهفي للقائها، فأي معنى يبقى لذلك اللقاء المرتقب؟

لم أتلق منها اتصالاً في اليوم التالي ولم أسع بدوري إلى الاتصال بها. لكن في صبيحة الخامس والعشرين من شباط، وفيما كنت أهم بالدخول إلى مكتبي في الجريدة، سمعت رئيس التحرير يناديني. ذهبت إليه في مكتبه، مستغربة تصرفه، إذ لم يكن من عادته أن يرفع صوته ليطلب محرراً، بل كان يكتفي بأن يدعوه على الهاتف لكي يتفضل بمقابلته. وقد بادرني رئيس التحرير على الفور قائلاً: "آمل أن يكون موضوعك عن ثريا سالم قد أصبح جاهزاً للطبع!". ولم يدع لي فرصة لأن أتفوه بكلمة، إذ أردف يقول: "سنحقق ضرباً صحفياً مع هذه المقابلة. ليكن العنوان مثيراً... حوار مع راحلة مثلا"... أو ثريا سالم تشيّع نفسها...". قاطعته هنا سائلة بحدة: "ولكن، ما معنى هذا؟ لماذا تشيّع ثريا سالم نفسها؟ لماذا تنعتها بالراحلة؟... لست أفهم مقصدك!". هز رأسه وقال: "يبدو أنك لم تسمعي بالنبأ بعد...". ثم أخذ جريدة كانت على مكتبه وأضاف وهو يناولني إياها: "طالعي الخبر على الصفحة

الأولى". أردف بعد هنيهة وهو يبتسم لي برضى: "كانت فكرة هذه المقابلة صائبة وموفّقة؛ أجري الترتيبات اللازمة كيما تصدر في عدد الغد مع عدد من الصور لأديبتنا الراحلة... لقد وافاك الحظ، أليس كذلك؟". لم أعلق على كلامه. ففي الجزء السفلي من الصفحة الأولى من الجريدة التي غدت في يدي كانت ثريا سالم تبتسم بسخرية لثلاث كلمات خطت بمحاذاة وجهها الجميل: وفاة أديبتنا الفذّة.

وجدت نفسي في مكتبي أطالع تفاصيل خبر وفاة ثريا سالم. علمت أنها قضت بنوبة قلبية، وأن الوفاة حصلت يوم الثالث والعشرين من شباط بين الثالثة والرابعة من بعد الظهر. وعلمت كذلك أنها بقيت ملقاة على الأرض حتى عشية اليوم التالي، وأن شقيقها، الذي كان على موعد معها على العشاء، هو الذي عثر على جثتها هامدة في صالون شقتها. وعلمت أيضاً أن ثريا سالم كانت تستعد لاستقبال ضيف، أو ضيفة بالأحرى، ساعة وافتها المنية، بدليل أنها كانت قد هيأت كأسي عصير وبعض قطع الحلوى في مطبخها، وكذلك بدليل أنها قد خطت في مفكرتها "موعد مع سلمى، يوم الثلاثاء، الثالثة بعد الظهر". ولم أكن بحاجة إلى من يعلمني بأني كنت أقف أمام باب شقتها كالبلهاء عندما كانت هي تحتضر، وبأني لو تمسكت بالصوت الذي سمعته من وراء ذلك الباب وسعيت إلى معرفة مصدره وسببه، بدلاً من أن أتلفع بكبريائي وأنسحب، فلربما بقيت ثريا سالم على قيد الحياة...

رميت الجريدة أرضاً وأخرجت من درج مكتبي رزمة أوراق وأمسكت بقلمي ورحت أكتب مقابلتي مع ثريا سالم. كانت الأسئلة جاهزة في رأسي. وكانت الأجوبة تأتيني دفقاً، بسهولة وطواعية. لم أتعثر في الرد

مرة واحدة. لم أضطر إلى البحث عن فكرة أو عن عبارة أو حتى عن صورة بيانية. كان قلمي مجنحاً، ملهماً، يملأ الصفحات تواليا. تحاورنا في الأدب، في الحب، في الصداقة، في سلطان الخيال، في طغيان الحلم، في سطوة الذكريات. وتحاورنا أيضاً في الموت، فسألتها إن كانت تخشاه فأجابت: "أهابه إن كان يعني النهاية". فقلت لها: "أيمكن ألا يعني النهاية؟" فقالت: "لست أدري، لم أختبره بعد".

رأيت أن أختم المقابلة على هذا الجواب، ولاسيما أن رئيس القسم دخل عليّ لحظتها يسألني إن كان موضوعي قد جهز. أكدت له بأنه قد أنجز بتمامه. عاد يستفسر عن العنوان ويقترح بأن يأتي مناسباً للظرف المستجد. فأجبته، وأنا أخط العنوان على ورقة بيضاء: حسناً! ما رأيك بـ "الغائبة الحاضرة؟" زمّ شفتيه ثم قال: "لا بأس، شرط أن يصار إلى إضافة عنوان ثانٍ". ومضى ومعه المقابلة. وغادرت بدوري المكتب قطعاً للطريق على أسئلة محرجة كنت سأطرحها على نفسي...

في اليوم التالي انهالت عليّ الاتصالات الهاتفية من أصدقاء وزملاء ومعارف. أثنى الجميع على مقابلتي، على الأسئلة الذكية الي طرحتها، على قدرتي على سبر أعماق الكاتبة الراحلة. واتصل بي ناقد معروف معجب بثريا سالم، فحدثني عنها مطولاً، برهافة ولباقة. واستخدم هذا الناقد، الذي لم أكن أعرفه إلا بالاسم، عبارة "لحن البجعة" ليصف الأجوبة التي ردّتْ بها ثريا سالم على أسئلتي؛ فقد أعطت، على حد تعبيره، خير ما عندها قبل أن ترحل. ومن دون سابق تفكير، من دون أن اتنبه إلى خطورة ما أزعم، وجدت نفسي أقول للناقد: "لحن البجعة لم يطلق بعد. فقد تركت ثريا سالم مخطوطة رواية جديدة. والمخطوطة في حوزتي. فقد رغبت

في أن أقرأها وأبدي رأيي فيها قبل أن ترسلها إلى المطبعة". "شيء عظيم!" قال الناقد الذي أضاف: "لقد غدت هذه الرواية وصية في عنقك، فلا تتأخري في إرسالها إلى ناشر ثريا".

هكذا وجدت نفسي ملزمة بتنفيذ وصية وهمية هي من ابتداعي! فقد أذاع الناقد النبأ، وأكدته بدوري... فلأني نجحت في تلفيق مقابلة، فقد توهمت بأني قادرة على إبداع رواية! ولست أدري لماذا تأبيت عن التراجع عندما بان لي عقم محاولتي؛ لماذا تمسكت بهذا المشروع المجنون بعد تأكدي من عجزي عن النهوض به؟ لقد أفلحت في تحرير "رواية"، هذا صحيح. بمعنى أني كتبت قصة طويلة لها بداية وتطورات ونهاية. كما رسمت بعض الشخصيات، وأعطيتها أسماء ومهناً، وأدخلتها في دوامة من الأحداث لا تخلو من التعقيد والإثارة. غير أن هذه الشخصيات، التي كانت تولد في مخيلتي حيّة، غنية، مقنعة، كانت تبهت وتشحب وتهزل عندما يسعى قلمي، جاهداً، إلى تجسيدها. والحبكة التي خلتها ثورة في بناء الرواية تحولت، على محك الكتابة، إلى قصة شبه بوليسية.

لم تكن روايتي منعدمة الصلة مع عوالم ثريا سالم؛ ولن أبالغ إذا قلت إنه قد بدا لي وكأننا كلتانا ننهل من معين واحد. ولكن ثريا سالم كانت روائية وتعرف بالتالي كيف تخرج ذكرياتها، وأحاسيسها، وهواجسها، وكيف تمزج بين عالمها الداخلي وعالمي الموضوعي. أما أنا فقد كنت أجيد كتابة الريبورتاج، وأعجز عن إعطاء الشخصيات والأحداث كثافة وعمقاً ودلالة.

إني أملك من الذوق الأدبي ما يكفي لأميّز بين الرواية الأصيلة وشبه الرواية؛ وأملك من الخبرة مع عالم النقّاد والصحفيين ما يكفي

لأدرك بأن المبدع يخلق من حوله عداوات تتربصُ الفرص لتنهال عليه بسكاكينها الغادرة. وأملك من المنطق ما يكفي لأتوقع الضرر الذي سأسببه لثريا سالم من جراء انتحالي شخصيتها. ومع ذلك دفعت بروايتي إلى المطبعة زاعمة أنها من تأليفها!

لكن بصدق أقول: لم أكن أقصد إلحاق الأذى بمكانتها الأدبية. لم أكن أهدف إلى جعلها لقمة سائغة في أفواه نقّاد تفننوا في السخرية منها وفي النيل من آخر رواياتها. لم أكن أرغب في زرع الخيبة في قلوب قرائها الذين تهافتوا على شراء روايتي. كنت أمنّي نفسي بمعجزة، وأعقد آمالاً مجنونة على تماهٍ مستحيل. فلو لاقت روايتي استقبالاً إيجابياً، لانتزعت أخيراً اعترافاً بأني الشقيقة التوأم لثريا، شقيقتها السيامية التي مكثت تتجاهل وجودها. فذلك كان همي الأوحد. لم أكن أسعى وراء نجاح شخصي، بدليل أن الرواية قد وقّعت باسمها هي. فكل ما كنت أبتغيه هو أن أقطع الدليل لنفسي على أني وثريا سالم إنما نشكل شخصاً واحداً. وقد منيت بفشل ذريع في محاولتي المستميتة هذه. لكن، إن كان عليّ أن أتحمل عواقب هذا الفشل، فأعمد إلى قطع حبل السرة الذي ربطني بالراحلة، وأرضخ لواقع كوني سلوى صائغ فحسب، فإنه ليعزّ علي بالمقابل أن أجعل ثريا سالم تتحمل بدورها ثمن ذلك الفشل. يكفي أنها احتضرت على بضع خطوات مني من دون أن أمدّ لها يد المساعدة. لن أدعها تموت ثانية بسبب رغبتي في الالتحام بها حتى بعد وفاتها. لذلك عزمت على كشف أوراقي كافة وعلى فضح جريمة الانتحال التي اقترفتها. وتحقيقاً لهذا الغرض حرّرت هذه الإفادة.

الغرفة المقابلة

قال الرجل بلهجة آلية: "الغرفة تقع في الدور الثالث، أول ممر إلى اليمين، ثاني باب إلى اليسار". ولما طلبتُ منه المفتاح أجاب وهو يحرِّك قلمه فوق رقعة كلمات متقاطعة: "لا داعي لمفتاح، فالغرفة غير مقفلة".

صعدت بتمهل الطوابق الثلاثة، خشية من إحداث قرقعة قوية على السلم الخشبي. فالساعة كانت لا تزال مبكرة، وبعض السكان مستغرقون في نومهم على الأرجح. بلغتُ الطابق الثالث وأخذت أول ممر إلى اليمين؛ ومع أن كلمات الرجل "ثاني باب إلى اليسار" كانت لا تزال ترن في أذنيّ، فقد توقفت أمام ثاني باب إلى اليمين. فتلك هي عادتي!... نقرت على الباب بأصابعي ثم طرقته بقوة. ولمّا لم يأتني حس حركت قبضته فانفتح كاشفاً لي عن غرفة عارية، خالية تماماً من كل أثاث. غرفة فسيحة، وذات شرفة تطل، كما تبين لي وأنا أخرج إليها، على ساحة زرعت أشجاراً ومراجيح أطفال. عدت أدراجي إلى الطابق الأرضي، إلى الرجل الغارق في كلماته المتقاطعة. وقبل أن أبادره بالكلام سألني، ونظراته لا تزال عالقة بالمربعات الصغيرة: "هل أعجبتك الغرفة؟" فأجبته: "طبعاً. أعجبتني الغرفة التي لم ترشدني

إليها". رفع رأسه ونظر إليّ. أردفت موضحة: "أقصد الغرفة المواجهة لتلك التي حددتها لي. الغرفة المطلة على الحديقة". قال الرجل بدهشة واضحة: "ولكن عن أي غرفة تتكلمين؟ ففي البناء كله لا توجد سوى غرفة شاغرة واحدة. غرفة ضيقة، هذا صحيح، لا يدخلها النور إلا من كوة صغيرة. وهي كائنة في الطابق الثالث على يسار...". قاطعته قائلة: "أعلم أين تقع الغرفة التي تتكلم عنها. وأعلم كذلك أنها ضيقة، شبه مظلمة، لا تطل إلا على منور. فقد زودني مكتب التأجير والاستئجار بهذه المعلومات. ولكن هنالك، في قبالتها، غرفة أخرى، واسعة ومشرقة، فلماذا تحجبونها عني؟ ألا يحق لي أن أستأجرها؟". بدا الرجل وكأنه لا يفهم ما أقول. فعدت أشرح له: "إني أرغب في استئجار الغرفة المقابلة. الغرفة الثانية إلى اليمين لا إلى اليسار". قال بنزق وقد ضاق على ما يبدو ذرعاً بشروحي: "كيف تستأجرينها وهي مسكونة؟" فأجبته ببرود: "مسكونة؟ بمن؟" بالأشباح؟" فرد بانفعال: "بل من قبل سيدة!". هززت كتفي استخفافاً وتابعت أقول: "كيف تكون مسكونة وليس فيها قطعة أثاث واحدة؟ لم أعثر فيها على سرير، ولا على فراش، ولا حتى على كوب للماء!... إن السيدة التي تسكنها قد انتقلت إلى دار أخرى ولابد. رحلت من دون أن تعلم أنت!". رمقني الرجل بنظرة متعالية ثم نهض من جلسته وقال بلهجة ساخطة: "أنا أعلم بكل ما يدور في هذا البناء. وقد علمتُ بوصولك أنت قبل أن تطأ قدمك هذه العتبة. أما السيدة صاحبة الغرفة فقد رحلت، هذا صحيح، ولكن إلى عملها. فقد غادرت قبل مجيئك

بلحظات ومرّت من هنا، أمامي". وأشار بيده إلى الممر الطويل الفاصل بين السلم الخشبي وباب البناء الخارجي وهو يتفوه بكلماته الأخيرة. فسألته على الفور: "وكيف تفسر عريَ الغرفة التام؟ أين تنام هذه السيدة؟ أين تجلس؟ أين ملابسها، حاجاتها؟" فرد بصرامة ووقار: "نحن لا نتحشّر في شؤون المستأجرين. كل واحد حرّ في أن يؤثث مكان إقامته على النحو الذي يروم". أطلق بعد ذلك زفرة وأضاف بتأفف: "لقد طال هذا النقاش أكثر مما ينبغي. فإما أن تأخذي الغرفة الوحيدة الباقية وإما أن تعدلي عن مشروع الإقامة في هذا المبنى. وثقي بأن الغرفة على ضيقها وسلبياتها لن تظل شاغرة طويلاً. فالطلبات على السكن في تزايد مستمر وعدد الغرف المعدة للإيجار محدود".

وددت لو أحاججه من جديد؛ بيد أنه أفهمني أنه لن ينفق المزيد من وقته الثمين معي بأن عاود الجلوس واستغرق في ممارسة هوايته. ومن دون أن يرفع رأسه من فوق رقعة الكلمات المتقاطعة قال: "أنا في مطلق الأحوال لست سوى حارس؛ ناطور. إن المكتب هو الذي يقرر ... إن كانت الغرفة لا تناسبك، فلا بأس. أُعلم المسؤول برفضك فيرسل لنا مستأجراً آخر". هززت رأسي مكسورة وأجبته بلهجة من غلب على أمره: "بل سأستأجر هذه الغرفة. سوف أوقّع على عقد الإيجار حتى من دون أن ألقي نظرة عليها". قال ببرود: "هذا شأنك". فأجبته بانفعال: "لا. بل هذا شأن الظروف. فالدور، على ما يبدو، تُفرض على سكانها فرضاً".

وقّعت على العقد وانتقلت إلى الغرفة المرصودة برسمي. غرفة ضيقة، رطبة، مظلمة، أقرب ما تكون إلى زنزانة. سعيت جاهدة، أول عهدي فيها، أن أخفف من وحشتها وكآبتها، وأن أضفي ولو قدراً من الرحابة على تقوقعها، فزينت جدرانها بلوحات تزدهي بالألوان وتزخر بالمناظر الطبيعية. بيد أن مساعيّ الزخرفية لم تأت بالنتائج المرجوة. فالحدائق الغناء وجداول المياه الرقراقة التي وزعتها يميناً وشمالاً شددت في إبراز قباحة الغرفة التي بدت، علاوة على ذلك، وكأنها قد تجمّعت على نفسها أكثر بفعل انتشار تلك اللوحات على جدرانها. ولم أحظ بنتائج أفضل على صعيد محاولاتي التأثيثية. فكلما كنت أعود إلى غرفتي بتحفة وضيعة، من غطاء فراش مزركش، إلى إناء من الخزف الملون، إلى مصباح يوزع النور خافتاً ورومنطيقياً، على أمل خلق قدر من الحميمية والعذوبة في هذا المقر الموحش، كنت أصطدم بتأبي تلك الرقعة، التي غدت داري، عن التجاوب مع أي مسعى تجميلي. لكأنها قرد لا يفلح الماكياج المطلي على سحنته إلا في إبراز بشاعته. وانتهيت إلى هذه القناعة: ما دام قد حكم عليّ أن أعيش في صومعة فلأجعل من الزهد عنوان بيتي. وهكذا اقتصر أثاثي في نهاية المطاف على سرير حديدي، وطاولة خشبية، وكرسي مقشش ودولاب صغير أرتب فيه ملابسي.

ربما كنت سأتكيف مع مسكني، أقبل به على ظلمته ووحشته، لولا وجود تلك الغرفة المقابلة التي مكثت تتحداني لا برحابتها وإشراقها فحسب، بل بكونها قد بقيت شاغرة. فأكثر من مرة فتحت بابها لأجدها

على عـهدي الأول بهـا: عـارية من كل أثاث، خـالـيـة من كل أثـر ينمّ عن وجـود سـاكن. وقـد عـاودت المطالبـة بهـا، بإلحـاح وعناد، غـيـر أني كنت أصطدم أبداً بالجواب عـينه: هذه الغرفـة ليـست للإيجـار، فـهي مشـغـولة. مـشغـولة بمن؟ هذا مـا عجزت عن تحديده. زعـمـوا أن سيدة تسكنهـا، ولم يمنّوا عليّ بمزيد من التـفاصـيل. وقد استحال عليّ، من ناحيـتي، الاهتداء إليـهـا. فـمع أني كنت أقـف مترصـدة خلف باب غـرفتي وأنظر بـإمعـان من خلال العين السـحرية كلمـا سمعت وقع أقـدام في الممر، فإنـه لم يقيض لي أن أصـادفـهـا مـرة واحـدة. كنت أشـاهد سـائر نزلاء الغـرف الكائـنة في الطابق الثـالث يذهبون ويـأتون، وكنت أبادلهم التحيـة عندمـا ألقـاهم على السلم، فـي الممر أو حـتى عند مـدخل البناء؛ أمـا سيـدة الغـرفـة المقـابلة، التي كـان الحـارس يؤكـد لي بأنهـا تذهب إلى عـملهـا كل صبـاح ولا تعـود إلى مـسكنهـا إلا عند المسـاء، فـقـد كـان من رابع المسـتـحيـلات القـبض عليهـا تتجول في المبنى، أو تركن إلى الغرفة.

في عـصـر يـوم ممطر ضـاقت بي غـرفـتي إلـى حد لا يطـاق. لم يكن لدي عـمل أقوم به ولا كـتـاب أطالع فـيـه ولا مشـروع خروج يحثني على تحدي حـبـال المـاء المنهـملة خلف الكوة التي تـنوب مناب النافـذة. رحت أدور في حـيـزي المحـدود وكـأني أسـد فـي قـفص. أذهب وآتـي، أرتطم بالجدران وأوزع اللكمات على السـرير والطاولة وكل مـا يقـع تحت يدي. ولما لـم تفلح هذه الحركات الهـستيـرية في إخماد الهـيـجان الذي انتـابني أمـسكت بقـبـضـة البـاب، فـتـحـتـه بعنف ورمـيت بنفـسـي خارج مـخنقـي. واجـهـني على الـفـور باب الـغـرفـة المقـابلة. كـان، على عـادتـه، مـغلقـاً.

كدت أبادر إلى فتحه عندما تذكرت بأننا في يوم عطلة. فربما كانت صاحبة الغرفة قد قبعت هي الأخرى في دارها بسبب الأمطار... راقت لي فكرة وجودها خلف هذا الحاجز الخشبي. فقد تكون مثلي، امرأة تشكو من الوحدة وتصبو إلى صديقة. وقد ترحّب بزيارة مفاجئة تخفف من وحشتها. نقرت على الباب نقرة خفيفة ومكثت أنتظر جواباً. عاودت الكرة مرتين وثلاثاً، من دون أن أفوز بنتيجة. أدرت قبضة الباب فانفتح كاشفاً عن الخواء المألوف. فالغرفة كانت على عهدي بها: عارية، خالية، بكراً من كل وجود. أطبقت الباب من خلفي وقلت بصوت عال وأنا أجول في حيزها الرحب: هنا على الأقل أستطيع أن أتنفس. ودنوت من النافذة. كان المطر لا يزال ينهمر بغزارة غير أنه بدا لي منعشاً، جذلاً، يعبث بمرح بأوراق الأشجار وبتراب الحديقة، بل حتى بشعور أطفال مكثوا يلعبون بكرة حمراء، غير آبهين بسيله المندفق. ابتسمت لمشهدهم ولذكرى طفلة كانت تتقصد اللعب تحت المطر اعتقاداً منها بأن الماء الهابط من السماء يطيل الشعر ويضفي عليه شقرة جميلة.

راودتني فكرة بادرت إلى تنفيذها حالاً. قصدت غرفتي، أو بالأحرى زنزانتي، وعدت منها بوسادة ومذياع. وضعت الوسادة على الأرض، جلست فوقها وفتحت المذياع فانسابت منه موسيقى ناعمة، عذبة، أشاعت من حولي جواً حميمياً آسراً. وانقضت ساعة أو أكثر وأنا شبه مستلقية على الأرض، أحلق مع أنغام الكمان، وأذوب حنيناً مع أنين الناي. وانجلت من نفسي الهموم وتحرر صدري من الانقباض.

وعندما نهضت أخيراً أنوي الرجوع إلى غرفتي هممت بحمل الوسادة والمذياع؛ بيد أني عدلت عن فكرة استردادهما وأعدتهما إلى مكانهما.

في اليوم التالي أسرعت إلى الغرفة المقابلة فور عودتي من العمل. كان المذياع والوسادة حيث أودعتهما. سرتني ملاحظة ذلك فعزمت على تناول طعام عشائي في هذا المكان المريح والرحب. قصدت غرفتي وعدت منها بعد لحظات حاملة صينية توزعت فوقها زجاجة عصير وصحن زخر بأنواع من الجبن، وبقدر من الخبز والزيتون. فتحت المذياع ورحت أتناول طعامي بتمهل، جالسة على الوسادة ومسندة ظهري إلى الحائط. وعندما فرغ ما في الصحن قصدت غرفتي من جديد لآتي منها بكتاب وبوسادة أخرى أضعها خلف ظهري. وأمضيت سهرتي وأنا أطالع تارة وأصغي إلى الموسيقى طوراً. وعندما أزفت ساعة الرحيل لم أحمل معي سوى الصينية.

يوماً بعد يوم راحت أشيائي تتكدس في الغرفة المقابلة. فقد أصبح لي فيها عباءة، أرتديها فور وصولي إليها، وركن للمجلات والكتب، وبساط أفرشه تحت وسادتيّ، وأشرطة تسجيل اعتدت على صفّها بجوار المذياع.

ذات مساء، وأنا خارجة من العمل، عرضت عليّ زميلة حديثة العهد في مؤسستنا أن نترافق على الطريق. رحّبت باقتراحها وسرنا معاً نتبادل أطراف الحديث في شوارع ازدحمت بالمارة. ولما أصبحنا أمام المبنى الذي أقطن فيه أوضحت لها بأني قد بلغت مقصدي، فندّت عنها نظرة إلى مدخله فطنتُ معها إلى أنها تود أن أدعوها إلى زيارتي.

وصعدنا معاً على السلم الخشبي، وعندما بلغنا الطابق الثالث وأخذنا أول ممر إلى اليمين توقفت عند ثاني غرفة إلى اليمين وفتحت بابها بتؤدة. ولما تأكدت من أنها لا تزال على الوضع الذي تركته عليه ليلة الأمس أشرت بحركة من يدي إلى الزميلة الجديدة بأن تتفضل بالدخول. أبدت إعجابها برحابة المكان، وأثنت على الشرفة الفسيحة التي كانت تسبح في أشعة شمس غسقية، بيد أنها استغربت أن يكون أثاثي مقتصراً على بضع قطع تجمعت في إحدى زوايا الغرفة. ضحكت وشرحت لها بأني لا أزال قيد الانتقال وبأني أستطيع، في مطلق الأحوال، أن أستعين بغرفة مجاورة احتوت هي على الضروريات كافة. وقرنت الفعل بالقول، فقصدت غرفتي وعدت منها ببعض الشراب والموالح، ثم جلسنا على الأرض، فوق البساط، ووضعنا موسيقى هادئة ورحنا نخوض في مواضيع شتى. وعندما أزفت ساعة الانصراف بالنسبة إلى الزميلة قالت وهي تودعني: "آمل أن تكوني قد انتهيت من تأثيث غرفتك عندما أزورك في المرة القادمة".

زارتني مرة ثانية وثالثة من غير أن يكتمل التأثيث. وكذلك فعل سواها من الزملاء والزميلات الذين اعتادوا على ارتياد الغرفة في أمسيات الضجر. كانوا يعلمون أنهم سيجدونني فيها وأنهم لن يتسببوا في إزعاج أو إحراج إذا ما طرقوا بابها على حين غرة. في البداية كانوا يسألون بجدية وعن اقتناع "متى سيكتمل التأثيث؟"، ولكن، مع الأيام، تحول هذا السؤال إلى ضرب من التنكيت بل، بالأحرى، إلى شبه كلمة تقرّب وتجمع بين رواد ما بتُّ أسمّيه غرفة

اللقاءات الرائعة. ففيها ينعقد الحوار بيسر، ويجمح الخيال بحرية، وتنطلق الضحكات بسهولة مذهلة.

ولشدة ما تآلفت مع سحر تلك الغرفة واعتدت على إقامتي فيها. تناسيت أن لها صاحبة... لم أعد أطرق على الباب قبل أن أدخل، وصرت لا أشقه بحذر، بل أبادر إلى فتحه بثقة من يتعامل مع خاصته. ولم أعد، كذلك، أشعر بأي اضطراب عندما أسمع نقراً على هذا الباب ليقيني بأنه صادر عن زائر صديق راغب في تمضية أمسية حوار أو سمر.

ولكن ذات يوم، وفيما كنت أرتّب جلستي في الغرفة، بادئة بفرش بساطي في ركني المعهود، فتح الباب من دون نقر سابق ودخلت علي امرأة ملفحة في معطف أبيض. وما إن تنبهت إلى وجودي حتى تسمرت في مكانها ومكثت ترمقني بنظرة قاسية وحزينة في آن. وسيطر علي ارتباك شديد إذ أدركت فوراً أن القادمة هي صاحبة الدار!... توقعت أن تبدي عن دهشتها، عن استيائها المشروع من اقتحامي حرمة مسكنها. وترقبت أن تبادرني سائلة: "ماذا تفعلين في بيتي؟". غير أنها لم تتفوه بكلمة واحدة، بل ظلت تتأملني، أو بالأحرى تسلط نظراتها إلى حيث كنت أقف. نظرات أحسست بأنها تخترقني وتتجاوزني وكأنها لا تعترف بوجودي المادي. تقدمت خطوة في اتجاهها وفي نيتي تقديم نفسي والاعتذار عن دخولي غير المبرر إلى دارها. كنت، في مطلق الأحوال، قد أعددت سلفاً التعليلات والتفسيرات التي سأعطيها لصاحبة البيت يوم تفاجئني فيه، إذ لم أُسقط تماماً من حسابي احتمال عودتها إليه على هذا النحو المباغت. غير أنها سبقت مبادرتي بأن أدارت لي ظهرها بسرعة

وابتعدت، لتقف في مقابل الجدار العاري. ورأيتها ترفع رأسها وكأنها تتأمل شيئاً في أعلى الجدار. ثم تقدمت صوب النافذة ولكنها، قبل أن تبلغها، قامت بحركة أرهبتني وسحرتني في آن: فقد بسطت كفّها وجعلتها تذهب وتجيء بتؤدة في الفراغ وكأنها تداعب شيئاً محسوساً وملموساً. ظهر أريكة؟ رأس طفل؟ أحسست بيديّ ترتعدان وأنا أتابع تنقلها عبر الغرفة الخاوية. دنت من النافذة التي كنت قد فتحت زجاجها قبيل وصولها بهدف التهوية. اتكأت برأسها على مصراع النافذة ونظرت صوب الخارج وبدا لي وكأن ابتسامة طفيفة ترتسم على شفتيها فيما انبعث من الحديقة أصداء ضجيج بدأ مبهماً ثم انجلى عن ضحكات تشابكت مع عبارات متطايرة. أحنت رأسها خارج النافذة وكأنها تبحث عن وجه، عن شخص، عن معارف. وفيما هي تحرك رأسها يميناً ويساراً جاء صوت يصرخ بملء قواه: "لينا!..." كدت أثب بدوري إلى النافذة لأتبين هوية الذي يناديني. لكن الغبطة التي غمرت وجهها لدى سماعها هذا النداء جمدتني في مكاني. وعاد الصوت، هذا النداء الفتي، صوت مراهق على الأرجح، ينادي بعنفوان وإغواء في آن معاً: "ليـ... نا!". وطغت عليّ رغبة جامحة في إجابته غير أني تمالكت نفسي وكبحت رغبتي فيما ارتفعت ذراعها هي ملوّحة لذلك المنادي المجهول. وأخذت أسناني تصطك ورحت أردد بالرغم مني، وعلى نحو آلي، كأسطوانة علقت فيها الإبرة: "ما الذي يحصل في هذه الغرفة؟... ما الذي يحصل في هذه الغرفة؟..." وعاد الصوت ينادي بإلحاح، وإصرار، وعناد: "لينا!..." فاندفعتُ باتجاه النافذة، غير مبالية هذه المرة لا بتلويحات

ذراعها ولا بالسعادة التي شعّ بها وجهها. وصرخت بدوري، وبأعلى صوتي: "من ينادي لينا؟ من يناديني؟". وهمد فجأة الضجيج المتصاعد من الحديقة؛ وأشاحت وجهها عن النافذة بهدوء وتوءدة ونظرت إلي بحيرة ودهشة. ثم... ثم انقلبت ملامحها. انسحب منها ألق البهجة وإشعاع السعادة، فبدت شاحبة، جامدة، آسية، كوردة صفراء مستسلمة للذبول. وغلب على أساريرها حزن وقنوط اعتصر لهما قلبي. ولم أدر ماذا أفعل أو أقول كيما أزيل عن وجهها تلك الكآبة الشديدة، كيما أعيد إليه ولو قدراً من ذلك الإشعاع الرائع. وددت أن أمسك بذراعها، أن أشد على يدها، أن أعبر لها بشكل من الأشكال عن تعاطفي معها، وأن أعتذر لها عما بدر مني. فلو لم أهرع إلى النافذة، لو لم أسع إلى معرفة من يناديني، فلربما بقيت هي سابحة في أجواء من الغبطة والجذل... ولكن، لم هذا الأسى اللامحدود؟ لمَ تراها تسند رأسها الآن إلى الجدار وكأنها لم تعد تقوى على حمله؟ لمَ هذا اليأس في العينين اللتين تسلطتا عليّ؟ فما الذنب الذي اقترفته في نهاية الأمر؟ غرفة دخلتها وسوف أخرج منها!... صوت ناداني فحاولت أن ألبي النداء!... فهل في ذلك ما يدعو إلى مثل هذا الانفعال؟... ولكن، أمنفعلة هي؟... لست أدري!... الشيء الأكيد هو أنها حائرة وأسيانة. وقد عادت تطوف بالغرفة، تمرر يدها على أشياء لا أراها، تداعبها تارة وتشد عليها تارة أخرى. وعندما بلغت الباب، أدارت رأسها ونظرت في اتجاه النافذة. وانشقت شفتاها ببطء، بل بخجل، عن ابتسامة طفيفة. وومضت عيناها بحنين كاد يجعل الدمع يطفر من عينيّ. وددت من أعماقي أن تنظر إلي

علها تشملني بهذا الحنين؛ ومكثت أترقب اللحظة التي ستحوّل فيها نظراتها عن النافذة لتمررها، مجرد مرور، علي. غير أنها استدارت بسرعة، فتحت الباب بعنف لم أتوقعه منها، ورمت بنفسها خارج الغرفة. أذهلني تصرفها إلى حد عقد لساني وشل حركتي. ولبثت ثواني جامدة في مكاني، كمن تلقى ضربة على رأسه أفقدته القدرة على التفكير والمبادرة، كمن خرج من نوم عميق أنساه حدود الزمان والمكان. بيد أني سرعان ما صحوت على نفسي فوثبت بدوري نحو الباب وخرجت إلى الممر، لكني لم أعثر لها على أثر فيه. قطعت الممر بسرعة ووقفت عند أعلى السلم، من حيث أستطيع أن أشاهد كل صاعد أو نازل على درجاته الخشبية، بيد أن الخواء عينه ظل منتصباً في مواجهتي. عدت مهرولة إلى الغرفة وهرعت إلى النافذة علني ألمح طيفها الأبيض بين أشجار الحديقة غير أني لم أتبين أي بقعة بيضاء في الظلمة المحيطة. انحنيت بنصف جسدي إلى الخارج أسبر السواد بحثاً عنها. ومع أن مسعاي لم يجدني نفعاً، فقد صرخت بملء صوتي: "لينا!". وعاودتُ الكرة مراراً رافضة التسليم بفكرة رحيلها. ولم أتوقف عن الصراخ إلا عندما فتح جار نافذته وصاح بصوت مغتاظ: "ما هذه الضوضاء؟" لحظتها فقط أدركت حماقة تصرفي! أنادي باسمي في وحشة الظلام...

في صبيحة اليوم التالي أبلغت حارس البناء نيتي في إخلاء غرفتي. قال سائلاً: "ألم تعد تعجبك؟" فأجبته بصراحة: "لم تعجبني يوماً". أردف يقول: "هل وفّقت بمسكن أفضل؟" وأمام صمتي تابع قائلاً، بلطف غير معهود: "دعي لي، إن شئت، عنوانك الجديد، أو أي

رقم هاتف للاتصال بك. فقد تخلو الغرفة التي كنت ترغبين فيها، أعني تلك التي تقابل غرفتك، وأنت أحق الناس بها". فأجبته ببرود: "لم أعد أرغب فيها"، ثم أضفت وأنا أسير في اتجاه الباب الخارجي المفضي إلى الشارع، إلى حيويته وضوضائه: "لن تخلو تلك الغرفة يوماً في مطلق الأحوال".

عودة أدهم

قصتي مع أدهم تعود إلى ليلة شتائية ماطرة، حاصرتني فيها السماء بعواصفها وأنا أسير وحيداً، متعباً وبائساً في شوارع شبه مقفرة. برق ورعد وحبال متصلة من المياه القاسية، تلسعني بسياطها، وأنا أرتجف من البرد، وأغوص في روم الماء، وألعن ذلك الصبي المترف والغبي الذي صلبني ساعات إلى جانبه كيما يتفضل وينهي وظائفه ودروسه. كان عليّ أن أسير طويلاً كيما أنتقل من داره الكائنة في حي سكني غائر في رخائه وهنائه، إلى غرفتي المنفرة، القابعة في زاوية زقاق سابح دائماً في روائح نتن وعفونة. وقد توهمت بأني إذا ما استعجلت الخطى فسأفلح في بلوغ ذلك المربّع الكئيب الذي هو بيتي قبل أن تشتد العاصفة وتطوقني بعدوانيتها الكاسحة. وفي كل الأحوال كان عليّ أن أغادر دار الصبي حتى ولو كانت العاصفة على أشدها. فقد جرت العادة أن ينادي أمه عندما ينتهي من توضيب دفاتره وكتبه فتدخل علينا لتناولني، بحركة جافة، ثمن الدرس الخاص. لا أدري لماذا كانت تحرص على أن تسدد لي هذا المبلغ الزهيد يوماً بعد يوم. اقترحت عليها، في بداية عهدي معها ومع صبيّها، أن تحاسبني شهرياً، أو أسبوعياً إذا

شاءت. بيد أنها رفضت الاقتراح بحركة من رأسها وناولتني الليرات المعدنية بعد أن عدّتها أمامي. وهكذا كانت تفعل كل يوم. ربما كانت تجد متعة عندما تناولني هذه الليرات، إذ لسبب أجهله كنت أرتبك عندما آخذها منها وينتابني إحساس بالذل وأنا أدسّها في جيبي. ربما كان يروق لها ذلك: أن تحسني مرتبكاً وذليلاً أمامها. كما كان يروق لها أيضاً أن تبادرني قائلة حالما أخرج يدي من جيبي: "مساء الخير"، لتفهمني أن عليّ أن أغادر دارها على الفور. وعندما تفوّهت بعبارتها ذلك المساء كان قصف الرعد قد بدأ يدوي في الخارج، وكانت زخّات المطر قد أخذت تنهال على زجاج النافذة. لكن كان علي أن أغادر الدار. ولم يفدني استعجالي شيئاً: فمع أني حثثت الخطى، بل عدوت ووثبت وقفزت، فقد حاصرتني العاصفة وطوقتني من كل صوب وأنا لا أزال بعيداً عن غرفتي حيث لا تنتظرني سوى كآبة قاتلة. فلمَ إسراعي ولمَ عدوي؟ أنا لست على غرار هؤلاء المارة القلائل الذين يواجهون العاصفة برأس مرفوع وقلب هادئ لأن في انتظارهم دوراً تشع راحة ودفئاً، بل ربما حباً وجمالاً. ما أروع تلك الدور التي تفتح أبوابها كذراعين متلهفتين لتضم الآتي إليها بحنان أو بإغراء. وما أقبح غرفتي أنا التي ما إن أفتح بابها حتى تراودني رغبة جامحة في الهرب منها، في الإفلات من قبضة جدرانها الرمادية العارية، وسريرها المعدني الأسود، وخزانتها الخشبية البخسة، وذلك الغطاء الخمري القاتم المرمي فوق الطاولة الصغيرة التي تنوب مناب مائدة الطعام والمكتب. إن حزن الدنيا كله يتجسّد في ذلك الغطاء الذي تفوح منه رائحة فقر مجرّد من كل

شاعرية. نسيج خمري غليظ لا ميزة له سوى التستر على القذارة ومقاومة التآكل. وقد طاردني منذ طفولتي وظل يلاحقني حتى هذه الغرفة التي حططت فيها آمال شبابي وأنا أنتقل من بلدتي الصغيرة إلى هذه المدينة الكبيرة. فمنه كانت أمي تصنع أغطية أرائك دارنا الخشبية، وبه كانت تلفّح لحفنا الصوفية والقطنية، وعليه كانت تفرش أطباق طعامنا؛ وعندما كانت قطعة منه تهترئ، بعد طول استخدام، كانت تفصِّلها إلى مجموعة لا متناهية من المماسح: ممسحة لتنشيف الصحون، وممسحة لتنظيف الزجاج، وأخرى لنفض الغبار، وأخرى وأخرى... ولا أدري لماذا كانت تصر على نشر رمز فقرنا في كل زاوية، وفي كل ركن. وقد انتابني إحساس بالتقيوء يوم سعيت وراء رغيف فوجدت خبزنا وقد لفّ بدوره في خرقة من هذا النسيج المقيت. لذا عندما وقعت عيناي على غطاء الطاولة الخمري القاتم في الغرفة الوضيعة التي استأجرتها لأستهل فيها حياتي الجديدة كطالب جامعي في مدينة كبيرة،بادرت على الفور، وبحركة عصبية، إلى نزعه ورميه بعيداً. غير أن المشهد الذي تراءى لي أقعد حميتي وأفرغ حركتي من كل مضمون. فالنسيج كان يستر عورة؛ وكان، على قباحته، أجمل بكثير من سطح تلك الطاولة الذي استحال علي تحديد لونه. ربما كان بنياً في البداية، غير أنه غدا، بفعل اللطخات والفجوات والأخاديد والتقشر وآثار الحبر والسمن والزيوت والحروق، مزيجاً كريهاً من البقع المتشابكة المتطابقة. وعلى الرغم من نفوري العميق من ذلك النسيج فقد أعدت ستر سطح الطاولة به، وحاولت طرد القنوط الذي بدأ يتسرب إلى نفسي قائلاً: لن تمضي أيام إلا وأكون قد

استبدلته. فهذه الغرفة غرفتي أنا، وسوف أقتني لطاولتي أجمل الأغطية وأزهاها لوناً. هكذا قلت. بيد أني لم أفعل... وفيما كنت محاصراً بتلك العاصفة الشمطاء، في شوارع موحشة إلى حد لا تبلغه إلا شوارع الفقر الموحشة في المدن الكبيرة، صارحت نفسي قائلاً: إن كنت قد أبقيت على ذلك الغطاء فليس لأني لا أملك ثمنَ سواه. صحيح إن الدروس الخاصة التي أعطيها بعد مغادرتي الجامعة تكاد لا تكفي لتأمين معيشتي. لكن ألا أسمح لنفسي، بين الحين والآخر، بالذهاب إلى السينما أو باقتناء كتاب؟ أفليس في متناولي حقاً أن أشتري مترين من القماش الملون فأتحرر من ذلك الغطاء الكريه؟ إن كنت قد احتفظت به فلكي أصارح نفسي يومياً بإحباطي. فهأنذا قد جئت إلى المدينة. وهأنذا قد أصبحت حراً في أن أعيش الحياة التي أشاء. فأين الأصدقاء الذين حلمت بالعيش معهم؟ أين الندوات واللقاءات التي منّيت نفسي بها؟ أين أثر بصماتي على هذه المدينة؟ كان حسبي من الحلم الكبير وحدة قاتلة في غرفة حقيرة في مدينة تقفر شوارعها حيثما أمر وتنغلق أبوابها حيثما أسعى إلى الدخول، وتنطفئ أضواؤها كلما تحرّك فيّ الحنين إلى الحب والسعادة.

لمَ أعدو وأركض؟ لمَ أوهِم نفسي بأن لي، أنا الآخر، داراً تنتظرني؟

رحت أسير بخطوات بطيئة، أبحث عن مكان ألتجئ إليه ريثما تهدأ العاصفة. وأخيراً اهتديت إلى دهليز مظلم يفضي، ولا ريب، إلى بيت من تلك البيوت التي نسمّيها عربية. وقفت عند عتبته ورحت أنفض الماء عن شعري ومعطفي. انفجر صوت الرعد مروِّعاً ولمعت السماء على نحو مخيف فارتميت إلى داخل الدهليز وأنا ألعن الصبي وأمه والمدينة والليل والعاصفة. مضت دقائق طويلة وأنا واقف داخل

ذلك النفق المعتم وقد غمرني حزن العالم كله. ثم سمعت وقع أقدام تعدو في الخارج، وفجأة بانت لي القامة الطويلة لعابر توقف للحظة عند عتبة الممر ثم ولج إليه. وقبل أن أتمكن من تحديد ملامح القادم ارتفع صوت يقول بلهجة مرحة: "مساء الخير!". حييت بدوري القادم الذي انهمك بنفض المياه عنه. رأيته يخرج منديلاً أبيض من جيبه ويمسح به رأسه. تنبهت إلى لون شعره الذي بدت شقرته واضحة بالرغم من العتم المخيم على الدهليز، ولا أدري لماذا قلت في نفسي: "هذه الشقرة بقعة نور وسط هذا الظلام". هل سمع هذه العبارة التي لم أتفوه بها؟ فقد بادرني قائلاً: "قليل من النور في هذا النفق لا يضر". ثم أردف قائلاً: "لعنة الله على الأصدقاء؛ لقد أصرّوا على الشراب هذه الليلة. وطبعاً ليس من أحمق سواي ليتبرع بالخروج في مثل هذا الطقس ليأتي بزجاجة كونياك...". مرّر بعد ذلك يده برفق على جيب معطفه الذي كان منتفخاً وأضاف: "المهم أن الزجاجة قد أصبحت هنا. بقي أن تتفضل حضرة السماء فتخفف من حدةِ غضبها كيما أعود إلى سهرتي".

وجاء جواب "حضرة السماء" سريعاً: رعد وبرق وقصف مائي عنيف. ضحك الشاب بصخب ثم قال: "يحلو للسماء أن تداعبني على ما يبدو... على كل حال لا مانع لدي من المكوث هنا بصحبتك أيها الصديق. فأنت أيضاً تتحرق ولا ريب للحظة التئامك مع شلّتك من الرفاق". وابتسمت؛ لم أبتسم بمرارة لأن الشاب الوسيم الذي كان يقف إلى جانبي خالني، مثله، إنساناً ذاهباً إلى موعد، إلى حيث ينتظره آخرون. بل ابتسمت بسعادة لأنه قال لي "أيها الصديق". وقد شجعتني هذه الكلمة على النظر إليه وجهاً لوجه، على تفحّص محيّاه على ضوء

السيارات التي كانت تمر بين الحين والآخر، مخترقة ستائر المطر المتلاحقة بعنف وحدّة. كان في منتهى الجمال، والأناقة، والرشاقة. كائن لم يتّفق، ولا مرة واحدة، أن منّت عليّ أحياء الفقر التي أقطن فيها بملاقاته، ولا حتى بمصادفته على نحو عابر. كان أجمل ما فيه حيوية ينبض بها كل عرق من عروقه. وعلى غرار حصان أسر في حيز مقفل كان لا يكف عن الحركة، عن الذهاب والإياب. وبين الفينة والفينة كان يمد رأسه إلى الخارج، ثم ينفض، وهو يضحك، شعره الذي بلله الماء، ويعلّق على المطر تارة وعلى أصدقائه اللعينين الذين أرسلوه في هذه العاصفة لشراء زجاجة كونياك تارة أخرى. ثم رأيته يمد يده إلى جيبه ويخرج الزجاجة ويفتحها ويناولني إياها قائلاً: "ولمَ لا أبدأ سهرتي الآن؟... خذ أيها الصديق، اشرب. فالطقس ليس دافئاً". تناولت جرعة وأعدت إليه الزجاجة ففعل مثلي. لم أكن متعوداً على شرب الكحول، فأحسست بسهم ناري يخترق صدري لينفجر في رأسي. وسمعت الشاب يقول: "ما أجمل المطر! ألا تحب المطر؟" كلا. أنا لا أحب هذا المطر الرصاصي الذي ينهال على الأجساد البائسة كالسوط. ولا أحب المطر الرذاذي الكئيب الذي يهصر القلب حزناً. ولا أحب المطر المدرار الذي يحول الطرقات إلى عجين من الوحل. لكني... لكني أحب. وجدت نفسي أقول بصوت عالٍ بما فيه الكفاية ليسمع: "أنا أحب المطر الأخضر". نظر إلي الشاب مدهوشاً ثم ابتسم وقال: "من أين أتيت بهذا المطر الأخضر؟". وتجرأت على مصارحته. هكذا، فجأة. قلت له: "لو طلب مني أن أصوّر السعادة لقلت إنها معطف مشمّع أصفر تحت مطر أخضر... لا أدري إن كنت قد شاهدتَ فيلم "فلنغنِ تحت المطر"... أجل؟ إذن لابد وأنك تذكر المشهد

الأخير فيه. المعاطف المشمّعة الصفراء الثلاثة. والمطر الأخضر المنسكب عليها... عندما أفكر بالسعادة فإنها تتجسد لي في هذه الصورة؛ المعاطف المشمّعة الصفراء الثلاثة والمطر الأخضر الذي يغني من حولها". وابتسم الشاب ثم قال: "أذكر المعاطف الصفراء جيداً... لكن، هل كان المطر حقاً أخضر؟... لا أدري... ربما...". وأردف هو يشير بحركة من يده: "ولِمَ لا يكون المطر أخضر؟ فلئن كان بلا لون، فكيما نختار له اللون الذي نشاء". وضحك وضحكت بدوري. ضحكت لأنه ضحك، لا لأن ملاحظته كانت تثير الضحك: فالمطر في ذلك المشهد كان فعلاً أخضر!

أذكر بعد ذلك كيف خطا بضع خطوات في اتجاه الرصيف المحاذي للدهليز، ومدّ رأسه إلى الخارج وهو يقول: "لنر ماذا حلّ بمطرنا نحن". وصادف مرور سيارة سلطت عليه، لأقل من هنيهة، أضواءها، فإذا بشعره الأشقر يأخذ لمعاناً أصفر، وإذا بالمطر المنهمر عليه يغدو، بسحر ساحر، أخضر!

كانت حركة ذراعي أسرع من تفكيري؛ لم تمهلني، لم ترحم ترددي، بل انطلقت لتحط على كتف الشاب الذي كان لا يزال منحني الرأس تحت المطر. أمسكت قبضتي بهذه الكتف، ولولا تيقظ إرادتي وتدخلها المفاجئ، لشدّت هذه القبضة على كتف الشاب لتجذبه نحوي. وبقيت يدي على كتفه، آبية أن تنسحب وعاجزة عن أن تجذب. نظر إلي الشاب، وكان في نظرته شيء من الحزن، ثم قال بصوت هادئ هذه المرة: "عليّ أن أذهب الآن. فالعاصفة ستطول وهناك من ينتظرني. كنت سعيداً بلقائك. مساء الخير". رأيته يثب في اتجاه الطريق الإسفلتي في الوقت الذي أحسست فيه بفراغ في يدي. وقبل أن ينعطف ويغيب في شارع مظلم صحت في اتجاهه قائلاً: "لم تقل لي ما اسمك". استدار نحوي

وصرخ: "أدهم. اسمي أدهم". قلت له، غير مبالٍ بما قد تنطوي عليه مبادرتي من سذاجة، بل من غباوة: "سوف أمزّق غطاء طاولتي هذه الليلة. الغطاء الخمري البشع...". وقد رفعت صوتي إلى أعلى ما يمكن وأنا أنطِقُ بالكلمات الأخيرة لأن الرعد عاد يدوّي ويملأ الأذنين بصخبه. ولكنه بحركة من يده أفهمني أنه لم يسمع، ثم غاب عند المنعطف.

عبثاً بحثت عنه في الأيام والأسابيع، والأشهر، بل في السنوات التالية. في الأيام الأولى التي أعقبت لقائي به أخذ بحثي عنه طابعاً محموماً. كنت أسير في الشوارع وأنا أترصد وجوه المارة، وأدخل إلى المقاهي لأتفحص رؤوس روادها، وأقف عند أبواب صالات السينما لأدقق في الأفواج البشرية الداخلة إليها والخارجة منها، حتى تزوغ عيناي وينتابني دوران. وعشية كل يوم، وبعد مغادرتي دار الصبي الذي مكثت أعطيه دروساً خاصة، وأتقاضى لقاءها ليرات معدنية ترمى في يدي كل مساء، كنت أقصد ذلك الدهليز الذي التقيت به في تلك الليلة العاصفة. كنت أقف عند مدخله وأنتظر قدومه. وكان ذهابي إليه ضرباً من طقس أؤديه بدقة وانتظام وأنا أدرك، في صميمي، أن لقائي الثاني مع أدهم، إذا ما حصل، فلن يكون في هذا المكان. لكن في ممارسة الطقوس راحة نفسية، وكنت في استراحتي اليومية في ذلك الحيّز أعيش لحظات صافية وهنيئة. فهذا الممر الضيق والمظلم، الواقي من عواصف الخارج، كان شاهداً على لقائي مع أدهم. كان يقدّم لي الدليل الموضوعي القاطع على وجود أدهم، ويعطّل لعبة الشكوك التي راحت تطاردني بإيحاتها المكربة، وتسعى إلى إغراق لقائي الواقعي معه في دوامة من الغموض والإبهام، يختلط فيها الواقع مع الأوهام والأخاييل.

وسألت عنه؛ انتزعت من نفسي خجلها وانكماشها وسألت عنه: لدى الزملاء القلائل الذين كنت أحادثهم في الجامعة. ولدى زملاء هؤلاء الزملاء. ولدى معارفي في الحي. ولدى الصبي الذي كنت أعطيه دروساً خاصة، بل لدى أم هذا الصبي! وقد تجرأت على مصارحتها بوجود أدهم وعلى سؤالها عنه في ليلة كاد فيها قلبي أن ينفجر من شدة ضغط الوحدة. بيد أنها لم تجب بكلمة عن سؤالي، لم تشأ حتى أن تنفي بحركة من رأسها معرفتها به، بل لم تتنازل حتى للرد على استفساري عن أدهم بابتسامة سخرية. كل ما فعلته في تلك الليلة هو ما تفعله كل ليلة: ناولتني الليرات المعدنية الواحدة تلو الأخرى وقالت: "مساء الخير". فغادرت دارها.

بيد أني رفضت اليأس. قلت لنفسي: عليّ أن أبحث عن أدهم لدى فئة أخرى من الناس. فحتى الآن لم أسع إليه إلا من خلال أناس عاديين وهو الإنسان الخارق! وكيما أهتدي إليه، عليّ أن أستفسر عنه لدى كائنات تخرج عن المألوف. ولم أحتج إلى وقت طويل كيما أحدد هوية الباب الجديد الذي سأطرقه. فأجمل فتيات الجامعة، وأبرعهن في استقطاب العيون، والأحلام والقلوب، كانت تدعى عالية. ولم أكن طبعاً من المقربين إليها، ولا من معارفها، ولا من الذين يتجرؤون على توجيه التحية لها. بل كان من عادتي، كلما أصبحت على أمتار معدودة منها، أن أتظاهر بالانشغال بتوافه الأمور لأخفي ارتباكي وانجذابي الشديد نحوها في آن معاً: أقلّب الكتب التي بين يدي، أطالع إعلاناً علّق على جدار، أتفحص محتوى سلة مهملات، وما أشبه. واتفق مرة أن اقتربت مني إلى حد ملاصقتي، فقرع قلبي فرحاً، واستدرت نحوها لأتلقى كلماتها. بيد أنها لم تقل لي سوى

كلمة "عفواً"، وأفهمتني بحركة من يدها أنها تود لو أغادر مكاني كيما تتمكن من قراءة إحدى النشرات الجامعية.

مع ذلك عزمت على مبادرتها. فهذه المرة سأتكلم باسم أدهم. سأسالها عنه لأنها تعرفه حتماً. فإن كان من حسناء تليق بأدهم فإنها عالية؛ وأدهم، الشاب الوسيم الذي يتلهف الناس إلى ملاقاته، قد عرف ولاريب كيف يجتذب قلبها. لقد غدا اسم أدهم كلمة سر بيني وبينها. هكذا حسبت. ومع أن قلبي كان يرتجف وجلاً، فقد بادرتها ذات يوم فيما كانت تقطع باحة الجامعة برفقة إحدى صاحباتها. قلت لها: "أنا أعرف أدهم". نظرت من حولها لتتأكد مما إذا كان الكلام موجهاً إليها حقاً. ابتسمتُ وأضفت موضحاً: "لدي صديق وسيم وجذاب جداً يدعى أدهم. وهذا الصديق"... ولم أكمل عبارتي. فنظرة الاستغراب التي ارتسمت في عينيها أفادتني بأنها تجهل عمن وعما أتحدث، وبأنها قد خالتني أحمق أو مهووساً! وكانت هذه النظرة، على قسوة رسالتها، أرحم من كلمات رفيقتها التي قالت بصوت عالٍ وهي تبتسم بخبث وسخرية: "تشرفنا ان كان لديك صديق وسيم يدعى أدهم... ثم ما شأننا نحن بقصة غرامك؟". كاد وجهي أن يحترق من شدة الاحمرار. طأطأت رأسي وانسحبت دون أن أرد بكلمة واحدة على الإهانة التي وجّهت إلي. فقد كان حزني أعمق بما لا يقارن من الجرح الذي أصاب كرامتي. والحزن لا يعبّر عنه بكلمات. ذلك أني أدركت لحظتها أني لن أسأل الآخرين عن أدهم، لن أبحث عنه من خلالهم ولن أجده عن طريقهم. غير أني لم أفقد الأمل في لقائه. كان في أعماقي يقين بأن أدهم سيعود يوماً، وبأن المطر سيغدو أخضر من جديد، ولو للحظات.

وعاد أدهم.

في ليلة شتائية ممطرة قُرع جرس بيتي. لم يمهلني الطارق. فقبل أن أضع المجلة التي بين يديّ على الطاولة الصغيرة أمامي وأنهض عن الأريكة التي كنت مستلقياً عليها، كان الجرس يقرع ثانية، وبإلحاح هذه المرة. أسرعت نحو الباب وأنا أتساءل عن هوية القادم في مثل هذه الساعة المتأخرة. رنوت بنظرة سريعة إلى المرآة المعلقة عند المدخل لأتأكد من لياقة هندامي ثم فتحت الباب. كان أدهم يقف أمامي. كان هو هو، لم يتغير، لم يتبدل. لكأن السنين العديدة التي ألقت وزرها عليّ، انزلقت عليه من دون أن تمسّه. كان شعره لا يزال أشقر متألقاً، وقامته منتصبة، ووجهه فتياً، وابتسامته مشعّة. بقيت جامداً في مكاني أتأمله فضحك وقال: ألا تدعوني إلى الدخول؟". تنحيت عن الباب لأدعه يمر. نزع معطفه المبلل وعلّقه على مشجب؛ ألقى نظرة خاطفة على المرآة ومرر يده بسرعة في شعره ثم دخل إلى الغرفة حيث كنت أجلس. وسرت خلفه وأنا في ذهول شلّ لساني، بل عطّل حتى أفكاري. وسمعته يقول: "لا أحمل هذه المرة شراباً، فهلا تكرمت عليّ بكأس؟". ذهبت إلى المطبخ لآتي بكأس وببعض الثلج، وعندما عدت إليه وجدته يعبث بالمجلة التي كانت بين يدي قبل لحظات. نظر إلي وقال وهو يبتسم بتواطؤ: "أبحلّ الكلمات المتقاطعة تمضي سهراتك؟". ثم أردف قائلاً وهو يتنبه إلى الكأس اليتيمة التي كنت قد أتيت بها: "ألن تشاركني الشراب هذه الليلة؟" عدت أدراجي إلى المطبخ لأحضر كأساً أخرى وأنا لا أزال في حالة من الذهول العميق أفقدتني القدرة على التمييز بين الحلم والحقيقة. أحقاً عاد أدهم؟ هل هو بلحمه ودمه؟ هل سأجده جالساً على الأريكة عندما

سأعود إلى الغرفة أم سيكون قد تبخّر؟ وعدت بالكأس، لم أجده على الأريكة. غير أنه لم يتبخّر. كان يتفحّص بعض زجاجات من الكحول اصطفت فوق طاولة في زاوية الغرفة. تناول إحداها وقال وهو يضحك: "جميع الزجاجات مختومة. لماذا اقتنيتها؟ للزينة؟". ابتسمت له ووقفت أتأمله وهو يفتح زجاجة ويسكي ويصب منها في كأسه وفي كأسي. كانت دعوته لي للشراب صائبة، فما إن تناولت أول جرعة، وألحقتها على الفور بجرعة ثانية، حتى زال ذهولي وصحوت إلى نفسي لأشعر بسعادة عارمة تغمرني: فقد عاد أدهم وها هو يجلس على أريكتي، ويعبث بمجلتي، ويتناول الشراب في بيتي. وانهالت الأسئلة على رأسي وتلعثم لساني في صياغتها. فالأشياء التي كنت أود معرفتها كثيرة، كثيرة... أين كان خلال السنوات، بل العقود المنقضية؟ كيف اهتدى إلى بيتي؟ وكيف، كيف لم يتغير على الرغم من مرور السنين الطويلة؟... سألته وأنا أصوغ كلماتي بصعوبة: "ألم تكبر على مدى كل هذه السنوات؟... فأنت لا تزال كما التقيتك للمرة الأولى في ذلك الدهليز. ألا زلت تذكر ذلك الدهليز المظلم؟". لم يجب أدهم، بل بدا مهتماً بتأمل السائل الذهبي في كأسه. عدت أسأله: "أنت لا تزال شاباً يافعاً. لا شعرة بيضاء في شعرك الأشقر. لا تجاعيد في وجهك. لا أثر للبدانة أو الترهل في جسمك. ولا أثر للتعب عليك. قل لي كيف. كيف لم تبدلك السنوات؟". قال بصوت هادئ وهو ينظر إليّ برفق: "ربما مُنحت مناعة ضدها". ثم أضاف وقد ومضت عيناه ببريق وهّاج: "وأنت؟ هل تغيرت حقاً؟ قل لي بصراحة: هل كففت يوماً عن الحلم بمطر أخضر؟". بحركة من يدي حاولت في البداية أن أنفي ما قاله أدهم؛ لكن أمام نظراته

الثاقبة والمتعاطفة في آن معاً ألفيت نفسي أضحك وأهز رأسي إيجاباً. وضحك أدهم معي وشرب نخبي وشربت نخبه. وتكلمت. تكلمت ليلتها حتى الثمل. حدّثته بكل ما يضيق به صدري ويجمح به خيالي. ولم أفطن إلى أني لم أدع له فرصة ليتكلم إلا عندما رأيته ينهض عن الأريكة ويقول: "أين وضعت معطفي؟". سألته: "هل تنوي الذهاب؟" فأجاب: "لابد من الذهاب... لقد انتصف الليل... ثم هنالك من ينتظرني". بخطوات آلية سرت باتجاه المدخل الضيق وسار خلفي، أخذت معطفه من على المشجب وناولته إياه، قال: "شكراً" وهمّ بارتدائه، ولكنه اكتفى بإلقائه على منكبيه. ثم فتح الباب وقال: "مساء الخير" وهو يبتسم. وانطلقت يدي تقبض على كتفه لتمنعه من الرحيل، فعكست المرآة التي في المدخل صورة رجل مسنّ، بدين، يمسك بفتى أشقر وسيم. ارتخت يدي فوق الكتف وانسحبت عنه، وخرج أدهم من بيتي.

أغلقت الباب من ورائه ونظرت إلى المرآة بمرارة. كنت وحيداً فيها. وحيداً مع شعري الذي بدأ يشيب، ووجهي الشاحب كالشمع، ومنكبيّ الخاسفين تحت كنزة صوفية رمادية. خاطبت هذه الصورة قائلاً: "لن يعود أدهم بعد اليوم... وعلينا أن نتكيف مع ذلك. أن نعيش من دون أدهم. من دون الأمل في عودته". وعدت إلى الغرفة حيث كانت مجلتي وكلماتي المتقاطعة لا تزال تنتظرني. مررت بجانب الطاولة المربّعة التي كانت تنوب مناب المكتب ومائدة الطعام. وبحركة عفوية سوّيت غطاءها الذي كان قد مال جانباً. وضحكت بأسى وأنا أنظر إلى هذا الغطاء. كان من نسيج مخملي فاخر، لكن لونه كان خمرياً قاتماً.

الإرث

لست أدري لماذا عشت أنتظر إرثاً؛ لماذا لازمني على الدوام حلم الفوز بثروة طائلة تهبط علي لا من السماء، بل من قريب، من صديق، من شخص أحبني فارتأى أن يسميني وريثة لأمواله وممتلكاته. ومع أن أسرتي، بفروعها القريبة والبعيدة، لم تكن تضم ثرياً واحداً، ومع أن دائرة معارفي قد بقيت، على مدى الزمن، مقتصرة على أشخاص لا يملكون، في أفضل الأحوال، سوى الشقة المتواضعة التي يسكنون، فقد مكثت أترقب هذا الإرث وأحسب حسابه ليفك عني قيد ضائقتي المادية المزمنة. لذلك لم أشتر يوماً بطاقة يانصيب ولم أقلق كثيراً على مستقبلي. فثمة إحساس دفين كان يوطد قناعتي بإن الإرث سيأتي يوماً لا محالة، فيقيض لي أخيراً أن أنفق بسخاء على من أحبّ، وأن أحقق نزواتي كافة، وأن أقتني الأشياء الجميلة التي تمارس عليّ إغراء لا يرحم. وحتى بعد أن غادرت مدينتي واخترت الاستقرار في باريس بقي هذا الحلم يلازمني؛ وكنت إذا ما راودتني الشكوك أسارع إلى إسكاتها. فباريس ليست آخر الدنيا، ومورثي سيعرف كيف يعثر عليّ، حتى ولو بدّلت عنواني غير مرّة. ولم تصعقني المفاجأة بالتالي عندما تلقيت ذلك

الاتصال الهاتفي من الكاتب العدل جان مارشان. إن سكرتيرته هي التي كلمتني بادئ الأمر، سائلة إن كان في وسعها التحدث إلى السيدة هند مكابر. وعندما أوضحت لها بأني المدعوة هند قالت لي: "لحظة من فضلك، إن الأستاذ جان مارشان يود مكالمتك". وجاءني على الفور صوت الرجل محيياً ومستفسراً عن هويتي. عدت فأكدت له بأني هند مكابر. فقال لي: "سيدتي، هل بإمكانك أن تمري على مكتبي لنبحث في مسألة تخصك؟". ولم يدع لي فرصة للسؤال عن طبيعة تلك المسألة، إذ أردف يقول: "أنا كاتب عدل، وقد اؤتمنت على وصية تتعلق بك. فهل نضرب موعدنا يوم غدٍ؟" قلت: "أجل، شرط أن يكون قبل الظهر". فأجاب: "كما تشائين. لنقل في العاشرة والنصف. إن مكتبي كائن في جادة هوش، في البناء رقم ١٢". تمهل لحظة ثم أضاف: "ستحملين معك طبعاً هويتك الشخصية أو جواز سفرك". أكدت له بأني سوف أحضر معي ما يثبت هويتي، ما يقطع الدليل على أني هند مكابر.

كان جان مارشان رجلاً في العقد السادس من عمره، مديد القامة، أبيض الشعر، يشع وقاراً وثقة بالنفس. استقبلني بالترحاب عندما دخلت إلى مكتبه وسألني، بعد أن دعاني إلى الجلوس على مقعد جلدي يقابل مقعده، إن كنت أرغب في فنجان قهوة. استبشرت خيراً بهذه الدعوة، إذ ليس من عادة الفرنسيين أن يعرضوا قهوة أو كوباً من العصير على ضيوفهم، اللهم إلا إذا كان هؤلاء من ذوي الشأن. وابتسم لي السيد مارشان وقال وهو يثبّت نظارته الطبية فوق أنفه: "سيدتي

العزيزة، يسعدني أن أعلمك بأنك سترثين ثروة محترمة... ولكن، قبل أن أفيدك بمضمون وصية السيد أدهم صافي، رحمه الله، حبذا لو سمحت لي بإلقاء نظرة على بطاقة هويتك". أخرجت جواز سفري وقدمته له. قرأ بصوت عالٍ: "هند مكابر، الجنسية سورية، مواليد حلب". أعاد إلي جواز السفر وهو يقول: "حسناً! كل شيء على ما يرام. لنباشر إذن عملنا". فقلت له: "مهلاً، أريد بدوري توضيحاً. فمن يكون السيد أدهم صافي؟". نظر إلي من فوق نظارته الطبية، هز رأسه وقال: "أنت لا تعرفينه إذن... تلك كانت قناعته الدفينة في مطلق الأحوال". وأمسك بمظروف كبير يبغي فضّه. فعدت أقول له: "ولكنك لم تجب عن سؤالي. فمن يكون صاحب هذه الوصية؟ ولماذا اختارني وريثة له؟". رفع الرجل نظارته الطبية عن عينيه وقال، وهو يمعن النظر فيّ: "قبل أن أحدثك عن أدهم صافي، اسمحي لي يا سيدتي أن أعبّر لك عن احترامي وتقديري. فقد شغلك المورث عن الإرث وحرصتِ على سبر سره قبل أن تهتمي بمعرفة ما خلّفه لك. أدهم صافي حلبي مثلك يا سيدتي. وقد أحبّك مراهقاً، وشاباً، وراشداً. ولأنك كنت حبه الوحيد، ولأنه لم يسعَ أساساً إلى جني ثروته إلا من أجلك، فقد شاء أن يمنحك بعد وفاته ما عجز عن إعطائه وهو على قيد الحياة. "إن ثروتي"، كما قال لي رحمه الله، "هي ملك هند مكابر. فلولاها لما هاجرت إلى فنزويلا، ولما طفت بأرجاء العالم أتاجر وأقاول وأجمع المال". ووجدت نفسي أقاطع الكاتب العدل وأسأله باهتمام: "ولكن لماذا لم يعلن عن وجوده؟ لماذا لم يسع إلى لقائي؟". هز الرجل رأسه بأسى وقال: "علم بأنك قد أحببت وتزوجت وأنجبت. فكيف

يصارحك بمشاعره؟ بحبه الكبير؟ غير أنه مكث يتتبع أخبارك ويرافق تحركاتك. وعندما اخترت الاستقرار مع أسرتك في باريس عزم بدوره أن يجعل مقرّه الرئيسي فيها، فاشترى شقة فخمة واهتم بتأثيثها؛ غير أنه أصيب بداء عضال وقضى به". وتوقف جان مارشان لحظة عن الكلام، ثم أردف يقول، بلهجة مترددة: "أطلب المعذرة سلفاً يا سيدتي عمّا قد تعتبرينه فضولاً، ضرباً من الحشرية. ولكن، ألم تعرفي حقّاً شاباً يدعى أدهم صافي؟ حاولي أن تتذكري؟ كان ينتظرك لدى خروجك من المدرسة، ظهراً ومساء. يقف على الرصيف المقابل ويترقب ظهورك بصحبة زميلاتك. ثم كان يسير وراءك، على مسافة طبعاً، إلى أن تبلغي بيتك... ألا يعني لك اسم أدهم صافي شيئاً؟ أمعقول أن يكون قد خصّك بهذا الحب العظيم من دون أن تتنبهي حتى لوجوده؟". فقلت له، بصدق وأسى: "هذا شيء مؤسف، بل مؤلم. ولكن ما حيلتي؟... ربما لو شاهدت صورته لتحرّكت ذاكرتي. أما اسمه، فهو بصراحة لا يعني لي شيئاً على الإطلاق". أشار الرجل بيده أن لا بأس به، ثم أعاد تثبيت نظارته على أنفه وفتح المظروف الكبير الذي سهونا عن وجوده بحديثنا عن ذلك المحب المجهول؛ وقال، وهو يسحب منه ورقة مطوية ويفتحها بتؤدة: "قبل أن أتلو عليك نص الوصية بحذافيره أود أن أختصر لك فحواه. فقد أورثك السيد أدهم صافي شقة مؤثثة فخمة، هي عبارة عن دوبلكس، مساحتها ٢٢٠ متراً مربعاً وتقع في جادة هنري مارتان". ندت عني صفرة إعجاب فضحك الرجل وأضاف: "مهلك، فهناك مفاجأة سارة أخرى. فقد أورثك أيضاً السيد أدهم صافي مبلغاً ضخماً من

المال". سألته بلهفة: "مليون فرنك؟" فأجاب: "بعد حسم كافة الضرائب المترتبة على الإرث والهبات، يتبقى لك مبلغ إجمالي قدره ٢٢ مليون فرنك!..." نظر إلي الرجل وهو يبتسم. كبحت فرحتي ومنعتها من الانفجار ريثما أطمئن تماماً على وضعي الجديد. سألته: "هل هذه الوصيّة قانونية؟" رد على الفور: "سيدتي، أنت في حضرة كاتب عدل!". فأردفت أقول: "ليس هذا مقصدي. بل أردت أن أعرف إن كان هذا الإرث يحق لي. أفلم يكن للسيد صافي زوجة؟ أولاد ؟ أقارب؟.." "لم يتزوج يا سيدتي"، أجابني الرجل، "له بعض الأقارب، أبناء عم على ما أعتقد. وقد أعطاهم الكثير عندما كان لا يزال على قيد الحياة. من الناحية القانونية ليس ثمة ما يمنع أن تستفيدي من هذه الوصية". عند ذلك فقط أطلقت صرخة فرح. وقلت لجان مارشان الذي أخذ يضحك ملء صدره: "أليس لديك شمبانيا كي نحتفل بهذه اللحظة التاريخية؟" فأجابني الرجل بعد أن هدأت نوبة السعال التي أعقبت ضحكه: "لدي ماء غازي فحسب". قلت له: "من الآن فصاعداً لن أشرب إلا الشمبانيا. وشرط أن تكون من أفخر الأنواع!" "بالمناسبة"، قال الأستاذ "هنالك شرط وضعه أدهم صافي. فكي يحق لك الإرث ينبغي..." قاطعته قائلة: "ينبغي ماذا؟ أن أضع زهوراً على قبره يوم عيد الأموات؟ يا سيدي، أنا مستعدة لزيارة قبره كل أسبوع!". عاد جان مارشان يضحك، وبعد ذلك قال: "إن الشرط الوحيد الذي فرضه عليك هو أن تقطني في داره. فهل أنت موافقة؟" أجبته قائلة: "لو طلب منك يا أستاذ أن تختار بين دوبلكس أنيق،

فسيح، كائن في جادة هنري مارتان في باريس وشقة صغيرة، متواضعة، كائنة في برج كئيب وفي ضاحية شعبية، فماذا يكون جوابك؟" قال: "أختار الدوبلكس. دون لحظة تردد واحدة!". "هذا هو الصواب بعينه"، أجبته "ومع أن هذ الإرث خليق بخلخلة أكثر العقول اتزاناً فإني لم أفقد صوابي بعد! سأقطن يا أستاذي في دار أدهم صافي، ومخيّرة لا مكرهة!".

وهكذا كان.

ومع كامل أفراد عشيرتي الصغيرة انتقلت من شقتي النكرة، من برجي الجماعي، من ضاحيتي الشعبية، إلى جادة هنري مارتان. وعلى متن عبارات الإعجاب، وضجيج الضحكات، وتضارب التعليقات، حططت مع عائلتي في الدوبلكس الرحب الذي احتوى من الأثاث الأنيق والفاخر ما فاق تصورنا جميعاً. وفيما كنت أصغي إلى ذاك يقول "والله، لكأننا في معرض للتحف والمفروشات"، وأستمع إلى تلك تؤكد "ليس بين زميلاتي كافة من يملك نصف هذه الدار"، وأدعى من قبل بكر أولادي إلى الخروج إلى الشرفة، لأمتّع ناظريّ بمشهد "يبهج النظر ويطيل العمر" كنت أردد وأنا في حالة من النشوة: "هذه هي الدار التي طالما حلمت بها".

مع انتقالي إلى جادة هنري مارتان فتحت صفحة جديدة في حياتي. أو هكذا خيل إلي في البدء... فقد استقلت من عملي في المصرف، إذ بت أملك من المال ما يغنيني عن مرتب البؤس الذي كنت أتقاضى، واستقلت أيضاً، إلى حد كبير، من عملي المنزلي، متنازلة عنه برحابة

صدر إلى خادمة تأتيني في الصباح ولا تغادر إلا بعد الغروب. وعرفت سعادة الانعتاق من العمل، بعد طول رزوح تحت عبئه، وأدركت من جديد معنى "أوقات الفراغ"، وكدت أنسى حتى وجود هذه العبارة التي بقيت، لعقود من الزمن، محرّمة التداول في قاموس حياتي اليومية. والجهد الوحيد الذي غدوت مطالبة ببذله اقتصر على ملء أوقات الفراغ، تلك، على النحو الأمثل. وهكذا عدت إلى النزهات الطويلة في الصباح الباكر، إلى جلسات التأمل على الشرفة، إلى سماع الموسيقى، إلى ارتياد دور المسرح والسينما، إلى المطالعة ساعات متلاحقة، إلى الإبحار مع الأحلام. عدت إلى مراهقتي. عدت إلى نفسي، وقد أسعدني لقاؤها بعد أن أضلّتني عنها دوامة الأعباء والمسؤوليات.

وتحتم علي البحث عن صانع سعادتي... فقد كنت أدين له بهذا العهد الجديد الذي بدأ مع استملاكي بيته وإرثه. ولئن انشغلت عنه في الأسابيع الأولى التي تلت انتقالي إلى جادة هنري مارتان، فإن الرغبة في التعرف إليه وفي سبر سرّه بدأت تستحوذ عليّ مع انتظام إيقاع حياتي الجديدة. ولم يكن من اليسير الكشف عن هوية المدعو أدهم صافي. فالدار التي خلّفها لي ما كانت تحمل بصماته. لاريب في أنه أشرف على تأثيثها، وانتقى التحف العديدة التي زينت أركانها. غير أنه لم يعش فيها بما فيه الكفاية ليسمها بميسمه. أكثر من ذلك: فإن هذه الدار بدت وكأنها قد أثثت برسمي لا برسمه. فما حاجة هذا الرجل الذي عاش وحيداً إلى هذه الشقة الواسعة؟ ولماذا جعل ثلاثاً من غرفها للنوم؟ ولماذا اقتنى تلك الأعداد الضخمة من الكتب وخصّها

بغرفة، وهو مقاول ورجل أعمال كثير التنقل؟ ولماذا لم يترك صورة واحدة له معلقة على جدار في صالون من الصالونات، أو في مكتبه، أو حتى في غرفة نومه؟ أيعقل أن يكون قد عاش حقاً في هذه الدار من دون أن يترك أثراً واحداً له؟ فخزانته كانت خاوية من الثياب، وثلاجته من الطعام، ودروج مكتبه من الأوراق. ومنذ استقر بي المقام في داره لم أتلق اتصالاً واحداً من شخص من معارفه يسأل عنه. وحاولت اللجوء إلى الكاتب العدل لأعرف المزيد عنه. لكن جان مارشان تأبى عن إشباع فضولي. قال لي، عندما اتصلت به هاتفياً أطلب منه موعداً "لا للعمل بل للحديث عن أدهم صافي": "سيدتي لا أرى داعياً لهذا اللقاء. فلقد انتهت مهمتي مع تسليمك الإرث".
وعدت إلى ذكرياتي أنقّب فيها عن وجه بلا اسم عبر عهد مراهقتي، بيد أن جميع وجوه الماضي التي نجحت في استحضارها كانت معروفة الهوية بالنسبة إلي. وقلّبت بين رفوف المكتبة علني أكتشف، من خلال عناوين الكتب، جانباً من شخصيته. فالمثل الشائع يقول: "قل لي ماذا تقرأ، أقل لك من تكون"... لكن أدهم صافي لم يكن يقرأ على ما يبدو... فالكتب التي زينت الرفوف الخشبية كانت لا تزال بكراً، جديدة، برّاقة، لم تمسها يد! وكان بعضها أدبياً، وبعضها اقتصادياً وقانونياً. وقد عثرت بينها، أيضاً، على مؤلفات علمية وفنية. فلماذا اقتنى هذه الكوكبة المتنوعة من الأعمال التي لا يجمع بينها قاسم مشترك؟ وما الذي دفعه إلى جمع الكتب، ما دام لا يهوى المطالعة؟ عجيب أمر هذا الإنسان! فلقد أحبني، هذا شيء مؤكد بدليل وصيته.

غير أنه لم يحاول، ولو مرة واحدة، أن يلفت انتباهي، أن يسترعي اهتمامي، أن يجعلني أشعر بأنه موجود وبأنه يكنّ لي حباً لا يعرف الحدود. فلو رمقني بإلحاح، عندما كان يقف على الرصيف المقابل لمدرستي، أسوة بالعديد من المراهقين سواه، لأدركت بأنه موجود. لو تقفى أثري وسار خلفي، مجازفاً بعبارة، بكلمة تنم عن إعجابه، عن رغبته في التحرش بي، لانطبعت صورته في ذاكرتي. ولو لم يتعمد محو آثاره في الدار التي خلّفها لي، لتسنى لي أن أمسك بأطراف خيوط قد تقودني إليه. لكن ما حيلتي معه ودليلي الوحيد على هويته مقتصر على اسم، على كلمتين: أدهم صافي؟

كان بوسعي طبعاً أن أشطب على وجود هذا المورث الغامض وأن أسقطه نهائياً من حسابي. ولو فعلت، لما لامني: فكما حرص على ألا يفرض نفسه عليّ في حياته، كذلك شاء أن يسلمني داره خالية من بصماته بعد وفاته. ولكن عزّ علي، مع ذلك، أن أطرده من أفكاري، من وجداني. فقد وهبني هذا الإنسان حياة جديدة؛ أعتقني من القيود والإكراهات المادية كافة؛ أعاد إلي ثقة مطلقة في نفسي؛ وهو، علاوة على ذلك كله، منحني حرية تصوّره على النحو الذي أشاء! فلو ارتأيت أن أتخيله وسيماً، لاستطعت. ولو شئت أن أعتبره آية في الذكاء، لما حُرِّم عليّ هذا الخيار. ولو أردت أن أخلع عليه أفضل الصفات، من رهافة الإحساس، إلى رحابة الصدر، إلى التعالي عن الصغائر، إلى الذوق الفني الرفيع، إلى الغيرية والسخاء، إلى عمق البصيرة، لما اصطدمت بعائق، بنوع من "الفيتو" يعيدني إلى الواقع. فلأني كنت

أجهل كل شيء عنه، باستثناء أنه كان يحبني، فقد أعطيت نفسي الحق في أن أعيد خلقه على النحو الذي أبغي. وهكذا فعلت. ويوماً بعد يوم، ولمسة بعد لمسة، اكتملت صورة أدهم صافي. صورة صديق حالم، ميّال إلى الحزن، عزيز النفس، ضعيف أمام الجمال؛ صديق محبّ ومتفهّم لا أعاني معه من مشقة في التعبير عما يختلج به صدري؛ صديق ما عدت أخفي عنه شيئاً، بل ألوذ بحماه كلما أصبت بجرح أو ألم.

وتوطدت علاقتي معه... إلى حد إبعادي عمن حولي، عن أفراد أسرتي بالذات! وما عدت أحتمل عبارات التهكم على "المرحوم" الصادرة عن ولد من أولادي. وقد اتفق لي أن زجرت بكر أولادي بعنف يوم قال، وهو يشير إلى الآنية الفاخرة التي بتنا نتناول فيها طعامنا: "خير ما فعله المرحوم هو أنه ارتحم!" وبدأ سلوكي يتبدل؛ انطويت على العالم الذي خلقته مع أدهم صافي ومن حوله، وكدت أن أشطب كل ما عداه. انصرف اهتمامي عما يدور من حولي، وغدت علاقتي مع أقرب الناس إليّ علاقة آلية: إذا ما كلمت أحدهم أو أفصحتُ عن رأي طلب إلي إبداؤه، أو تدخلت في شأن بعد إلحاح، تصرفت كمن يعير نفسه إعارة.

في البدء، وجدت في ذلك الوصال الدائم مع أدهم صافي سعادة ومتعة. ولم أدرك خطورة الدوامة التي زججت نفسي فيها طواعية إلا بعد أن ترسّخ أسري وانغلقت دائرته. فقد بت أعيش مع أدهم صافي ولا أطيق العيش مع سواه. ولم أصح على شذوذ سلوكي إلا يوم فاجأت

صغرى بناتي تبكي بصمت في غرفتها. استفسرت بإلحاح عن سبب حزنها فأبت أن تجيب. جلست بقربها، أحطتها بذراعيّ ورحت أهدهدها وكأنها طفل رضيع. عند ذلك فقط قالت بأسى وعتاب: "لماذا تبتعدين عنا؟".

حاولت المستحيل للخروج من القفص الذي ضمني وأدهم صافي. أنّبت نفسي بعنف؛ جاهدت، ناضلت كيما أتحرر من قبضته. وإزاء فشل مساعيّ كافة اضطررت إلى التسليم بضرورة خروجي من داره. فلن أفلح في الانعتاق من عالمه مادمت أسيرة هذه الدار. وفكرت ببيعها. واتصلت بالكاتب العدل جان مارشان أستفسر عن الإجراءات التي يتحتم علي القيام بها. غير أنه أفهمني، بلا مواربة، أن مشروع بيع الدار غير وارد على الإطلاق وأن إقامتي في سواها تجردني من حقي كاملاً في الإرث. قال لي بالحرف الواحد: "سيدتي، عليك أن تضعي دوماً نصب عينيك هذه الحقيقة: إن مغادرتك دار أدهم صافي تعني تخليك لا عن ملكيتها فحسب، بل عن الأموال التي خلّفها لك أيضاً. كامل الأموال. وإذا كنت قد أنفقت منها، فسترغمين على تسديد الدين الذي ترتب عليك". والحال أني كنت قد أنفقت من ذلك المال، بل أنفقت الكثير... حاولت أن أغري الرجل بأن عرضت عليه ملكية الدار مقابل احتفاظي بالملايين الباقية. فرفض. تخليت عن الأموال، واقترحت أن أهبها لمشروع خيري، وإنما منقوصة من المبالغ التي أنفقت. فأجابني: "من حقك أن تفعلي ما تشائين بالمال، شرط أن تظلي مقيمة في الدار. لكن إذا أصررت على مغادرتها، تعيّن عليك تسديد الأموال بأكملها، أي ٢٢ مليون فرنك بالتمام". أفهمته أني لا أستطيع تأمين مثل هذا المبلغ قبل فترة طويلة، هذا إذا

ما أفلحت في تأمينه؛ فقد أنفقت في شهور ما أحتاج إلى سنوات من العمل لجنيه. ناهيك عن أني قد استقلت من عملي وغدوت في سن يصعب معها العثور على عمل جديد. فأجابني ببرود: "لا دخل لي في هذه الاعتبارات. فالمسألة تخصّك أنت، وعليك الاهتداء إلى الحل المناسب". وخرجت عن طوري وصرخت بانفعال: "ولكن لمَ هذه التعقيدات؟ وماذا يهمك أنت إن بقيت أنا في الدار أو غادرتها؟ ومن الذي سيحاسبك، أو سيحاسبني، على تقيدي أو عدم تقيدي بشرط الإقامة في دار المغفور له أدهم صافي؟..." وأخذ جان مارشان لهجة رجل القانون الصارمة ليقول لي: "أما من سيحاسبني أنا، فهذه قضية تتجاوزك يا سيدتي. أما من سيحاسبك أنت، فأنا أيتها السيدة؛ فقد اؤتمنت على تنفيذ وصية ولن أسمح بخرق بند من بنودها. لتكن الأمور واضحة بالنسبة إليك: لن أتهاود معك". أجبته، وقد بدأ اليأس يستحوذ عليّ: "يا أستاذي، لو لم تصبح إقامتي في هذه الدار مضنية، لا تطاق، لما سعيت إلى مغادرتها. لا أستطيع أن أشرح لك وضعي، ولكن ثق أنك بإرغامي على لزوم هذه الدار إنما تتصرف على نحو غير إنساني! جد لي حلاً معقولاً، أرجوك!". بيد أني لم أحصل منه إلا على هذا الجواب اليتيم: "لقد خيّرت في قبول الإرث أو في رفضه؛ لم يفرض عليك فرضاً. وما دمت قد وافقت عليه، فعليك تحمل تبعيات خيارك".

وهكذا حكم عليّ بالأسر المؤبد في دار أدهم صافي. الناس من حولي يعجزون عن فهم ما أعاني. يتوقعون مني أن أتصرف كشخص طبيعي. فكيف أجعلهم يدركون أني أعيش في صحبة ميت؟

هاشم وهشام

رمى هاشم سمّاعة الهاتف وأطلق سيلاً من الشتائم. فقد انفق أكثر من ساعة في الاتصال بالأساتذة المفكرين المتعاملين مع المجلة من دون أن يفلح في انتزاع وعد من أحدهم بتحرير زاوية "المنبر الحر" لهذا الأسبوع. فهذا مشغول بوضع اللمسات الأخيرة على كتاب جديد، وذاك عازم على السفر للمشاركة في أعمال ندوة، وثالث مرتبط بمواعيد هامة تحول دون تفرغه لكتابة "ولو سطر واحد". "لعنة الله عليك وعلى كتابتك". قال هاشم وهو يستذكر حواره على الهاتف مع ذلك الدعي الذي من عادته أن يكرر ممجوج الكلام بمهابة من يكشف عن أسرار سماوية!... ولكن من أين يأتي بزاوية الشؤم تلك قبل صباح الغد؟ أعاد تقليب صفحات مفكرته من غير أن يهتدي إلى اسم منقذ محتمل. فقد استنفد لائحة الكتّاب الذين "يحوزون ثقة المجلة"، باستثناء الأستاذ الكبير، الدكتور ط. ظ كما كان يسميه. وبعد أخذٍ وردٍّ طويلين مع كبريائه المطعونة - فمن عادة الأستاذ أن يخاطبه من عليائه على الهاتف، ويبخل حتى بإلقاء التحية عليه عندما يحضر إلى المجلة ليتقاضى أجر مقالاته - عزم على الاتصال به، عساه يحصل منه على "منبر حر" في صبيحة يوم الغد. بيد أن صوت زوجة الأستاذ، عندما جاءه على الطرف الآخر من الخط، بدَّد

آخر أوهامه. فالدكتور طريف ظافر قد أدخل إلى المستشفى لإجراء عملية جراحية! دعا له بالشفاء العاجل، وهو يخاطب الزوجة، وتمنى لو يتغمده الله برحمته بعد أن أغلق سماعة الهاتف... نظر إلى ساعة معصمه متأففاً: كانت عقاربها تشارف على السابعة. لقد آن أوان الانصراف. أعاد ترتيب أوراقه على المكتب، أفرغ المنفضة الزاخرة بأعقاب السجائر في سلة المهملات، نهض، تناول سترته المعلقة على المشجب وارتداها متمهلاً. وقبل أن يطفئ النور ويغادر مكتبه في المجلة كان قد حسم أمر الزاوية: فلسوف يتولى هو كتابتها... على أن يوقعها باسم مستعار! فالسيد رئيس التحرير لا يرحب بمشاركة عضو من أسرة المجلة، حتى ولو كان في مرتبة رئيس قسم، في كتابة "المنبر الحر". وحجته في ذلك أن هذا الباب موقوف على "المفكرين" ليعبّروا فيه عن آرائهم.

ما إن بلغ هاشم شقته الكائنة في الطابق العاشر من برج شاهق حتى سارع يعد لنفسه إبريقاً من القهوة. خلع بزّته، ارتدى جلبابه الصوفي، أخرج من محفظته كدسة من الأوراق ووضعها على طاولته. أحضر بعد ذلك ركوة القهوة وجلس إلى العمل مشجعاً نفسه عليه قائلاً: "هيا يا بني! خير لك أن تمضي سهرتك في كتابة زاوية تافهة على أن تسمع غداً تأنيب رئيس التحرير. فأنت المسؤول عن القسم الأدبي في مجلة النحس هذه. والمطبعة لن تمهلك يوماً واحداً. فغداً تطالبك بكامل مواد القسم، ربما فيها "المنبر الحر" المزعوم. والويل إن لم يكن جاهزاً للسوق إلى الطبع!"

كان هاشم، في طريقه إلى بيته، قد استعرض الموضوعات التي جرت العادة على معالجتها في هذه الزاوية، ولكن ليستبعدها تباعاً. فلا هو براغب في الكلام عن التراث، ولا الخوض في حديث عن الأخطار

المحدقة بالهوية القومية، ولا في إضافة شرح جديد إلى ما استوفى حقه من الشرح عبر القرون. وحتى لحظة جلوسه إلى طاولته كان لا يزال يجهل أي موضوع سيطرق في منبره الحر الملفّق. ومع أنه أمسك بقلمه وانحنى فوق أوراقه فارضاً على نفسه وضعية الكتابة، على أمل أن تترفق به الأفكار فتهبط عليه سخية، فقد مكث لحظات طوالاً عاجزاً عن خط حرف واحد. نهر نفسه قائلاً: "ما بك يا هاشم؟ ألم تعد قادراً على طرح فكرة ومعالجتها؟ هل استفحل العقم في عقلك وفي خيالك إلى حد شل يدك عن الكتابة؟". لكن هذا التوبيخ لم يأت بالمردود المرتجى. فقد بقي قلمه جامداً في يده، وبقيت الأوراق تتحداه ببياضها الناصع. نظر إلى ساعته. كانت عقاربها تشير إلى العاشرة. بعد ساعتين ينتصف الليل ومنبره الحر لا يزال ينتظر من يملأ فراغه! لكن بماذا يملأ هذا الفراغ وقد تجمّد عقله عن الاشتغال بعد طول عمل مكرب في مجلة يحتقرها؟ وتذكر رئيس التحرير وتخيله يلقي عليه خطابه التأنيبي لإهماله تأمين الزاوية في موعدها المحدد، فعاد يشجع نفسه قائلاً: "هيا يا هاشم، اعصر دماغك قليلاً". وهنا أطلق ضحكة طويلة اهتز لها قلمه. فلماذا يخاطب هاشم ما دام "آخر" هو الذي سيتولى كتابة الزاوية؟ شخص آخر يفترض فيه أن يفكر بطريقة أخرى ويكتب بأسلوب آخر. شخص متحرر من أجواء المجلة، ومن اعتباراتها السياسية والمالية؛ ومن حساباتها القريبة والبعيدة، ومن عداءاتها وصداقاتها، ومن كل ما من شأنه أن يفسد متعة الكتابة ويحيلها إلى مهمة مضنية وشاقة. لكن، ماذا عساه يقول هذا الشخص الآخر فيما لو دعي لكتابة "المنبر الحر"؟ سيقول "لا" حتماً. وللحال قبض هاشم على قلمه وبدأ بتسطير عنوان مقالته: "ما

أروع أن تقول لا!". وبأقل من ساعة كان قد أنجز صياغتها ووقّعها باسم هشام الصدّيق. غير أن مهمته لم تنته عند هذا الحد. فمن عادة المجلّة أن ترفق زاوية "المنبر الحر" بصورة كاتبها. هذا تقليد يحرص المخرج على التقيد به. وقد حصل ذات مرة أن رفض نشر زاوية لكاتب مرموق لتعذر تأمين صورة شخصية له. "حسناً!" قال هاشم، ستكون هنالك صورة للسيد هشام الصدّيق. أخرج من الدرج السفلي لمكتبه ألبوم صور قديماً وراح يقلب صفحاته. وقع اختياره على صورة شخصية له كان قد التقطها بمناسبة تسلمه دفتر جنديته، وقد بدا فيها شاباً وسيماً، جادّ الملامح، مستقيم النظرات، مفعماً بالثقة والأمل. تأمل في الصورة ثم نهض عن مقعده وقصد الحمّام حيث المرآة اليتيمة في شقته الصغيرة. تفحص وجهه طويلاً، أزاح خصلة الشعر التي تغطي جبينه، قطب حاجبيه، ابتسم، زمّ شفتيه، أعاد رأسه إلى الخلف، أدارها يمنة ويسرة، ولكن هذه الحركات كافة ما أفلحت في أن تبعث في المرآة صورة الشاب الذي كان. "عظيم!" ردد هذه الكلمة أكثر من مرة فيما كان يجر خطواته باتجاه مكتبه ويشكّ الصورة الفوتوغرافية مع أوراق المقالة. ثم قال: "عظيم جداً! لئن تعذر عليّ أنا نفسي أن أتعرف في وجهي على الشاب الذي كنت، فمن الذي سيتعرّف عليّ في صورة ذلك الشاب؟". وقصد هاشم فراشه مفعماً بذلك الإحساس بالرضى وبالراحة النفسية التي لا يعرفها إلا من أنجز مهمة كانت قد تراءت، في البداية، مستحيلة.

في صبيحة اليوم التالي، وفيما كان هاشم منهمكاً في ترتيب المواد التي سيرسلها إلى المطبعة، دخل عليه رئيس التحرير مستفسراً عن سير العمل. طمأنه هاشم بأن كل شيء على ما يرام. هزّ رأسه كما هي عادته

عندما يكون راضياً، بيد أنه عاد يسأل، قبل أن يغادر الغرفة: "من كتب "المنبر الحر" لهذا الأسبوع؟" فأجاب هاشم الذي كان يتوقع هذا السؤال "كاتب شاب. إنه موهوب وإن كان مغموراً". ندت عن رئيس التحرير همهمة، فأدرك هاشم أنه غير راض. لذلك سارع يضيف: "يستحسن إعطاء الشباب، بين الحين والآخر، فرصة للتعبير عن آرائهم، ثم إن...". قاطعه رئيس التحرير قائلاً: "لا. أرى ألا نستكتب في هذه الزاوية إلاّ الأشخاص الذين لهم أسماؤهم". وبعد لحظات صمت عاد يسأل: "وما الموضوع الذي طرقه هذا الشاب؟" كان هاشم يتوقع أيضاً هذا السؤال: فرئيس التحرير حريص جداً على ما يسمّيه بـ "خط المجلة"؛ لذلك أجابه على الفور وقد رسم على وجهه ابتسامة ساخرة: "بحث في أمور وجدانية لا تقدم ولا تؤخر وإن كانت تستثير حماسة الشباب". ندت عن رئيس التحرير همهمة جديدة كانت بمثابة آخر تعليق له قبل أن ينصرف.

أطلق هاشم تنهدة طويلة عندما أصبح وحيداً في مكتبه؛ فقد خشي لحظة أن يبدي رئيس التحرير عن رغبته في الاطلاع على "المنبر الحر" قبل إرساله إلى المطبعة...

بعد أسبوع على هذه الحادثة، وفيما كان هاشم يهمّ بمغادرة مبنى المجلة، فوجئ بالآذن يهرول خلفه على السلم ويبلغه، بصوت لاهث، رغبة رئيس التحرير في ملاقاته على الفور. عاد أدراجه على مضض - فقد كان لديه موعد عمل - ودخل على رئيس التحرير، الذي كان يجلس خلف مكتبه، مقطّب الحاجبين، متجهم القسمات. لم يرد على تحيته، بل سأله بلهجة قاسية، وهو يشهر في وجهه صحيفة من ورق أبيض: "ما معنى هذا؟" دنا هاشم من المكتب وتناول الصحيفة معتقداً بأنها تتضمن

جردة بأخطاء وقعت في مواد القسم الأدبي. بيد أنه أدرك على الفور خطأ تقديره. فالورقة التي أمسك بها كانت عبارة عن رسالة موجهة إلى رئيس التحرير، وقد قرأ فيها العبارات التالية: تحية وبعد. أوجه إليكم هذه الأسطر لأعبر عن احتجاجي على نشر مقالتي "ما أروع أن تقول لا" في زاوية "المنبر الحر" من عددكم الأخير. لست مهتماً بمعرفة كيفية حصولكم على نص هذه المقالة، فلمجلتكم أساليبها الملتوية في التطاول على نتاج الأدباء. ما يهمني بالمقابل - وإني أؤكدُ على هذه الناحية - هو أن تنشر مجلتكم، في عددها القادم، اعتذاراً يوضح بأن مقالتي قد نشرت بدون موافقتي ولا معرفتي. فأنا حريص على سمعتي وأرفض أن يقترن اسمي بمجلة لا أؤيد خطها إطلاقاً. هشام الصدّيق.

كان رئيس التحرير ينتظر منه جواباً، إيضاحاً، تفسيراً. غير أن البلبلة التي عصفت به شلّت فيه حتى القدرة على الكلام. وظلّ للحظات واقفاً كالمأخوذ، يحملق في الرسالة وفي كلماتها المتراقصة أمام عينيه. انتابته بعد ذلك رغبة عارمة في الضحك؛ بيد أنه كبتها، وبحركة، أرادها لا مبالية، رمى بالرسالة على المكتب وهو يقول: "شاب مغرور يتوهم أن من حقه أن يحاكم الناس لأنه خطّ جملتين". فارتفع صوت رئيس التحرير يقول بحدة وغضب: "سيان عندي إن كان هذا الشاب مغروراً أو غير مغرور! سؤال واحد أود أن تجيبني عنه: هل أعطى موافقته على نشر مقالته أم لا ؟" رد هاشم على الفور: "طبعاً؛ لقد وافق بكل تأكيد". لكن رئيس التحرير عاد يسأل: "هل هو الذي عرض نشر هذه الزاوية أم أنت الذي كلفته بكتابتها ؟" كاد هاشم أن يقول: "أنا الذي كلفته بكتابتها"، غير أنه عدل عن هذا الخيار ليقول، بعد لحظة تفكير:

"هو الذي عرض نشرها... فقد أرسل مقالته بالبريد مع كلمة أوضح فيها، على ما أذكر، رغبته في التعاون مع المجلة".

همهم رئيس التحرير مراراً ثم أصدر حكمه قائلاً: "حسناً. تتولى أنت إذن الرد على هذا المدعي في عددنا القادم. أود أن يكون الرد قاسياً... لا داعي لعرض مضمون رسالته. أرى أن تكتفي بفضح التناقض في موقفه، ما دام هو الذي بادر إلى التعاون مع المجلة". وبعد لحظة صمت أضاف: "بالمناسبة، هل احتفظت بالكلمة التي أفصح فيها عن رغبته في هذا التعاون؟ فمن المفيد جداً نشرها". تلعثم هاشم وهو يجيب: "لا أعتقد أني قد احتفظت بهذه الكلمة... لقد مزّقتها على الأرجح... سوف أبحث عنها بين أوراقي في مطلق الأحوال، فربما أجد لها أثراً". وأستأذن بعد ذلك بالانصراف موضحاً بأن موعد عمل ينتظره في الخارج. فودّعه رئيس التحرير بتأنيب أخير إذ قال له، فيما كان يهم بمغادرة مكتبه: "لن أقبل بأن تتكرر حوادث كهذه. احرص في المستقبل على التأكد من أخلاقية الكتّاب الذين نتعاون معهم". فعقّب هاشم على النصيحة التي أسديت له، قائلاً بينه وبين نفسه: "إذا ما جعلنا من استقامة الأخلاق شرطاً لاضطررنا إلى تغيير طاقم كتّاب المجلة بأكمله!".

في طريقه إلى موعده انشغل هاشم بإيجاد حل للأحجية التي طرحتها عليه رسالة المدعو هشام الصدّيق. فمن الذي كتبها ولماذا؟ أزميل في المجلة أراد الإساءة إليه؟ ذلك أن نية الإساءة واضحة، بدليل توجيه الرسالة إلى رئيس التحرير وليس إليه شخصياً. لكن معرفة العاملين في المجلة به حديثة العهد، ومن المستبعد أن يكون أحدهم قد تعرّف عليه في صورة تعود إلى قبل ربع قرن من الزمن. المقلب الذي

استهدفه هو، على الأرجح، فعلة خصم قديم. أو ربما صديق قديم شاء أن يسخر منه ومن عمله في مجلة تدافع عن مواقف وسياسات طالما كان قد طعن فيها في عهد شبابه. وتملكه شعور بالغيظ لدى استعراضه الاحتمال الأخير، ووعد نفسه بكتابة رد قاسٍ على ذلك المتعجرف الذي خوّل نفسه حق محاكمته. فهو، في النهاية، لا يعمل إلا في حقل الأدب ولقاء مرتب شهري وضيع، معقول ليس أكثر. وكيما يتقاضى هذا المرتب فإنه يتحمل ما لا يحتمل. فليخرس إذن هذا المدّعي المتستر خلف شخصية هشام الصدّيق الوهمية.

لكن هاشم، خلافاً لما تعهد به أمام رئيس التحرير وأمام نفسه، لم يكتب الرد. فقد خشي، في اللحظة الأخيرة، من التورط في لعبة قد تتجاوزه، من الانزلاق في فخ محتمل نصب له. راهن على نسيان رئيس التحرير، المشغول بمسائل أكثر منفعة وجدّية، وقرر أن ينسى بدوره هذه الحادثة التي كان سيعتبرها طريفة ومثيرة معاً، فيما لو كانت قد وقعت لسواه.

مضى يومان على صدور العدد التالي من دون أن يستفسر رئيس التحرير عن أسباب عدم نشر "التوضيح" المطلوب. فاستبشر هاشم خيراً واعتبر صفحة هشام الصدّيق مطوية. لكن، في اليوم الثالث، وفيما هو غارق في إعداد مواد قسمه للطبع، جاءه صوت رئيس التحرير على الهاتف يدعوه إلى الحضور فوراً إلى مكتبه. وما إن دخل عليه حتى أدرك أن متاعب جديدة تنتظره. فقد كان رئيس التحرير في حالة انفعال شديد؛ بدليل الطقطقة التي تحدثها أصابع يده اليمنى على خشب المكتب. بادره على الفور قائلاً: "لقد أهملت كتابة الرد الذي طلبته منك. لماذا؟". تعذر على هاشم إيجاد جواب فوري؛ فقد باغته التطور

الجديد. مكث صامتاً للحظات ثم قال، مصطنعاً لهجة من يفصح عن أمر بديهي: "وما الفائدة من الرد على هذا الكويتب؟. يقيني بأنه لم يرسل لنا مقالته إلا ليلحقها باحتجاج على نشرها. فهو يطمع حتماً في إثارة فضيحة تعود عليه بالشهرة... ولو أخذناه على محمل من الجد، وكتبنا ندافع عن أنفسنا ونكشف نفاقه، لأتينا بالماء إلى طاحونته... خير لنا أن نتجاهله. فصمتنا يضطره إلى لزوم الصمت".

أطلق رئيس التحرير ضحكة ساخرة وقال، وهو يلتقط من على مكتبه صحيفة من الورق الأبيض ويقدمها إلى هاشم: "صَمَتْنا فلم يصمت! تفضل، رسالة جديدة من كويتبك".

أخذ هاشم الرسالة على مضض واستأذن بالانصراف. لكن رئيس التحرير حال دون انسحابه وطلب منه الاطلاع مباشرة على نصها وإفادته على الفور بجوهر ما سيكتبه رداً على هذا الاستفزاز المكرر. سحب هاشم كرسياً، جلس عليه وراح يقرأ: "السيد رئيس التحرير. للمرة الثانية أكتب إليكم طالباً توضيحاً بصدد مقالة نشرتموها لي بدون موافقتي. فمنذ تاريخ صدور هذه المقالة وأنا أخجل من الظهور بين أصدقائي؛ فهذا يتهمني بالاتجار بمثلي العليا وذلك يسألني بخبث كم دُفع لك لتبيع نفسك؟ إن لم ينشر التوضيح في عددكم القادم فسوف ألجأ، مكرهاً، إلى طرق أخرى لفضح أساليب مجلتكم الخبيثة في الاحتيال على نتاج الشرفاء من الكتّاب. هشام الصدّيق".

فرك هاشم عينيه بعد أن انتهى من مطالعة الرسالة وقال، وهو يطويها بتأنٍ: "حسناً! ننشر التوضيح المطلوب في العدد المقبل... توضيح مقتضب يكفينا شر هذا الأحمق". "لا" قال رئيس التحرير بلهجة ناهية "لن نكتفي

بنشر توضيح. نخصص زاوية "المنبر الحر" للرد. نبدأ بكشف حيلة هذا الوقح وكيف أنه أرسل لنا مقالته كيما يولع فتيل فضيحة أدبية تذيع اسمه المغمور وتعود عليه بالشهرة. فأنا أوافقك، بالمناسبة، على تحليلك لسلوكه. وبعد ذلك نتناول ما جاء في تلك المقالة من آراء هدّامة ونفّندها تباعاً. وهكذا نكون قد لقّنا هذا المغرور درساً وخدمنا، في آن معاً، الخط الذي تدافع عنه المجلة". وبعد لحظة صمت أردف يقول: "تتولى أنت كتابة الزاوية وأوقعها أنا باسمي لإعطائها المزيد من الوزن".

اكتفى هاشم بهز رأسه للتعبير عن موافقته. فمشروع رئيس التحرير لم يرق له على الإطلاق، لكن كان عليه أن ينصاع. وعشية ذلك اليوم، بعد أن عاد إلى شقته، حاول تأدية المهمة التي كلّف بها. غير أنه لم يفلح. فقد كان مرهقاً ويشكو من صداع خفيف. أرجأ كتابة الزاوية إلى يوم الغد. بيد أنه عندما فرش أوراقه على مكتبه في المجلة، وفي نيته المباشرة بالكتابة، عاوده صداع الأمس. احتسى فنجاناً من القهوة ودخن سيجارة، فاشتد الصداع. غادر المكتب، قام بنزهة قصيرة تحت شمس خريفية ناعمة فأحس بشيء من الانفراج. عاد أدراجه إلى المجلة، جلس خلف مكتبه، قبض بعزم على قلمه وخط في أعلى ورقة بيضاء كلمتي: "المنبر الحر". ومع أنه ظل قابضاً على القلم بالعزم عينه فقد تعذر عليه تسطير كلمة واحدة أخرى. وعاوده الصداع شديداً، مقترناً هذه المرة بشعور بالغثيان. تلمس جبينه ليتبين ما إذا كان محروراً. كان جبينه بارداً، ولكن يتصبب عرقاً. فتساءل: "أتراني مريضاً؟" ثم قال: "ولمَ لا أكون مريضاً؟". وخلص إلى هذا الاستنتاج: "مادمت مريضاً فمن حقي أن أرتاح". وبسرعة فائقة لملم أوراقه، ارتدى سترته وغادر المكتب قاصداً شقته.

لم يحضر إلى المجلة في اليوم التالي بل اتصل هاتفياً ليعلم الإدارة بأنه مصاب بوعكة صحية ألزمته الفراش. وظل ملازماً فراشه ومتغيباً بالتالي عن العمل حتى صدور العدد الجديد. عند ذاك فقط استأنف نشاطه.

كان يتوقع أن يبادر رئيس التحرير إلى الاستفسار عما ألمّ به، ولو من باب الشكوى، من المتاعب التي سببها تخلفه عن العمل فترة إقفال العدد الحرجة. غير أنه تجاهل غيابه كلياً؛ أكثر من ذلك، لم يسأله عن مصير "المنبر الحر" الذي استنكف عن كتابته. وكان هاشم، في مطلق الأحوال، قد حسم أمره بخصوص هذه الزاوية: لن يكتبها حتى ولو عاود رئيس التحرير طلبها. فعلى لسان هشام الصدّيق دافع عن قيم عهد براءته. ولئن يكن قد تخلى عن هذه القيم مرغماً، فإنه لن يتنكر لها على لسان رئيس التحرير! لاسيما وأن مجرد التفكير بالحجج والذرائع التي سوف يتوجب عليه أن يسوقها لتفنيد آراء الصدّيق يوقظ صداعه ويحمله على التقيؤ.

اقترب موعد إقفال العدد التالي. الدكتور ط. ظ، الذي تعافى من عمليته الجراحية، رأى من واجبه أن يشكر الباري على رأفته فكتب، برسم "المنبر الحر"، مقالة هاجم فيها بعنف وشراسة كل من تسول له نفسه أن يدعو إلى العلمانية. وكان عاشم يتهيأ لإرسال المقالة إلى المطبعة مع عدد من المواد الأخرى عندما فوجئ برئيس التحرير يدخل عليه. كان يبتسم برضى وقد أمسك بيده بضع أوراق. قال وهو يضع الأوراق على مكتب هاشم: "هذا منبرنا الحر للعدد القادم". فأجاب هاشم: "ولكن الدكتور طريف ظافر أرسل لنا زاوية...". فقاطعه رئيس التحرير قائلاً: "نرجئ زاوية الدكتور ظافر إلى عدد لاحق". ثم أردف يقول: "صاحبك الصدّيق هدّد في رسالة جديدة بإثارة خلافه معنا على صفحات مجلات

أخرى إذا مكثنا لا نجيب على احتجاجه. وما دمت قد استصعبت أنت التصدي له، فقد توليت شخصياً الردّ عليه. اقرأ ردّي لتتعلم كيف ينبغي تحجيم أشباه هؤلاء المثقفين والكتّاب".

أخذ هاشم المقالة وراح يقرأ بجد وتأنٍ. وعندما انتهى نظر إلى رئيس التحرير الذي انتصب أمامه، في كامل غطرسته، يترقب عبارات الثناء والمديح. غير أن هاشماً اكتفى بأن قال: "بأي حق تهينُ هذا الشاب وتشتمه؟". بدا على رئيس التحرير وكأنه لم يصدّق الكلمات التي ترامت إلى مسامعه، فسأل، بين مستفسر ومستنكر: "بأي حق؟". فتابع هاشم يقول: "أجل، بأي حق؟" فصاح رئيس التحرير وقد بدأ يخرج عن طوره: "تدافع عن سفيه منتفع ومدسوس يشكك في خط المجلة ويلصق بها أبشع الاتهامات، وتجرؤ على معارضتي لأني مارست حقي الشرعي في الدفاع عن مجلتي؟". ومع أن هاشماً أراد أن يمسك عن الكلام فقد وجد نفسه يقول، كما لو كان رغماً عنه: "لكن هذه الاتهامات ثابتة، وأنت أدرى الناس بصحتها!"

كان لهذا التجريح السافر وقع صاعقة على رئيس التحرير. شحب وجهه، ارتجفت شفته السفلى وانهالت قبضته بضربات عنيفة على المكتب. حاول أن يقول شيئاً، لكن الكلمات اختنقت في حلقه، فاكتفى بأن يشير بإصبعه الممدود إلى الباب، مشعراً هاشماً بقرار إقالته. هز هذا الأخير كتفيه استخفافاً، ثم نهض من خلف مكتبه؛ تناول سترته المعلقة على مشجب، ارتداها بلا استعجال وغادر المكان بدون إلقاء تحية على رئيس التحرير الذي لبث متجمداً في مكانه.

مضت أيام أنفقها هاشم في بحث غير مجدٍ عن عمل جديد. وذات

صباح، وفيما كان يتناول قهوته وهو يقلّب صحفاً ومجلات قديمة، رن جرس الهاتف. رفع السمّاعة فجاءه صوت رئيس التحرير مصبِّحاً ومستفسراً عن أحواله. رد عليه بالعبارات التقليدية المألوفة وهو يتساءل، في صميمه حول ما يخفيه هذا الاتصال غير المرتقب. ولم يتساءل طويلاً، إذ سرعان ما كشف رئيس التحرير عن نياته قائلاً بلهجة ودّية: "اقترب موعد إقفال العدد الجديد يا هاشم وتراكم العمل على الزملاء. فهل يسمح لك وقتك بالمرور على المجلة... وتقديم بعض المساعدة؟". لم يدلِ هاشم بجواب، لعجزه عن الحسم بين رغبتين تنازعتاه بقوة. صبوته الجامحة إلى البقاء خارج المجلة، بعيداً عن أجوائها العفنة الخانقة، وحاجته الماسة إلى عمل يكفل له دخلاً معقولاً. عاد رئيس التحرير يقول، وقد فسر صمته على أنه دعوة إلى إعطاء المزيد من الإيضاحات: "يا هاشم، إذا كنت راغباً في العودة إلى العمل، وفي تحمل مسؤولياتك من جديد كرئيس قسم، فأنا لا أعارض... إني، على العكس، أرحب بذلك. فهل ننتظر قدومك اليوم؟". أطلقت حنجرة هاشم كلمة "لا" قاطعة، رنّانة، مظفّرة؛ بيد أن شفتيه خنقتاها في اللحظة الأخيرة ومسختاها إلى كلمة "أجل" خجولة، خانعة.

الحديقة الغسقية

- لقد حدثتني اليوم عن زوجتك، رحمها الله، وكشفت لي عن بعض من حياتك. وإني لأرى في ذلك عربوناً على الصداقة التي بدأت تجمع بيننا... كنت أعلم بأن مصيبة قد ألّمت بك. فلقد تعرفت فيك على إنسان حزين، على رجل فقد كائناً عزيزاً منذ يوم قدومك إلى هذه الحديقة. فقد انفردت بذلك المقعد المتآكل خشبه، غير مبال بالغبار الذي غطّاه. جلست ساهماً، تحملق في الفراغ، وتهز رأسك بين الحين والآخر كمن لا يستطيع أن يصدّق ما حل به. وكنت أنا أراقبك من مقعدي هنا، موزعاً بين الرغبة في التقرب منك والاستفسار عن أسباب قنوطك، وبين شعور مبهم، سمّه ضرباً من الحياء، أقعدني عن كل مبادرة. وتجدني اليوم آسفاً على تقاعسي. فالمرء في حاجة إلى أن يفتح قلبه لصديق، إلى أن يشكو همّه ويخفف من حدة الألم الذي يعتصر صدره. كنت لا أزال غريباً بالنسبة إليك ولاشك؛ وربما كنت سترفض مساعدتي وتعتبرها تدخلاً وقحاً في شؤونك، بل اعتداء على حرمة حزنك. مع ذلك، كان عليّ أن أحاول، أن أبادر إلى مد يد العون إليك، بدلاً من أن أكتفي برصد تصرفك، وسلوكك، وتعابير وجهك يوماً بعد يوم. ذلك أنك قد غدوت، على غراري، من المواظبين على هذه الحديقة الصغيرة التي

نسيتها حركة العمران. هذا الركن من ماضي المدينة الذي نجا من حمّى المقاولات العقارية. أصبحت مثلي ترتاح إلى سكينتها وربما إلى ما توطّن فيها من ذكريات أناس ومن أحداث. فللأماكن ذاكرتها وهي تفيض بما اكتنزته لمن يجيد الإصغاء إليها. ويقيني بأنه بعد عام أو عشرة سوف يروي هذا المكان حكايتك أو حكايتي على من ينصت إليه. تبتسم؟ لماذا؟ أاستغراباً أم سخرية مما أزعم؟ ولكن كيف تفسّر يا صديقي ترددك اليومي على هذه الحديقة، النكرة في ظاهرها؟ أدر نظراتك فيما حولك. ماذا ترى؟ ساحة دائرية يتوسطها حوض صغير نتن المياه، تتفرع عنها بضعة ممرات تنتصب على جانبيها أشجار هزيلة، يتعذر عليك تحديد هويتها. لا مرج ولا زهور، لا مراجيح ولا أطفال، لا باعة ولا أصداء غناء. فما الذي بات يجذبك إليها إن لم يكن عالمها الحميمي؟ ماضيها الذي صنعه أناس مثلي ومثلك، قَسَتْ عليهم الحياة، وخنقتهم الهموم، وطوقتهم الوحدة، فما عادوا يرتاحون إلا للأمكنة التي هي على صورتهم، حزينة، وديعة، منسية... لقد كانت لنا أيام عز بكل تأكيد. لقد عرفنا الشباب، والعنفوان، والأحلام التي تكاد تطول السماء برحابتها وجموحها. أين أصبحت؟... آه، اندثرت كرماد هذه اللفافة. لقد غدت رماداً يا أيها الصديق! وربما من الحماقة أن نسعى إلى معاودة القبض عليها. لا تسئ فهم كلامي. فأنا هنا أتحدث عن نفسي فحسب. أعلمُ جيداً أن ذكرى زوجتك لا تزال حية في قلبك وفي وجدانك، وأنها لا تقبل المقارنة بالرماد. فأنت لم تفقد المرأة التي شاركت حياتك على مدى عقود إلا من أسابيع. أما أنا... فحكايتي شيء آخر. لقد أحببت أنا أيضاً. ماذا أقول: لقد همت في عشق امرأة. حسناء تعجز مفرداتي

الحقيرة عن وصفها. صبية تجسّد فيها كل ما في هذا الكون من سحر. لا تنظرْ إلي بدهشة وتعال؛ فقد كنت لا أزال شاباً عندما وقعت في غرامها... كنت أقطن غير بعيد عن هذه الحديقة التي كنت أجهل وجودها بالمناسبة. فما للشباب ولمثل هذه الأمكنة الساكنة؟ أكنت تتردد أنت على الحدائق عندما كانت الحياة تبدو وكأنها ملك يديك؟... ربما كان هذا المكان مختلفاً في مطلق الأحوال، على غرار المنطقة برمتها التي عرفت انقلاباً جذرياً. فقد شبّت فيها أبنية شاهقة على أنقاض الدور القديمة. دور بطابق أو اثنين، غائرة خلف شجيرات الياسمين والدفلة وورد العليق. أنت تذكرها حتماً؛ ويقيني بأنك قد ولدت وترعرعت في واحدة منها. على سطوحها كانت الخيم تنصب في مواسم الصيف فتنقضي السهرات على ضوء القمر، وسط المزاح والضحك وقرقعة النراجيل. وعلى شرفاتها كانت قصص الحب تنعقد... بعض هذه القصص كان ينتهي بخاتمة سعيدة، والبعض الآخر كان يظل معلقاً... أجل، معلقاً، كلحن ناعم، عذب، ينساب في صفاء ليلة صيفية فتتلاعب به النسمات ويتيه عن طريقه إلى أذن صاغية... لا، لست بشاعر. ومهنتي أبعد ما تكون عن الشعر. فأنا محاسب، محاسب متقاعد. وأعتقد بأنك أنت الآخر قد أنفقت حياتك في تعامل عقيم مع الأرقام؛ أو مع تقارير وجداول ومعاملات ضيقت أفقك إلى حد الاختناق. أنت كانت لك زوجة. أما أنا فقد كان لي طيف حبيبة. صدقني؛ فلقد شاب شعري وتقوس ظهري ولم أدّخر في خانة الحب أكثر من وهم. لنقل قصة عاطفية معلّقة... لعلك سئمت من حديثي، غير أن الوداعة التي لمستها فيك تشجعني على المضي في الكلام. فالمرء لا يقع كل يوم على صديق، على

إنسان يرتاح إليه فيساره بما يخجل أن يبوح به أمام الناس. فالرجل الرزين الذي في حضرتك الآن، أعني المحاسب المتقاعد الذي ينضح رصانة ووقاراً، شخصي الكريم بتعبير آخر، ما زال في أعماقه، في قرارة ذاته، وفياً ومخلصاً للمراهق الذي كانه ذات يوم... مراهق وقع في غرام سمراء، نحيلة وممشوقة القامة، كانت تقطن في واحدة من تلك الدور. كان اسمها ليلى، وكان الليل عالمها... إن ضوء القمر هو الذي أهداني إياها. فعندما رأيتها للمرة الأولى على شرفتها، كانت تسبح في نور من الفضة. كانت تتمايل على أنغام موسيقى آتية من الداخل، وتدور على نفسها، مادة ذراعيها إلى الأمام وكأنها تراقص شخصاً. سمّرتني رؤيتها في وسط الشارع، العابق برائحة الياسمين، ورحت أتابع بشغف ترنحات قامتها الرشيقة، وميلان خصلات شعرها الطويل. وفي لحظة من اللحظات تنبهت إلى وجودي فأطلقت ضحكة عابثة واستدارت بخفة وغابت عن عيني. ثم جاءني صوت عذب من داخل دارها ينشد، بنبرة لمست فيها غنجاً ودعابة: "يا امّا القمر عالباب"... آه! يا ليت تلك الليلة تعود يا صديقي. ليلتي الأولى مع ليلى. فقد مكثت أذهب وآتي أمام دارها، عاجزاً عن اقتلاع نفسي من ذلك الشارع الساكن والوديع، الذي تحول إلى وعد فردوسي لأعوامي العشرين. كنت شاباً نهماً إلى الحياة. كنت أعيش الساعات السحرية لحبي الأول. وكانت معشوقتي وسيدة أحلامي على مسافة أمتار مني... لا، لم تعاود الظهور على الشرفة ليلتها. ولكن، في الليالي التالية بقيت المعجزة تتجدد. أجل، وعلى مدى أسابيع. فقد غدوت أرتاد يومياً حيّها، قرابة العاشرة مساء؛ كنت أسير بخطوات متمهلة، كمتنزه يسعى وراء الترفيه

عن نفسه بعد يوم عمل مضنٍ. كنت لا أزال وقتها طالباً في كلية التجارة، وكان نهاري ينقضي بالتفكير بليلى وبلحظة وصالي معها. وصال بات يتم وفق طقوسية محددة. فما كنت أبلغ الشارع المتعرج حيث كانت تقوم دارها، حتى كنت أبادر إلى استعجال خطاي وكأن لا مقصد لي فيه ولا مراد. ولكن فيما كنت أجتازه مسرعاً، كنت استرق النظر إلى شرفتها. فإن لم ألمحها واقفة خلف أصص الريحان التي كانت تعتلي درابزين تلك الشرفة، كنت أتابع سيري؛ أستأنف تجوالي لدقائق في بقية أرجاء الحي ثم أقفل عائداً إلى الشارع المتعرج. فإن وجدتها في انتظاري، متمايلة كغصن بان خلف ذلك الدرابزين، أو منتصبة كرمح أبيّ وسط الشرفة، كنت أبادر إلى التخفي وراء جذع سنديانة شاهقة، غرستها يد المعونة الإلهية قبل عقود برسمي أنا ولابد! فلولا تلك الشجرة الطيبة، لحرمت من مرصاد أراقب منه حبيبتي. كنت التصق بجذعها العريض والرحب وأغور تحت غصونها فأتوارى عن الأنظار. لقد كان المارة ندراً في مطلق الأحوال في تلك الساعة المتأخرة من الليل وما حدث قط أن ارتاب أحدهم من وقفتي. أما ليلى، الدارية طبعاً بتمترسي أمام دارها، فقد كانت تستطيب وقفتي. ما الذي أنبأني بذلك؟ إشارة أرسلتها لي خلال ليلتي الثالثة في شارعها. كرة صغيرة قذفتها في اتجاهي فيما كنت أتفرسها بنظراتي مسحوراً، مأخوذاً. إن الضحكة الشفافة التي أطلقتها عندما حطت هذه الرسالة الطائرة عند قدمي، والتي أفاضت أجواء عرس على الشارع المعتم، هذه الضحكة الملائكية لا تزال ترن في أذني! عندما ترامت إليّ، غمرتني النشوة ودبّت في كياني حمية أطاحت بحذري ومخاوفي. اختطفت الكرة الصغيرة، كرة مطاطية

حمراء، ورفعتها حتى فمي. وبعدما تأكدت من أن التي أهوى تتابع حركاتي، بادرت إلى طبع قبلة طويلة على رسالة حبها لي. رسالتها الأولى والأخيرة... فقد اقتصرت علاقتنا في الأيام، بل وفي الأسابيع، التالية على حوار صامت. نظرات نتبادلها خلسة وابتسامات وإشارات نتجرّأ عليها عندما تخلو لنا الساحة تماماً. فقبل أربعين عاماً كانت حواجز صارمة تحول دون التقاء شابين هام واحدهما في حب الآخر. كنا في مقتبل العمر في مطلق الأحوال وكانت الحياة بأيامها الحلوة ووعودها الزاهية لا تزال أمامنا. هكذا خيّل إلينا. أو هكذا خيّل إليّ على الأقل. ولن أخفي عليك أني طفقت أخطط للعقد على ليلى... كيف اهتديت إلى اسمها مع أني لم أتبادل الحديث معها؟.. إن سؤالك في مكانه. ما أن طرق سمعي حتى شعّ في هذه الحديقة الجدباء عبق الريحان الأخاذ! ففي ليلتي السابعة تحت السنديانة، وفيما كانت معبودتي تساهرني من شرفتها، نودي عليها من داخل الدار؛ صوت أطلق اسم "ليلى". صوت شقيقتها على الأرجح؛ إذ عندما ارتفع ثانية منادياً أجابت سمرائي: "ماذا تريدين مني يا سلمى؟..." وقد تفوهت بهذه العبارة بنبرة لمست فيها قدراً من التأفف أدخل الغبطة إلى قلبي... ويبدو أن من أسمتها سلمى قد ألحت في طلبها مما اضطرها إلى مغادرة الشرفة. ولكن قبل أن يختفي نورها في تلك الليلة مرّرت يدها فوق أصص الريحان، بحركة مداعبة مشحونة بالمعاني، فتولت نسيمات عطوفة حمل عطره الزكي إليّ... ما بالك أيها الصديق؟ لقد علا وجهك شحوب مفاجئ... هل أنت بخير؟... لقد أثقلت الكلام عليك ولابد. لا!... تريدني أن أتابع؟ أن أسرد عليك كامل قصتي؟ سأفعل، وبكل رحابة صدر. فأنت تجيد

الإنصات، بل وتتعاطف مع من يضعك في سرّه... لقد شاء القدر يارفيق أن يكون خريف ذلك العام ممطراً وبارداً على نحو غير مألوف في بلدنا. فانقطع حبل مواعيدنا وما عادت التي أهوى تخرج إلى شرفتها، لا في الليل ولا في النهار. ذلك أني شرعت أتردد على الشارع ظهراً وعصراً بعد أن فقدت الأمل بلقائها ليلاً. كان سلوكي ضرباً من المجازفة، بل من التهور، ولكن من أين كنت سأجيء بالاتزان والحكمة وقد جرفني الشوق في تياره الجامح؟ مكثت أمترس عند سنديانتي التي ما عادت غصونها تحميني من وابل المطر ولا جذعها يتستر على وجودي في وضح النهار. ومع أني كنت أتظاهر بالمذاكرة أو بمطالعة صحيفة أو كتاب، ومع أني كنت أتفادى النظر إلى العابرين وأسعى إلى الانكماش على ذاتي لأتوارى بقدر الإمكان عن الأنظار، فإن وقفتي غير المبررة ومشهد ثيابي المبللة لفتا في النهاية انتباه أهل الحي... وذات يوم قارس، وفيما كنت أستعجل الخطى نحو مركز مراقبتي، وأنا أسترق النظر إلى الشرفة الخالية، كدت أصطدم بعملاق عريض المنكبين، كثيف الشنب، أسود العينين. بادرني قائلاً بنبرة هازئة، وهو يلوّح بعصا غليظة: "أهلاً بروميو آخر زمان!". ولم يدع لي فرصة للتفوه بكلمة واحدة. قبض على ياقة معطفي بيده اليسرى ورفع العصا مهدداً، بيده اليمنى. سمّر عينيه في عيني وأردف يقول: "اصغ إلي جيداً يا سافل، افتح أذنيك واسمع: إذا ما شاهدتك ثانية تحوم في هذا الحي فسوف أحطّم هذه العصا على ظهرك... سوف أهشّم عظامك". وبلمح بصر تجمع عدة أشخاص من حولي. من أين خرجوا؟ لست أدري. نظرات شزرة بدأت تحاصرني من كل صوب فيما ارتفعت عصا العملاق الفظ فوق رأسي في حركة متوعدة. وتابع المعتدي

الوقح بصوت جهوري ينم عن رغبة في ترذيلي وتحريض العابرين والقاطنين عليّ: "ألا تخجل من البصبصة على بنات الناس؟ أليس لديك حريم ياابن...". تصور خيبتي؛ بل مرارتي وانجراحي. فقد كنت أحلّق في أجواء حب شاعري، أثيري، ملائكي، فإذا بي أنزل من سمائي وأمرَّغ في وحول الشهوة البهيمية. لم أغتظ من الشتائم التي استهدفتني شخصياً بقدر ما تألمت من كلمة "بصبصة"، التي نالت من مكانة مليكتي. فقد حط منها ذلك التعبير السوقي على نحو لا يغتفر!...

كانت الشهامة تقتضي مني أن أواجه بحزم وشجاعة من تجرأ على التطاول على ليلى وعليّ؛ أن أكيل الصاع صاعين لصاحب العصا الغليظة؛ أن أنهال عليه بالشتائم وأن أُتبع الشتائم باللكمات. غير أن الله لم ينعم عليَّ ببنية جسدية قوية. كنت نحيلاً، بل شبه هزيل، منذ عهد شبابي الأول. لذلك آثرت الصمت وفضلت الانسحاب. تخاذلت.. خلاصة القول. يعزّ عليّ أيها الصديق أن أبوح لك بما حصل. فالشعور بالخزي لا يزال يكوي صدري حتى هذه اللحظة، وطعم المرارة لا يزال عالقاً في فمي رغم انقضاء العقود من السنين. ففيما كنت ألوذ بالفرار، مهزوماً ذليلاً، تلاحقني تعليقات ساخرة وتهكمات بذيئة أغدقت بها عليّ جوقة من الفضوليين، لمحتها واقفة أمام دارها، متجمدة على الرصيف الضيق، على بضع خطوات مني!... لن أنسى، ما حييت، النظرة التي رمقتني بها. فقد كان فيها الكثير من الخيبة والأسى، وشيء من التهكم أيضاً... يا لقسوة القدر! يا لسخريته... فللمرة الأولى التي قيض لي فيها أن أراها عن كثب حكم علي أن أكون في ذلك الوضع المخزي. وفي اللحظة التي تشابكت فيها نظراتنا أدركت أن صفحتي

معها قد طويت... فهل يتجرأ شاب على أن يواجه من جديد المرأة التي يهوى بعد أن شاهدته، بأم عينها، مقهوراً ومرذولاً؟... ابتعدت عنها، بل هجرت حيّها ولم أطأ أرضه لسنوات طويلة. سنوات قاسية لازمني خلالها إحساس قاتل بالإحباط أقعدني عن كل مشروع عاطفي جديد. فكلما كنت ألتقي بفتاة ترتاح لها نفسي وألقى منها قدراً من العطف والاهتمام، كان ذلك الشعور بالانهزام يستيقظ في داخلي، يتحول إلى غول رهيب ويشلني بلا رحمة. فإن شئت مغازلتها، تذكرت العصا الغليظة المستهدفة عظامي؛ وإن دنا وجهها من وجهي، تلاشت فجأة ملامحه ليطفر أمام ناظري وجه ليلى بعينيه الحزينتين والأسيانتين... لمَ تهز رأسك؟ أتعتقد أني أغالي؟ أنافق؟... ثق بأني أحدثك بصدق مطلق. بل هي المرة الأولى التي أصارح فيها إنساناً بمأساتي الشخصية. ربما اعتبرت كلمة "مأساة" لفظاً مبالغاً فيه. بيد أني إنسان عادي، ومأساتي تتناسب مع حجم شخصيتي الوضيعة... لقد سعيت طبعاً للتغلب عليها، للخروج منها إن جاز التعبير. فعندما بلغت الثلاثين صارحت نفسي قائلاً: ليس من العدل أن تظل أسير تلك الواقعة المخزية. فمن حق الإنسان، أي إنسان، أن يعطى فرصة ثانية في الحياة. اذهب إلى حيث أهنت وأذللت وجاهد كيما ترد الاعتبار إلى ذاتك في نظر حبيبتك... هكذا عدت إلى الحي بعد طول غياب، وإنما لأراه في صورة جديدة، غريبة وموحشة. صدقني إن قلت لك إني لم أهتد فيه إلى دار واحدة من الدور التي عرفت؛ لم أتعرّف فيه حتى على داري أو دار من كنت أهوى. فقد محي الحي القديم وارتفع على أنقاضه حي جديد. حلّت بنايات شاهقة، قبيحة نكرة، مكان تلك البيوت القديمة التي كانت تمنح

الحي سرّه وسحره، وغزا الإسمنت كل شبر من الأرض، مفترساً حدائق الياسمين والورد. صدمت، صعقت أمام هذ التحول الجذري والمباغت. وأدركت بأن "الفرصة الثانية" التي علقت بحبل هوائها قد غدت في مهب الريح. فأين أعثر على سمراء الشرفة كيما أفتح صفحة جديدة معها؟ وتجلت أمامي حقيقة كانت قد غابت عني. حقيقة بديهية كنت قد تعمدت تجاهلها وهي أن الزمن لا يرحم! فهو يسير كنهر عارم، جارفاً معه ركائزنا ودعائمنا. فقد عشت على مدى سنوات على صورة حبيبتي واقفة على شرفتها، وكنت، في قرارة نفسي، أعني في مناطق الظل منها، موقناً بأنه في اللحظة التي سأتجرأ فيها على مواجهتها سينقشع الظلام عن حياتي وأعود إلى الإمساك بزمام أمري. بمعنى آخر، لم أفقد الرجاء في أعماقي. لذلك كانت صدمتي عظيمة. وقفت مشدوهاً أحملق بالأبنية المتحلقة من حولي، عاجزاً حتى عن تحديد المكان الذي كانت تقوم عليه دارها. وعبثاً بحثت عن السنديانة التي كانت شاهداً على حبي وعلى سقوطي. فقد اقتلعت هي الأخرى من جذورها وتحولت ولابد إلى بضع قطع من الحطب التهمتها النار وتبعثر رمادها. وعدت أدراجي، مطأطئ الرأس، حاملاً من جديد على أكتافي عبء تخاذلي.

في مطلع هذا العام أحلت على التقاعد. لم يعد لدي عمل. لقد تفرغت. تفرغت بالمعنى الكامل للكلمة، أي أصبحت فارغاً... فأنا لم أنشئ أسرة؛ لم أبنِ بيتاً. أنفقت عمري فوق مكتب حديدي، أطارد الأخطاء في جداول الأرقام. ضيّعت أربعين عاماً من حياتي في تأدية وظيفة حساب عبثية ليس لها بداية ولا نهاية. عدت إلى الطواف في هذا الحي يشدني إليه الحنين ويحدوني أمل عنيد في العثور على من

لازلت أعشق. فربما لم تغادر الحي على الرغم من التغييرات التي طرأت عليه. ربما تعرفتُ عليها في سيدة مسنة، وديعة وطيبة تسير بتؤدة في الطريق، قابضة على يد حفيد... فإذا ما تلطف القدر ووضعني في دربها فقد أعطى أخيراً الفرصة الثانية التي طالما سعيت وراءها. فقد أفلح في تبرئة صفحتي أمامها، في غسل عار تخاذلي. فالسنون كفيلة، على ما يقال، بتعزيز شعور التسامح في القلوب، وقد تغفر لي فتاتي، التي شاب شعرها هي الأخرى ولا بد... وهكذا اهتديت إلى هذه الحديقة التي نجت بنفسها من موجة التغيير والعمران. غدوت أرتادها يومياً وأجد سعادة وراحة في اللجوء إليها. فقد توطد في نفسي إحساس، بدأ غامضاً ثم أصبح واضحاً جلياً، بأنه إذا ما قيض لي أن ألتقي بليلى ثانية فإن هذه الحديقة هي التي سوف تحتضن لقاءنا. فهي بنت الماضي، على غرار حبي اليتيم... لذلك تتسارع ضربات قلبي كلما لمحت امرأة عند بابها الحديدي؛ أراقبها وهي تدفعه بيدها، تتقدم على الممر الضيق المفروش بالحصى، تدنو من الساحة المستديرة التي نحن فيها الآن... ولكن قبل أن تختار لنفسها مقعداً لتستريح عليه، أكون قد أشحت نظراتي عنها، مضطراً إلى التسليم بأنها ليست موعودتي... فعلى جبين ليلى خال؛ وشم رائع ميزتها به الطبيعة الرؤوفة بحقها... وهو الذي سوف يهديني إليها، على غرار النجمة التي أهدت الملوك المجوس إلى المهد قبل ألفي عام!... لا تضحك! فسيأتي يوم تدخل فيه ليلى إلى هذه الحديقة. في أعماقي إيمان وفي قلبي رجاء. فلماذا أعطينا الحياة إن كانت ستظل بلا معنى؟... أأنت تضحك أم تبكي؟... ماذا أصابك؟ ماذا تقول؟... لن تأتي أبداً؟!... ومن أين جاءك هذا اليقين؟... لست أفهم... لأنك أودعتها في التراب قبل أسابيع؟!...

شهادات عن رواية هنرييت عبودي
خماسية الأحياء والأموات
التي صدرت عن دار المدى

"رواية عن تحولات الإنسان في الزمن وسطوة الزمن الذي يحول الإنسان، فيها مهارة الكتابة ومتعة القراءة في آن واحد، فضلاً عن اقتصاد لغوي رهيف وقدرة على توليد الحكايات وطرح الأسئلة".

فيصل دراج ـ الحياة

"المفاجئ في هذه الرواية هو تلك السردية الرهيفة المتحررة من سطوة الأسلوبية المشاعرية الرخوة والغنائية الهشة، ومن مرض سرطانية اللغة وهيمنة الصوت الواحد"

عبد الرزاق عيد ـ السفير

"خمسة أصوات، خمسة ألوان من الحياة، حملت عبء السرد ولوّنته، وكسرت نمطية السرد المألوفة وثباته. فتعددت الحكايات وتوالدت شخصيات، وتداخلت أزمنة... في ضروب من الحضور والغياب والظلال".

رباب هلال ـ الحياة

"في هذه الرواية إحساس عارم بالزمن يتجلى عبر العلاقة بالصورة الفوتوغرافية، كأن الصورة هنا هي صلة الوصل بين الماضي والحاضر، بين الأحياء والأموات"

عيسى مخلوف ـ إذاعة الشرق

"في زمن طغت فيه السياسة والأيديولوجيا على الرواية ، تطالعنا خماسية الأحياء والأموات بطيف ألوان من شخصيات واحدة الهوية متعددة الأبعاد: الجنس والحب، الفن، المعرفة، كلها أبعاد استخدمتها الروائية كوسيلة إيحائية لعالم تريده ألا يموت".

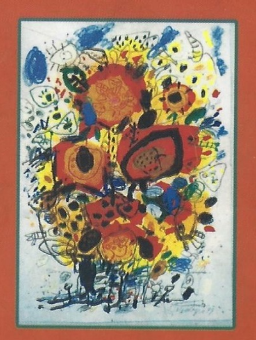
آمال فلاح ـ الحدث

"رواية حديثة التقنية" بدون عقدة مركزية واحدة، بل عدة عقد مصغرة، كلما انحلت عقدة منها علقتنا الكاتبة بعقدة جديدة، وبكل مهارة، كيلا نمل وكي نواصل القراءة حتى النهاية..

هاشم صالح ـ نزوى

"خمسة نماذج لشخصيات تحلم وتعترف وتتوهم وتشك، تحاول قراءة العيون وجغرافية الوجوه والأجساد في مرايا مقعرة أو محدبة أو متعاكسة، من خلال أربع وخمسين لوحة منفردة تتقاطع لتشكل في النهاية لوحة جدارية واحدة منقوشة بأصابع امرأة تعرف ما تريد".

بندر عبد الحميد ـ الحياة



نماذج حية وخاصة من نساء ورجال، في مفاصل حادة من حياتهم اليومية، في أجواء شرقية وغربية مختلطة، تثير أسئلة جديدة عن حقائق غائبة، أو ألغاز، في نسيج قصصي خاص ولغة مشوقة.

ISBN:2-84305-790-X

